جامعة القاهرة
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية

أبحـــاث
فى
نظرية الاتصال وعملية التفاعل السلوكى

للدكتور
حامد ربيع

مكتبة القاهرة الحديثة

جامعة القاهرة
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية

ابحـــــاث
فى
نظرية الاتصـال وعملية التفاعـــل السلوكـــــى

المحاضرات التى القاها الدكتور حامد ربيـــع
على طلبه كلية الاقتصاد والعلوم السياسيـــة
ومعهد الاعلام للعام الجامعى ١٩٧٣

مكتبة القاهرة الحديثه

١ ـ قد تبدو العلاقة بين الاعلام والسياسة الخارجية ، لأول وهلة علاقة ضعيفة ان لم تكن لا وجود لها . في تصورنا المعتاد الذي درجت عليه التقاليد العربية فان كلا منهما يكاد يتنافى مع الآخر . فالاعلام تترجمه عادة اتنافى خطاب تثير اكبر قدر من الضوضاء ، عملية تتصف بطابع التضخيم والملابسة دون حياء يسيطر عليها الصوت المرتفع وتملق الجماهير . ولم تقتصر بهذا المعنى على النطاق الداخلي بل اضحت تميز الاعلام العربي اينما في النطاق الخارجي . قصة السفير الذي يدعو رجال الصحافة ليطلق على الوقائع بكلمات وعبارات تجافي التقاليد الدبلوماسية ليست بالعدد الشاذ او غير المتكرر في بعض الاحيان يكاد المحلل المعاصر يتصور ان الدبلوماسيين العرب في الخارج يتصورون انفسهم نجوم للسينما او للتليفزيون يعتقدون من حقهم ان تصدر منهم اي تصريحات دون تدبر لمداها ولقيمتها الحقيقية السياسة الخارجية على العكس من ذلك في مفهومنا العربي تثير في الذهن فكرة التحركات السرية المعقدة التي تبدأ وتنتهي في الخفاء بين الكواليس بعيدا عن اعين الجماهير لا يدري بها احد . يغلفها الكتمان ويحيط بها الصمت . هي قضية الطبقة الحاكمة وليست أمورا تعني الشعب الكادح .

من الطبيعي ازاء مثل هذا التصور ان لا موضع للحديث او الاهتمام لحقيقة العلاقة بين الاعلام والسياسة الخارجية . هي علاقة جزئية وعلى كل حال فهي لا يمكن ان تؤثر في نجاح او في فشل اي منهما حيث ان كل منهما مستقل عن الاخر من حيث طبيعته ومسالك تطوره .

على ان هذه الصورة وهذا التصور انما يعبر عن مفهوم اضحى بدائي في تحليل طبيعة الحركة السياسية في النطاق الدولي . وهو مفهوم لا يزال يسيطر لا فقط على اجهزة الاعلام وعلى تخطيط السياسة الخارجية العربية على المستوى المحلي بل وايضا على مستوى جامعة الدول العربية ان العالم المعاصر لم يعد يقبل ان ينظر الى السياسة الخارجية على انها أمور تبتعد عن اهتمامات الشعب ومطالب الجماهير . والاعلام قد تطور واضحى علما قائما بذاته له قواعده وله حيله والاعيبه ومداخله واضحت العلاقة بين الاعلام الخارجي والسياسة الخارجية علاقة ارتباط وثيقة بحيث ان كل منهما يتدخل في الآخر ليشكل بعض ابعاده ان لم يكن اغلبها .

وقد كان من الضروري ان يستيقظ العالم العربي عقب احداث عام ١٩٦٧ أو على الاقل من الواجب على أجهزة الجامعة العربية وقادتها والمسئولين عن ارادتها ان يعيدوا النظر بشكل تقييم واقعهم المحلي عقب الهزيمة الساحقة وما ارتبط بها من ملابسات . لقد اكتشف العالم العربي

فجأة ان السياسة الخارجية الاسرائيلية تسير وتتحرك مستندة الى اعمدة ثلاث : اعلام ذكى وقوة عسكرية ضاربة ودبلوماسية كفاحية . ادخلت التقاليد الاسرائيلية مفاهيم جديدة فى كل من هذه الادوات: فالاعلام اضحى خط الدفاع الاول وخط الهجوم الاخير . والعسكرية اضحت تؤمن بمبدأ الاستراتيجية النشطة والدبلوماسية لم تعد مجرد تمثيل مصالح وانما اضحت قيادة حركية محلية . فماذا فعلت جامعة الدول العربية ؟

هذا هو السؤال الذى نريد ان نجيب عليه مبتدئين فى هذا التعليل من المقدمات الفكرية المتعلقة سواء بالتطورات المعاصرة للسياسة الخارجية سواء بحقيقة العلاقة بين الاعلام الداخلى والاعلام الخارجى . متابعة التطورات المعاصرة للسياسة الخارجية سوف تقودنا الى تحديد كيف ان هذه التطورات فرضت استغلال السياسة الخارجية لعنصر الاخبار والاعلام كأحد المسالك والادوات . على ان هذه العملية لا تعنى الخلط بين الاعلام الخارجى والاعلام الداخلى ، فكل منهما متميز عن الاخر وان ارتبط بعلاقة تأثير وتأثر . وهكذا ننتهى بأن نقف امام الاعلام العربى لنثير علاقة الاستفهام الضخمة : هل تابع بدوره هذا التطور أم لا يزال عاجزا يقف امامه موقف المشاهد والمتأمل ؟ وكيف السبيل الى خلق حالة الحركة والشعور فى ذلك الجسد المترهل الذى يسمى بالجامعة العربية ؟

— ١ —

السياسة الخارجية وتطوراتها المعاصرة

٢ — فهم طبيعة العلاقة بين الاعلام والسياسة الخارجية يفرض علينا ان نتابع التطور المعاصر الذى اصاب العمل السياسى فى نطاق الاسرة الدولية وكيف انه اضحى ينهج من خصائص ومقومات تختلف اختلافا كليا عن التقاليد التى ظلت سائدة حتى عدة قرون واجيالا حتى انفجار الحرب العالمية الثانية .

تعنينا من هذه الصورة الجديدة للعمل السياسى الخارجى ان نؤكد على حقائق ثلاث :

أولا : ضرورة التمييز فى السياسة الخارجية بين مستويات ثلاث : اعداد السياسة الخارجية من جانب ثم عملية صنع القرار السياسى من جانب آخر ثم عملية تنفيذ القرار السياسى من جانب ثالث .

ثانيا : نقل اساليب العمل السياسى الداخلى الذى اساسه التعاقد الديمقراطى بعض القوى الى النطاق الدولى والخارجى بصفة خاصة من خلال المنظمات الدولية .

ثالثا : تعدد ادوات تنفيذ السياسة الخارجية والنظر الى الاعلام على انه اداة من ادوات تنفيذ السياسة الخارجيه تربط بين العمل الداخلى والعمل الخارجى من جانب وتستند بدورها الى أدوات اخرى مكملة من جانب آخر •

متابعة هذه النواحى سوف يسمح لنا ابراز اهمية العلاقة بين السياسة الخارجية والعمل الاعلامى •

على أننا قبل ان نلقى بانفسنا فى اعماق هذه المناقشات علينا ان نحدد بعض المفاهيم :

الاعلام يقصد به عملية الاخبار اى نقل الرسالة من جهة الى اخرى • هذا المفهوم قد يختلط بمفهوم آخر درج العلماء على استخدامه وهو فكرة الاتصال • والواقع ان كلا المفهومين الواحد منهما قريب من الاخر • على اننا يجب رغم ذلك ان نميز بينهما فالاعلام يرتبط بأداة جماهيرية او على الاقل أداة تجعل عملية الاتصال تتجه لا الى شخص معين وانما الى جمهور متنوع • الاعلام بهذا المعنى أداة من أدوات الاتصال • الاتصال على العكس من ذلك هو العملية المتعلقة باستقبال رسالة معينة واحداث اثر معين فى شخص المستقبل • وهكذا الاتصال اوسع من الاعلام من جانب واضيق من جانب آخر : فالاتصال قد يكون اتصالا اعلاميا وقد يكون اتصالا دعائيا • والاتصال قد يكون نتيجة رسالة اعلامية وقد يكون نتيجة اتصال شخصى • فارسال خطاب من صديق الى آخر او مكالمة تليفونية هو من قبيل الاتصال وليس من قبيل الاعلام • وبعبارة أخرى سوف نجعل مفهوم الاعلام فى هذا التحليل قاصرا على عملية الاتصال الجماهيرية المستندة الى اجهزة نقل الاخبار بطريقة منظمة •

كذلك رغم ان العلماء قد استقروا على التمييز بين الاعلام والدعاية الا اننا فى خلال هذا التحليل سوف نجعل كلمة الاعلام تتسع لتشمل المفهوم الدعائى للاتصال وسوف نرى فيما بعد ان الاتصال الخارجى يشجع هذا التصور •

٣ — أول ما يجب ان نلاحظه على العمل السياسى الخارجى هو ضرورة التمييز بين ممارساته • العمل السياسى الخارجى هو حركة سياسية • بهذا المعنى يخضع لجميع القواعد التى يفرضها مفهوم الحركة • ولكنه حركة لا يمكن ان تكون صادرة الا من الدولة بعبارة اخرى هو حركة حكومية • وهذا يفرض على العمل السياسى الخارجى أول خصائصه : انه نشاط للاداة الحكومية فى نطاق الاسرة الدولية • وحيث ان الاسرة الدولية لا تزال تخضع لشريعة الغابة ولا تزال لم تملك بعد ذلك التنظيم الذى يسمح بالجزاء لمخالفة قواعده فان العمل السياسى الخارجى لابد وان يكون هذه

الحقيقة : انه في جوهره ليس الا سعي نحو السيطرة والاستحواذ • انه من حيث طبيعته ليس الا انتزاع لمكاسب او حماية من عدوان متوقع • وهكذا من تفاعل هذين المتغيرين تتحدد خصائص ومستويات العمل السياسي الخارجي •

دون التطرق الى جزئيات نظرية ليس هذا موضعها نستطيع ان نميز بين مستويات ثلاث من مستويات الحركة في نطاق العمل الخارجي كل منها له خصائصه وله مقتضياته :

أولا : وضع او صياغة السياسة الخارجية او ما نسميه
Formulation of foreign policy

ثانيا : عملية صنع القرار السياسي الخارجي أو
Process of decision mating

ثالثا : عملية تنفيذ السياسة الخارجيـــــــة
Conduct of foreign affairs

أ) وضع او صياغة السياسة الخارجيه يراد يكون مرادفا لكلمة تخطيط السياسة الخارجية • يقصد به مجموعه عمليات ثلاثة : تحديد للاهداف التي تسعى الدولة الى تحقيقها في النطاق الخارجي • تنظيم تصاعدي لتلك الاهداف من حيث علاقة كل منها بالاخره ثم بنيان واضح ومحدد لاطار مفهوم الامن القومي من حيث مقوماته وعناصره •

الاتجاه الاساسي للمجتمع السياسي في علاقاته الخارجية يتحدد بالتاريخ والتجربة ، فموقعه الجغرافي ومصادر قوته الذاتيه لابد وان تحدد اطارا يمثل الحد الادنى لاهدافه الحركية والحد الاقصى لتلك الاهداف • الحد الادنى هو الذي يعني الضمانات اللازمة للحماية الذاتية وهذا هو مفهوم الامن القومي ، مفهوم بعبارة اخرى يعبر عن ذلك القسط الادنى الذي لايجوز للحاكم السياسي ان يتخطاه في اي لحظه من لحظات صراعه وحركته في النطاق الخارجي والا عرض الكيان الذاتي للمجتمع الكلي للتهديد والخطر • هذا المفهوم يتغير بتغير الظروف ومعالم التطور الحاسم لعملية الاتصال بين المجتمعات السياسية • وهكذا نجد ان مفهوم الامن القومي للولايات المتحدة في خلال الفتره السابقه على الحرب العالمية الثانية يختلف اختلافا واضحا من حيث ابعاده الحركية لنفس المجتمع في النصف الثاني من القرن العشرين •

على ان كل مجتمع سياسي بلغ درجة معينة من النضج لابد وان تكون قد تحددت بالنسبة له مجموعه من الاهداف الواضحة تبعد عن ان تقتصر على مجرد الدفاع عن الكيان الذاتي • ان السياسة الخارجية هي عملية سيطرة واستحواذ وهي بهذا المعنى حركة ايجابية تتجه دائما الى الغـــزو والاستيعاب ولا توجد حركة بهذا المعنى دون اهداف محددة واضحه يسعى اليها مصـــدر

الطاقة من تلك الحركة ، وكلما ازدادت الطاقة تنبضا كلما امتدت ابعاد الحركة اتساعا . ومن ثم فان المجتمع السياسى لابد وان تكون اهدافه واضحه فى تحركه الخارجى من حيث علاقاتها بقدراته الذاتية وحقيقة الطاقة التى يملكها وتستتر خلف تلك القدرات . على ان لايكفى التحديد بتلك الاهداف بل يجب ان تخضع لتنظيم تصاعدى . بحيث يمكن التفضيل او الاختيار حيث يتساوى او يتصارع هدفان ومن ثم يمكن القول ودون تردد بأيهما نستطيع ان نضحى به وايهما لايجوز ان يكون موضع مناقشة ولو جزئية : تحديد للاهداف ، تنظيم تصاعدى لابعاد الحركة ، اطار واضح لمفهوم الامن القومى ، هذا هو المدلول الهام لصنع او صياغة السياسة الخارجية . وهنا نلحظ ان السياسة الخارجية بهذا المعنى تمتاز بالثبات والاستقرار ولو النسبى : قد تتغير الحكومات وتتنوع النظم السياسية ورغم ذلك فمقومات وعناصر السياسة الخارجية تظل واحدة . ومقارنة بين السياسة الخارجيه السوفيتيه فى البحر المتوسط قبل الثورة الشيوعية وعقب الثورة الشيوعيه تكفى لتأكيد هذه الملاحظة . كذلك يجب الا ننسى ان السياسة الخارجية على مستوى الصياغة والصنع تظل دائما من عمل السلطة الشعبية او الارادة الشعبية او على الاقل تتقابل فيها قدرة القيادة فى أوسع معانيها على التخطيط والاقناع باستعداد الطبقات المحكومة بالاقتناع بالمغامرة ..

ب) عملية صنع القرار السياسى تمثل المستوى الثانى من مستويات السياسة الخارجية . القرار السياسى هو التصميم الارادى السلطوى بعد تصفية مشكلة معينة من خلال التلاحم الحركى بموقف معين . بعبارة اخرى القرار السياسى فى مدلوله الحقيقى يعنى :

١ــ ارادة او عمل ارادى من جانب السلطة يتجه نحو معالجة الواقع .

٢ــ وهو يفترض وجود مشكلة معينة تحددت زمانا ومكانا وموضوعا .

٣ــ القرار من ثم هو تصميم ارادى يعنى الانتقال من الاطار المجرد الذى يمكن ان نصفه بأنه عالم الغايات والاهداف الى الواقع الذى نستطيع ان نحدده بأنه مشكلة او عقبه او صعوبه واجهت الحركة السياسية وتعينت تصفيتها .

القرار السياسى فى العمل الخارجى هو صورة من صور نشاط الدولة بهذا المعنى العام ولكنه يبرز بشكل اكثر وضوحا عملية الانتقال من ذلك الاطار المجرد الذى اسميناه بصنع السياسة الخارجية اى بالتخطيط العام للاهداف السياسية المرتبطة بالتعامل الدولى الى الواقع المحدد وقد واجهت الحاكم مشكلة معينة يسعى الى التخلص منها بأسلوب او بآخر .

تقسيم أنواع القرارات السياسية في الاطار الخارجي بقصد تهويبها عملية تمثل احدى مظاهر الغموض الذي يسيطر على التأصيل الفكري المعاصر لنظرية السياسة الخارجية . المحاولات محدودة . بل ونفس تعريف القرار السياسي الخارجي تكاد تكون لا وجود لها . لغلب علماء السياسة الخارجية يتجنبون هذه العملية حتى ان العالم الامريكي بريشير صاحب الشهرة الدولية بفضل مؤلفه من النظام الاسرائيلي للسياسة الخارجية قام بعملية تجميع لاهم اتجاهات المؤلفين بهذا الخصوص واستطاع من خلال متابعة الفقه المعاصر أن يكتشف كيف ان فكرة تهويب القرارات السياسية في النطاق الدولي لا موضع لها من اهتمام لغلب المدارس المعاصرة . واذا كان بعض العلماء يهتم اهتماما خاصا بنماذج معينة من القرار السياسي كما هو بالنسبة لذلك الذي يوصف بقرار التأزم فان الامر الذي لاشك فيه ان عدم تأصيل انواع القرارات من حيث طبيعتها ومقوماتها لا يمكن الا ان يؤدي الى تجهيل بأبعاد التحليل . يقول العالم السابق ذكره : " مفهوم القرار يفترض ولا يحدد . او هو يستخدم كمرادف لكلمة سياسة ولا ينظر اليه على انه اساسي في التحليل " . كذلك البعض يميز بين ما يسميه القرار وعملية صنع القرار ولعل خير من يعبر عن هذا التمييز عالم الاجتماع الاشهر بارثونز الذي يصل به الامر الى تحديد مستويات ثلاث تنتهي بمفهوم الحركة : " كلمة صنع القرار تفهم على انها التصرف الذي يعني التصميم من جانب الارادة بتوجيه معين للحركة تهما لاعتبارات بدرجة او بأخرى شعوريه تدور حول مجموعه من البدائل ، أما القرار فيجب ان يفهم على أنه ذلك الذي تم تحديده . الحركة هي الشيء الذي حدث اي الشيء الذي وقع فعلا بما يتبعه من عناصر التحرك والفعل " مما لاشك فيه ان عملية صنع القرار السياسي اكثر اتساعا من القرار لان القرار هو تعبير عن المخرجات التي ترتبط بالموقف اما عملية صنع القرار فهي كل ما يرتبط بالموقف من مدخلات ومخرجات فضلا عن التفاعل بينهما . الحركة هي اكثر اتساعا حيث يصير القرار أحد عناصر وحيث تصير عملية صنع القرار احدى مراحلها . اذا تركنا هذه النواحي جانب وحاولنا تأصيل انواع القرار السياسي الخارجي في نماذج واضحة ومحددة لما وجدنا اي محاولة حتى اليوم جديرة بالاعتبار . المحاولة الوحيدة التي يجدر بنا ذكرها هي تلك التي ندين بها للعالم الامريكي السابق ذكره اي بريشير حيث يقدم لنا تلسبرلوجية اساسها التمييز بين متغيرات ثلاث : اولا ما يسميه بعامل الاستمرار الوقتي ثم ثانيا محور يدور حول طبيعة القرار هل هو قرار بالمبادرة او رد فعل ثم اخيرا ما يعرفه بأنه سلم الاهمية . على ان الواقع ان هذا التقسيم لا يحكم طبيعة القرار وصفة خاصة من حيث ارتباطها بالموقف كعلامه من علامات الانطلاق الحركي في عملية ربط التحرك

الخارجي بالاهداف السياسية • وكذلك فمن تقدم تيبولوجية اخرى تعود لا الى متغيرات مستقلة وانما الى محور اصيل وهو الهدف المباشر من القرار من حيث علاقته بالاطار العام للسياسة الخارجية •

ومن ثم نميز بين الصور الاتيـة :

أولا : القرار الحاسم او Tranchante اى القرار الذى يعنى مواجهة صريحة للموقف بقصد تصفية المشكلة نهائيا • هذا القرار هو اقصى قمة الحركة حيث تصير القيادة السياسية وقد رأت ان المشكلة بلغت من الخطورة ما يفرض عليها الا تقبل بخصوصها اى تأجيل • يعود ذلك واضحا فى المشاكل المصيرية وبصفة الخاصة القرارات المتعلقة بمشاكل الامن القومى •

ثانيا : مايسمى بقرار التأجيل او Mise-a - Jour اى ذلك القرار الذى يعنى ارجاء حل المشكلة اى ارجاء المواجهة الحقيقية الى فترة اخرى اكثر ملائمة • قد تكون عملية الارجاء هذه مردها الارتباط بمواثيق دولية او عدم القدرة والاستعداد على مواجهة المخاطر التى تفرضهـا عملية المواجهة او عدم اهمية المشكلة بالنسبة للاطار العام للحركة • هذه الصورة من صور القرارات تثير بشكل واضح واكثر من غيرها من النماذج طبيعـة عملية تحليل القرار السياسى الخارجـى : فتحليل القرار السياسى الخارجى لايمكن فصله عن الاطار العام للحركة • انه نقطة او منعطف فى الاندفاع العام نحو التعانق بين الداخل والخارج ولا يمكن فهم حقيقة وابعاد ذلك المنعطف الا عقب رابطـه بما سبقه وما لحقه واهمية القرار ليست فقط فى اتخاذه بل وكذلك فى لحظة اتخاذه • فهناك قرار لو لم يتخذ فى لحظة معينة لاقيمة له وهناك من القرارات ما لا يجوز اتخاذها بأى شكل كان فى لحظة بعينها • ان قرار بالقتال ، على سبيل المثال وقد اعلن عنه بوقت كاف ودون مبالغة صورة من أسوأ انواع القرارات التى يمكن ان يتخذها الحاكم السياسى لانه يخالف طبيعـة واقتصاديات اسلوب القتال الجسدى فى الصراع الدولى •

ثالثا : قرار التوفيـق Compromise اى ذلك القرار الذى يدور حول التلاعب بالموقف بقصد الوصول الى حل للمشكلة لا يصل الى مرتبة الحل الحاسم الذى يفترض المواجهة والتصفيـة ولا يقف عند مجرد التأجيل الذى يعنى التهرب من المواجهة • من هذا القبيل اغلب انواع القرارات المتعلقة بالعمل الخارجى حيث يحدد المتفاوض حدا اقصى لمطالبه وحدا أدنى لتنازلاتـه ويتلاعب فى داخل ذلك الاطار ارتفاعا وانخفاضا •

ولنقدم نموذجا يوضح هذه التفرقه بين التعليمات الثلاثه .

مشكلة ازالة اثار العدوان : قرار بقبول مبادرة روجز هو قرار بالتأجيل ، قرار بحرب استنزاف هو قرار بالتوفيق ، ولكن قرار بالدخول فى حرب كليه شامله هو قرار بالمواجهة .

أهمية التمييز بين هذه النماذج الثلاث تصير اكثر وضوحا من حيث علاقتها بالعمل الدعائى والاعلامى عندما ننتقل الى المستوى الثالث من مستويات تحليل السياسة الخارجية اى عملية التنفيذ .

جـ) تنفيذ السياسة الخارجية يعنى عملية مزدوجة : من جانب الانتقال من النشاط الداخلى الى النشاط الخارجى ومن جانب آخر ربط المبادرة بالتنفيذ ، والمبادرة لا تفترض دائما الانسياق الكلى الكامل من جانب مصدر الحركة فقد تأخذ صورة رد الفعل اللاحق لقرار اجنبى صادر من وحدة سياسية اخرى غير الدولة صاحبة الشأن . صياغة السياسة الخارجية بعبارة اخرى وكذلك اتخاذ القرار رغم انهما جميعهما مراحل فى النشاط السياسى الا انهما عمليات تتم فى نطاق الحياة القومية والمحلية . هذا من جانب ، ومن جانب آخر لا تفترض بعد التعارف مع الحركة اى تدخلا فى محاولة التأثير فى الاطار الدولى والخارجى . هذه العملية الاخيرة اى الانتقال عبر الحدود باحتضان والتلاعب بالوقائع والقوى الخارجية هو الذى يمثل عملية تنفيذ السياسة الخارجية اى بعبارة اخرى عملية الانطلاق فى ذلك العالم الخارجى سواء على المستوى الاقليمى او الدولى بقصد التحرك والتأثير على ذلك النطاق غير القومى لتحقيق الحركة السياسية .

على انه من جانب آخر فكل قرار له صلة بالاوضاع الخارجيه يملك شقين : احدهما داخلى والاخر خارجى . القرار الخارجى يبدء داخليا فى صياغته سواء من حيث مقوماته سواء من حيث مصدره ثم يصير خارجيا من حيث انطلاقه اذ انه يدفع بطاقه تتلاعب بالعالم الخارجى . ولكنه فى نفس اللحظه التى ينطلق فيها عبر الحدود فانه لابد وان يفرض عمليات اخرى داخليه لاحقه : ضرورة تطويع الجهد السياسى بحيث يتفق مع مدلول القرار السياسى بحيث لا يكون هناك تباين بين العمل السياسى الخارجى والحياة السياسية الداخلية . قرار بالحرب يتخذ اولا من جانب الاداة الحكومية صاحبة السلطة فى اتخاذه هو يعنى انطلاق للقوى العسكرية عبر الحدود لتحطيم الخصم موضع المناقشه ولكن فى نفس اللحظة يجب اتخاذ اجراءات داخليه معينه تسمح بالتجانس بين النشاطين الداخلى والخارجى . وهكذا كل قرار سياسى خارجى له جانبين من حيث التنفيذ : احدهما عبر الحدود اى فى نطاق النشاط غير القومى والآخر فى نطاق النشاط الداخلى .

هذه الطبيعة تفرض علاقة دياليكتيه اساسها المرونه ووضوح الابعاد بين مختلف لا فقط مستويات السياسة الخارجية بل وفي ادوات تنفيذ تلك السياسة .

وهذا يقودنا الى صميم العلاقه بين السياسة الخارجيه والعمل الاعلامي .

ما هي ادوات تنفيذ السياسة الخارجية ؟

نستطيع ان نميز بين ستة ادوات تبدو وكأن كل منها ذات استقلال وظيفي وان كانت ترتبط كل منها بالاخرى برابطة الحركية بحيث ان ايا منها تقدم للاخرى وترافقها وتتبعها :

أولا : المفاوضه او المساومة

ثانيا : الضغط الاقتصادي

ثالثا : الاعلام والدعايه

رابعا : المنظمات الدولية

خامسا : تشجيع حركات الانفصال المحلية .

سادسا : القتال او الحرب المسلحة .

لو نظرنا الى هذه الادوات من حيث طبيعتها ودينامياتها المرتبطة بالتنفيذ والحركة لوجدنا انها جميعها تنبع من فكرة التعامل النفسي بمعنى التطويع للارادة . فالمفاوضه او المساومه هي نوع من انواع التلاعب بالخصم او بالطرق الاخر . هذا التلاعب هو من حيث حقيقته صورة من صور الكر والفر النفسي من خلال ادوات الاتصال المباشرة . اذا نظرنا الى جميع الادوات الاخرى نستطيع ان نلاحظ انها في جوهرها لا تعدو ان تكون مساندة لعملية التفاوض تقدم لها او تعدلها او تفرضها . فالضغط الاقتصادي هو أداة تسمح سواء في مرحلة التهديد بالالتجاء اليه او في حالة المبادرة به بطريق المفاجاءة ليس الا أداة لاضعاف ارادة الخصم . هذا الاضعاف يأخذ في تلك الحالة صورة المواجهة الصريحة من الخارج ولكنها تصير بطريق الالتفاف من الخارج في حالة تشجيع حركات الانفصال المحليه . ان هذا لا يعني سوى تفتيت للارادة القوميه التي نسعى الى عناقها من خلال المساومة القتال العسكري هو اقصى صور الاعداد لعمليه المفاوضة لانه يعني الاستسلام المسبق او ما في حكمه .

وهكذا تبرز عملية الاتصال بين الارادات اقناعا او اكراها كجوهر حقيقة تنفيذ السياسة الخارجية . السياسة الخارجيه تخضع من ثم من حيث طبيعتها لعملية الاتصال بمختلف ابعادها ولكن في معنى آخر يختلف عن المدلول المتعارف عليه لهذه الكلمة . وتبرز هذه الحقيقه واضحه عندما

تتعرض للاعلام والدعاية كأداة من أدوات السياسة الخارجية. ان التطور المعاصر فرض على هذه الاداة ان تغير نوعا من الحركة التى تخلف بجميع الادوات الاخرى. ونجاح تنفيذ اى سياسة خارجيه يجب ان يفترض على مخطط تلك السياسة ان يتحرك وهو يستند الى اعمدة ثلاثة: دبلوماسية نشطة، دعاية واعلام ذكى، قوة عسكرية يقظة. الدعاية والاعلام تمثل خط الهجوم الاول وخط الدفاع الاخير.

هذا التحليل يسمح بأن نفهم لماذا نرفض بعض المعاولات الاخيرة التى تقوم على اساس التمييز بين اربعة ادوات لتنفيذ السياسة الخارجية: الاداة الايديولوجية، الاداة الدبلوماسية، الاداة الاقتصادية ثم الاداة العسكرية. والواقع ان الاداة الايديولوجية لا موضع لها فى ذاتها فى نطاق العلاقات الدولية حيث تنحصر فى العمل الدعائى والاعلامى. الادوات الاخرى كما سبق ورأينا لو تركنا جانبا التفاوض أدوات مكملة او معهدة وليست لها وظيفه متكاملة من حيث عملية تنفيذ السياسة الخارجية. والواقع ان مرد ذلك الخلط هو ضرورة التمييز بين عملية تنفيذ السياسه الخارجيه وعملية استخدام اداة معينة: ان عملية استخدام أداة معينه من جانب الطبقه الحاكمة تعنى تحديد للعناصر المشاركة، تحديد للاتجاه الذى تتحرك فى نطاقه من حيث المصب الاداة، تحديد للاهداف الذى يصبو اليها المخطط للسياسة الخارجية ثم اخيرا تحديد للموقف الذى يرتبط به التعامل بتلك الاداة. وهكذا نجد ان مستوى السياسة الخارجيه بدوره يفترض مستويات اخرى تابعة كل منها له ابعاده وله خصائصه.

ونستطيع بهذا الخصوص ان نلخص هذا الاطار العام لمستويات العمل السياسى الخارجى فى القواعد التالية:

١ــ القاعدة الاولى انه يجب ان نفصل دائما اقل الادوات تكلفه. فالاعتداء على سفير لا يمكن ان يواجه بحرب معلنه. وهنا نلحظ ان اقل الادوات تكلفه بصفه عامه هى الاداة الاعلاميه.

٢ــ قاعدة التنسيق بين ادوات السياسة الخارجية ومعنى ذلك انه يجب ان توجد علاقة تترابط بين هذه الادوات بحيث تصير عملية السياسة الخارجية كأنها قطعه موسيقى تمكن انسجاما وتناسقا كاملين. وهذا يفترض التخطيط المرن الذى يكون اساسه وضح الرؤيه.

٣ــ القاعدة الثالثة ومفادها انه رغم تعدد ادوات السياسة الخارجيه فجوهر العمل الخارجى يظل دائما عملية التفاوض. السياسة الخارجيه لا تعدو ان تكون تطويع ارادة لارادة اخرى

وهكذا حتى العمل العسكري ليس سوى اداة الغرض منها اكراه الخصم على الاستسلام لشروط معينه ما كان يسلم بها لو لم تحدث الهزيمة العسكرية • وهكذا فان السياسة الخارجية تنجح لا عندما تصور لها ان تتصرف في معركة وانما فقط عندما تفرض على الخصم الاستسلام لطلباتها •

٤ — الناحية الاخرى التي تميز العمل السياسي في النطاق الدولي المعاصر هي نقل اساليب العمل السياسي البرلماني كما تعودناها خلال القرن الماضي في الحياة الداخليه الى النطاق الخارجي • فالثورة الفرنسية والثورة الاعلامية أدت الى جعل اساس الحياة السياسية المحلية عملية الاتصال والمناقشة من اعلى الى اسفل ومن اسفل الى اعلى • هذا الاطار يفترض ويتصف بصفات البرلمانيه ومقدمة الحجة بالحجة • هو يأخذ صورة النيابيه او البرلمانيه حيث تتصارع الافكار وتتطابق المفاهيم بين وحدات متعددة تسيطر عليها المصالح الشخصية وعناصر الجذب او الرفض الجماعية ثم تأتي أدوات الاتصال الجماهيري بما تفرضه من امكانيات نقل صورة هذا العمل الجماعي الى المجتمع الكلي بصفه خاصه عقب اختراع التليفزيون وانتشاره الامر الذي ان لم يكن يسمح بجعل عملية الاتصال بين الطبقه الحاكمه والطبقات المحكومه كلية وكاملة فعلى الاقل قد اكد امكانية العلم والاخبار بجميع خصائص وأبعاد المشاكل من جانب المجتمع الكلي • العمل السياسي الداخلي بهذا المعنى اضحى يتصف بصفات ثلاثه : هو عمل جماعي تسوده العلانيه ويخضع بدرجة او بأخرى لعملية الاتصال الجماهيري • العمل السياسي الدولي والخارجي ظل حتى الحرب العالمية الاولى لا يعرف استقبال هذا النموذج من نماذج النشاط السياسي • انشاء عصبه الامم ثم ما اعقبها من تطورات متلاحقه انتهت بالعالم المعاصر الى نقل اساليب العمل السياسي الداخلي الى النطاق الدولي والخارجي •

ولنقدم بعض مظاهر هذا التسطور :

ا — أول هذه المظاهر العمل السياسي في المنظمات الدوليه • فهو يأخذ اليوم صورة الجتماعات تكاد تكون برلمانية حيث تمثل كله دولة نفسها بمندوب او اكثر وحيث يتم العمل السياسي في شكل مناقشات حول دائرة مستديرة وفي علانيه شبه تامه بل وفي بعض الاحيان تنقلها عدسة التليفزيون مباشرة • العمل السياسي الدولي في داخل تلك المنظمات يأخذ صورة صراع ارادات تتلاعب فيها القدرة الخطابية والمواهب المختلفة المرتبطة بعملية الاتصال فضلا عن القدرة على المساومة الجماعية والالتجاء الى اساليب الدعاية والعلاقات العامة • ان دبلوماسي يعمل في

تطاق هذه المظلمات لا يعرف كيف يتلاعب بالمواقف من خلال قدراته الكلامية فضلا عن تنظيمه ومعاونيه باعدادا واستمدادا لتلك المواقف لا يمكن ان يقدر له الدجاج . وهكذا تظهر مواهب في العمل السياسي الخارجي لم يكن يعرفها ولا يفترضها العمل الدبلوماسي التقليدي .

ب) صورة اخرى من صور العمل السياسي في المحيط الخارجي وصفه خاصه على المستوى الاقليمي او الثنائي ما يسمى بمؤتمرات القمة — مؤتمرات القمه لا تعدو ان تكون تقابلا بين القائد الاعلى ومعاونيه في مناقشات ومداولات تنتهي بالتوفيق بين وجهات النظر . بطبيعة الحال مؤتمرات القمة ليست جديدة في تاريخ العمل السياسي ولكن الجديد في تلك المؤتمرات هو اسلوب العمل . لقد اضحت هذه المؤتمرات تفترض لقاءا مسبقا بين مجموعتين من الخبراء او بعبارة اخرى تفترض تقابل بين خبيرين للسلطة وكل منهما مع اعوانه بحيث يتم اللقاء النهائي اى لقاء القمه وقد تحددت مقدما أبعاد الاتفاق ونقطه التلاقي . وهكذا اضحت مؤتمرات القمه مقدمة لنوع جديد من الدبلوماسية وهي دبلوماسية الطبقه التكنوقراطية . كذلك فان مؤتمرات القمه في اغلب الاحيان تتخذ وسيلة لتحقيق نجاح سياسي داخلي او بعبارة اكثر دقه اضحت تمثل اسلوبا من اساليب الدعاية الانتخابية في الداخل . عندما ذهب نيكسون الى بكين انما كان يمد نفسه في الواقع لمعركته الانتخابيه وهكذا نجد في هذا التطبيق ايضا تلك العلاقة التي تفرض الارتباط الواضح بين العمل السياسي الداخلي والعمل السياسي الخارجي ومع استقلال كل منهما عن الاخر .

ج) صورة ثالثة تلك التي نسميها بدبلوماسية الصوت العالي او ما يسميه البعض بدبلوماسية البذاءة ويقصد بذلك ان يلجأ الدبلوماسي الى اساليب عنيفة من حيث اللغة والرموز او بعبارة اخرى اكثر دقة هو يختلق المواقف بقصد ان يحدث تأثيرا معينا لا على من يواجهه على مائدة التفاوض وانما على خلفية جماهيريه معينه او بعبارة اخرى على رأى عام معين بعيد عن التواجد في موضع اللقاء . خروتشوف عندما خلع حذائه ووضعه امامه في الجمعيه العامه للامم المتحده معلنا انه لو تكلم مندوب الفلبين فلا بد وان يستخدم ذلك الحذاء لاسكاته لم يكن يقصد في واقع الامر مندوب الفلبين وانما كان يتجه بحديثه الى تلك القوى السياسية التي كانت قد بدأت تتحرك ضد الاتحاد السوفيتي هي ليست حركة عصبيه لما قد يبدو وانما هي خطوة محسوبة ومدروسة . وكل من عاش في الموسكو في الستينات يتذكر المندوب الروسي بافلوف استاذ العلاقات الدوليه في جامعة موسكو وكيف كان مجرد حضوره يجعل جميع المندوبين وقد اصابتهم الرهبة والخوف

وصفه خاصة فرنسا وبريطانيا العظمى فى تلك اللحظه • ان هذا الاسلوب فى الواقع هو استجابه للمجتمع الجماهيرى • فالدبلوماسى انما يستخدم منهاجية ما كان يمكن ان يتصور استخدامهـــا زميله فقط قبل نصف قرن ولكنه اليوم يلجأ اليها لانه يريد ان يحدث اثرا معينا فى بعض فئـــات الرأى العام حيث مثل هذا الاسلوب لابد وان يجد تقبلا وتحبيذا •

د) وهناك ناحية رابحة تعكس التطور المعاصر العام للعمل السياسى الخارجى وتؤكـــد دلالة الملحوظه السابقه وهى ظهور ما يسمى بالملحق او المستشار الصحفى او الاعلامى فـــى الجهاز الدبلوماسى • هذه الوظيفه لا تخضع للقواعد المعتادة فى العمل الدبلوماسى : فالدبلوماسى ليست وظيفته سوى ان يتصل بالجهات الرسمية اى الحكومه • الملحق الصحفى يتعدى للـــذه التقاليد بل ويرفضها لان اساس وظيفته هى الاتصال بجميع فئات وطبقات الرأى العام المحلـــى لتوضيح وجهة نظر حكومتـــه ولمعرفة وجهة نظر تلك الفئات والطبقات • اتصاله بهذا المعنى ليس مجرد نقل للمعلومات استقبالا وانما ايضا ارسالا : بعبارة اخرى هو يأخذ ويعطى • وهو لا يتصل فقط بالطبقه الحاكمه وانما يتصل بالمواطن وكل مواطن اى يتصل بالمواطن فى معناه المجـــرد المطلق • ولذلك هو يخالف جميع التقاليد الدبلوماسيه التقليديه :

أولا : فهو يتصل مباشرا بأجهزة الاعلام الجماهيريه : الصحافة والاذاعة والتليفزيون وغيرها • ولا يمكن للدولة صاحبة الشأن ان تمنع ملحقا صحفيا من عقد مؤتمرات صحفيه يتحدث فيـــه مع جميـــع مندوبى أجهزة الاعلام الجماهيرى وبحرية تامه لتوضيح وجهة نظر دولته • ولعلنا نذكر منذ عـــدة أسابيع ما فعله المستشار الصحفى للسفارة الفرنسيه فى اسرائيل عقب سقوط الطائرة الليبيه فـــوق سيناء •

ثانيا : هو من حقـــه ان يخاطب الرأى العام المحلى مباشرة وبصفه خاصه للرد على ان شئ يشيب دولته فى صورة احتجاج او ما فى حكمـــه • وهو يستطيع ان يتخذ هذا الاحتجاج وسيله بأن يقدم للرأى العام المحلى كل ما يريده حتى ولو كان يتضمن نقدا للحكومة التى يزاول نشاطه فـــى داخلها طالما كانت هناك المناسبة لتقديم مثل ذلك الاحتجاج ولو مفتعلا • فعلت ذلك وعلـــى نطاق واسع الدبلوماسية الروسية خلال الحرب الباردة بعلاقتها بالولايات المتحدة الامريكية •

ثالثا : هو من حقه ان يتصل لا فقط بالقوى الحاكمه بل له ان يخلق جميع قنوات الاتصـــال مع القوى المعارضة • وهذا بدوره جديد فى التقاليد الدبلوماسيه بل ومخالف كلية كل ما كـــان

يجرى عليه العمل بصفة خاصة حتى الثورة الفرنسية .

بطبيعة الحال هذه التقاليد لا تزال جديدة تختلف من دولة لاخرى بسبب حداثة هذه الصورة من صور الدبلوماسية السياسية ولكنها فى نجاحها تتوقف على عوامل ثلاث: العامل الاول طبيعة العلاقات بين الدول صاحبة الشأن . فمما لا شك فيه ان العلاقات بين دول تربطها رابطة الانتماء الى اقليم واحد او حتيقه حضارية واحدة لابد وان تختلف حيث لا توجد تلك الرابطة . وهذا ما يعبر عنه بدبلوماسية التجمعات . فلنتصور الدبلوماسية العراقية فى القاهرة لو قارناها بالدبلوماسيه الفرنسيه فى نفس الموقع . العامل الثانى حول قدرة الادارة الدبلوماسية على ان تكون حركية ونشطة . فالدبلوماسية الاسرائيلية نموذج اثبت بصفه خاصة فى غرب اوربا وفى بعض الاحيان فى وسط افريقيا قدرة على الصراع الحركى النشط فى تدالق العمل السياسى الخارجى الذى يرتفع الى حد المغامره على المستوى الفردى . العامل الثالث يعود الى وجود الاقليات المتطلعة ان لم تكن تنتمى الى نفس المجتمع الذى يمثله المستشار الصحفى وهنا ايضا تجد الدبلوماسية العبرية وكيف استطاعت ان تخلق تقاليد معينة مخالفة بهذا جميع التقاليد السابقة حيث رأينا المستشار الصحفى او مدير مكتب الاعلام بل وفى بعض الاحيان السفير يتحدث بوصفه زعيما للاقلية القومية اليهودية . ورغم ان ديجول وقف ضد ذلك التقليد الا ان اسرائيل لم تتردد فى ان تعود اليه فى مناسبات عديدة .

جميع هذه الصور للعمل السياسى الخارجى تفرض اهمية خاصة للنشاط الاعلامى سواء حيث اضحى العمل الاعلامى اداة من ادوات تنفيذ السياسة الخارجية ، سواء ارتفع ليصير اسلوبا من اساليب العمل الدبلوماسى .

ولكن هل هذا يعنى ان العمل الاعلامى فى النطاق الدولى والخارجى يخضع لنفس القواعد التى يخضع لها النشاط الاعلامى فى النطاق الداخلى ؟ ام ان كل منهما يعكس مفهوما مستقلا ومن ثم تسيطر عليه قواعد متميزه ؟

هذا هو السؤال الثانى الذى يتعين علينا ان نناقش مختلف ابعاده قبل ان نحاول تقييم الاعلام الحربى والسياسة الخارجية فى نطاق عملية المواجهة الاسرائيلية .

— ٢ —

التمييز بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي

٥ — لتسهيل ان نفهم ، كما سوف نرى فيما بعد ما هي الاسباب الحقيقة التي أدت ولا تزال تؤدي الى الاختناق الواضح للاعلام العربي على المستوى القومي والاقليمي في كل حالة صلة بعملية المواجهة الاسرائيلية علينا ان نحاول لتحليل هذا المنطلق الاساسي اي عملية التمييز بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي .

وقد يبدو من العرض السابق ان التطور المعاصر لم يكن له معنى سوى توسيع نطاق دائرة الوظيفه الاعلامية للدولة ، فبعد ان كانت وظيفتها قاصرة على النطاق الداخلي اتسعت لتشمل ايضا النطاق الخارجي . على ان هذه النظرة تتضمن تبسيطا مبالغا فيه . والواقع ان عملية التمييز بين الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي اضحت تمثل احد الاعمدة الاساسية التي يجب ان تنطلق منها عملية وظيفة الدولة الاتصالية :

أولا : مما لا شك فيه ان كلا الاعلام الداخلي والاعلام الخارجي تعبير عن وظيفة واحدة وهي عملية الاتصال . والاتصال هو احد مسالك الحركة السياسية . والحركة السياسية او بعبارة ادق نشاط الدولة ينطلق من مسالك ثلاث: العنف والخديعة والاتصال . وكلمة الاتصال تعني في أوسع معانيها بهذا الخصوص نقل المفاهيم بقصد الاقناع والاقتناع ، هي عملية من جانبين اساسها خلق الترابط في الحركة ان لم يكن على الاقل المساندة .

ثانيا : رغم ذلك فان كل منهما ينبع من اهداف مختلفة ويسعى الى تحقيق غايات تتنوع تبعا لما اذا كانت عملية الاتصال تتجه الى المواطن اي المجتمع الداخلي او الى القوى الخارجيه اي الى المجتمع الدولي . في الحالة الاولى هي امتداد للوظيفة الايديولوجية للدولة : تأكيد لها او اعداد لها او متابعة لها . والوظيفة الايديولوجية يجب ان نفهم هنا بأوسع معانيها . انها درجة من درجات الولاء او المشاركة او الرفض التي يجب ان تخلقها علاقة المواطن بالرمز القانوني للجماعة اي الدولة . ولهذا حيث يقوم مفهوم الدولة على فكرة نزع حقها في الوظيفة الايديولوجية لا موضع للحديث عن الاعلام الداخلي كأحد صور التعبير عن وظائف النظام السياسي . الدعاية السياسية في المجتمع الامريكي على سبيل المثال لا تقوم بها الدولة وانما يتولاها الحزب مستقلا بل ومنفصلا عن الاداة الحكومية حتى عندما يكون الحزب في الحكم . في الحالة الثانية الاعلام الخارجي يصير اداة مساندة لا تتجاوز القوى الخارجية في سبيل التسليم بمطالب معينة . بعبارة اخرى هو مقدمة لحركة سياسية اساسها الرغبة في الحصول على مصالح معينة ومن ثم تصير الوظيفة الاتصالية في تلك

اللحظة اداة مساندة لتنفيذ السياسة الخارجية • وهكذا نجد الدعاية الخارجية ترتبط من جانب بالدوله بحيث لا يمكن تصور هذه الوظيفه تقوم بها سوى الاداة الحكومية ومن جانب آخر لا توجد دولة معاصرة تسعى لان تكون ذات فاعليه معينة فى النطاق الدولى لا تجعل من الدعايـــة الخارجيه اداة اساسيه من ادوات تحركها الخارجى •

ثالثا : كذلك فان هذا التمييز لا يقتصر على الابعاد الوظيفية بل انه يجد تأكيد بالمراجعة التاريخية • فالاعلام الخارجى لم يربالجديد على عكس الاعلام الداخلى الذى لم يرتفع الى مرتبـة الوظيفه الاتصالية الا فقط عقب ظهور الدولة الايديولوجية • الاعلام الخارجى عرفته المجتمعـات السياسية منذ اقدم العصور ولكن مغلفا بستار العمل الدعائى • وبصفه خاصة خلال فترات الحروب ورغم انه قد يجد الباحث التاريخى بعض مظاهر الاتصال السياسى الداخلى فى فترات قديمـة او فى خلال العصور الوسطى الا ان الواقع ان الاتصال الداخلى لم يرتفع الى مرتبة الوظيفه قبل ظهور الصحافة اليوميه وانتشارها على مستوى معين • ويمكن القول اجمالا بأنه قبل القرن السابع عشر لا موضع للحديث عن ظاهرة الاتصال الداخلى بمعنى الوظيفة الحكومية • على العكس من ذلك فاننا نستطيع ان نجد مظاهر للدعاية الخارجيه وعناصر متعددة تؤكد اهمية الاتجاه اليها واعتبارها مقدمة للهجوم السياسى او العسكرى فى النطاق الخارجى ابتداءا على الاقل مـــن الحضارة الرومانية وبصفه خاصة خلال حروب قيصر المشهورة • على اننا هنا يجب ان نلاحظ ان الدعوة المتعمدة لابد وان تتلون او على الاقل ان تتوسط كلا العمليتين : الدعاية الخارجيـــة والاتصال الداخلى •

رابعا : كذلك فان الاعلام الخارجى والاعلام الداخلى لا يتوافقان تاريخيا بالنسبـــة لمشاكل منطقة الشرق الاوسط • فحتى الحرب العالمية الثانية لم يكن هناك اعلام داخلى حكومى وكانت تلك المنطقه يسيطر عليها مبدأ الحرية الاعلامية من حيث استقلال ادوات الاعلام مع الرقابة الحكومية من حيث مضمون عملية الاتصال • بصفه عامة الدولة فى تلك المنطقة اى السلطات المحلية والقومية لم تكن تواجهها فى الاتصال القومى وكانت تقتصر على عملية الرقابة على عملية الاتصال لمنع تدفق المعلومات او لضبطها عند منبعها • على العكس من ذلك عرفت المنطقه الاعلام الخارجى والصراع الاذاعى ولكن من جانب القوى الاجنبيه ذات الاهتمام بالتوغل ونشر النفوذ فى المنطقـــه • بدأت عملية الدعاية بشكل واضح عندما قررت الحكومة الفاشستية الايطالية انشاء محطة الاذاعـــه الموجهه الى المنطقه فى عام ١٩٣٠ • ولكنها ورغم انها بدأت بسياسة استفزازية مستخدمـــة اللغة العربية اساسها لعملية الاتصال الاذاعى منذ عام ١٩٣٢ لم ترتفع الى مرتبة النجاح الحقيقى الا فى عام ١٩٣٦ عندما قرر " لتشانو " ان يتولى وزارة الصحافة والدعاية • وسرعان ما عرف العالم

العربى تلك الحرب الاذاعية سواء من جانب جويلز الذى انشأ وزارته فى عام ١٩٣٣ واتجه الى هذه المنطقه لاول مرة فى ابريل من ذلك العام ثم ما لبثت القوى النازية ان قررت المواجهة.

ورغم ان محطة الاذاعة البريطانية انشئت فى عام ١٩٣٢ الا انها لم تقرر ان تجيب على عمليات الاستفزاز الايطالية والالمانية الا فقط فى عام ١٩٣٧ عندما بدأت ترسل موجاتها باللغة العربية.

ومنذ تلك اللحظة غمرت المنطقة الحرب الاذاعية وكان لابد وان تدلى بدلوها الولايات المتحدة الامريكية فى عام ١٩٤١ وسرعان ما اعقبتها القوى الاخرى. وهنا يجب ان نلاحظ ان الصراع على موجات الاثير لم يكن الا جانبا من خطة اكثر اتساعا تدور حول عملية الدعاية الخارجية. الجديد الذى نعاصره خلال فترة الستينات عاما الماضيه نستطيع ان نحدده فى ابعاد ثلاثه:

١ــ ظهور نظم سياسية جديدة تؤمن بوظيفتها الاتصالية فى الداخل وذلك منذ الثورة المصرية فى عام ١٩٥٢ وبصفه خاصة فى اعقاب التحولات النظامية والايديولوجية فى مرفق الاعلام الداخلى منذ عام ١٩٦٠.

٢ــ ظهور قوة اجنبيه ولكنها ذات طابع محلى اخذت صورة الدولة المرتبطة شكليا بالاقليم وهى اسرائيل واتجاهها لتأسيس حرب اعلاميه متجهة الى المنطقه لتساندها فى سياستها الاقليمية.

٣ــ وضح الارتباط فى الحرب الدعائية المرتبطة بالمنطقه وذات المصادر الاجنبيه بوسن عملية نشر النفوذ والدعوة الايديولوجية. فالصراع الايديولوجى بين المعسكر الاشتراكى والمعسكر الغربى انتقل فى شكل حرب اعلامية واضحة ايضا الى المنطقة.

وهكذا تداخلت ابعاد الاعلام الداخلى بالاعلام الخارجى وارتبطت كلا منها بالاخرى: فالحرب الايديولوجية فى الاعلام الدولى اضحت ذات امتدادات فى الاعلام الداخلى نتيجة لطبيعة النظم المحلية وهل هى نظم تقدمية ام رجعية. والهجوم الاسرائيلى الاعلامى اضحى يتخذ من الاقليات العربية فى داخل اسرائيل منطلقا للوصول الى المجتمعات العربية ومن ثم اضحى الاعلام الداخلى الاسرائيلى يمثل خلفيه ثابتة للاعلام الخارجى المتجه للعالم العربى.

هذا الخلط ظل ولايزال حتى هذه اللحظه مسيطرا على المفاهيم العربية لتأصيل وظيفة الدولة الاتصالية وهو يمثل احد الاسباب الحقيقيه والجوهرية التى ادت الى اخفاقنا فى مواجهة الدعاية الاسرائيلية.

وهذا ما سوف نعود الى تفصيله فيما بعد.

٦ــ فلنبدأ ونحاول تأصيل المفاهيم الفكرية التى منها تنطلق عملية التمييز بين الاعلام الداخلى والاعلام الخارجى. على اننا يجب ان نتذكر اننا فى هذا المقام نجعل كلمة الاعلام تفهم بالمعنى الواسع كمرادف للظاهرة الاتصالية.

هناك فى الواقع عوامل عديدة تفرض ضرورة هذا التمييز المطلق بين الاعلام الداخلى اى الاعلام المتجه من الدولة او الاحزاب الى المواطن المقيم على الاقليم القومى والاعلام الخارجى اى ذلك الذى يعبر الحدود ليصل الى الفرد مواطنا كان ام غير مواطن المقيم فى خارج الاقليم القومى الصادر منه الاعلان ، اى بعبارة اخرى الاعلام الذى ينطلق فى المجتمع الدولى .

ويتضح من هذا التعريف ان هناك حدود فاصلة بين الاعلام الداخلى والاعلام الخارجى : هل لعد ليستقبله جمهور قومى ام جمهور غير قومى ؟

ورغم ان هذه التفرقة تبدو واضحة فى بعض الاحيان الا انه فى كثير من الاحيان تختلط وتدق :

١ــ هل الاعلام المتجه للاجنبى المقيم فى الدولة يوصف بأنه اعلام داخلى ام اعلام خارجى ؟ لاول وهلة قد يبدو هذا النوع من انواع الاعلام محدود الاهمية ، كذلك فهو يختلط بالسياسة السياحية اذ انه يمثل صورة من صور الدعاية لنجاح السياسة الخارجية . ولكن الاعلام الداخلى المتجه الى الاجنبى يرتفع الى مرتبة الاهمية الخاصة فى المجتمع الاسرائيلى حيث ينظر الى العربى بصفة خاصة فى المناطق المحتلة منذ عام ١٩٦٧ على انه لا ينتمى الى المجتمع القومى الاسرائيلى كذلك تزداد اهمية هذا النوع من انواع الاعلام بالنسبه لتلك الطائفه من اليهود الاجانب الذين تستقبلهم الدولة الاسرائيلية خلال فترة معينه على سبيل الاختبار قبل الاندماج الكلى والحقيقى فى المجتمع القومى المحلى بما فى ذلك اكتساب الجنسية العبرية .

٢ــ كذلك تثور المشكلة بالنسبه للاعلام الذى يجب ان يتجه الى المواطنين المقيمين فى الخارج بصفه خاصة المهاجرين المنتشرين خارج المجتمع القومى . بطبيعة الحال هؤلاء عقب الجيل الاول يصبحون فى اغلب الاحيان نوع كامل من الاندماج كنتيجة طبيعية لاكتساب الجنسيه المحلية والتوطن المستقر . ولكن بالنسبه للجيل الاول الذى قد يظل محتفظا فى بعض الاحيان بجنسيته الاصليه وبغض النظر عن ذلك الاحتفاظ حيث روابطه العاطفيه لا يمكن ان تنفصل ، هل يجب ان تتجه اليه الدولة بالاتصال ام لا ؟ وتبرز هذه المشكلة واضحه بالنسبه للمجتمع العربى وكذلك بالنسبه للدولة الاسرائيليه مع خلاف فى ابعاد كل منهما . فالدولة الاسرائيلية تريد ان تعيد هؤلاء اليهود الى حظيرة الوطن القومى العبرى . اما المجتمع العربى فاذا نظر الى هؤلاء فان اهتمامه اساسا يجب ان يدور حول كيفية الاستفادة منهم فى خلق موجه من موجات التعاطف مع القضيه العربية فى الاسرة الدولية - بغض النظر عن هذه الناحية هل نصف مثل هذا الاعلام او مثل هذا الاتصال بأنه اتصال داخلى ام اتصال خارجى ؟ هو داخلى لانه يتجه الى بعض امتدادات المجتمع القومى وهو خارجى لانه يعبر الحدود القومية . اسئلة قد تبدو محدودة الاهمية من الناحية العملية ، ولكن هذا غير صحيح لاننا سوف نرى كما فيما بعد

التفرقه بين الاعلام الداخلى والاعلام الخارجى ليست تفرقه شكليه وانما هى تنبع اساسا من طبيعة وتدلل كل منهما •

٠٧ — عوامل معينه تدعو لضرورة التفرقه الواضحة والكلية بين الاعلام الداخلى والاعلام الخارجى • لاستطيع ان تتناول جميع هذه النواحى بالتفصيل فى هذه الدراسة ولكن يعنينا ان نؤكد على نواحى اربعة جديرة بأن تثير اهتمامنا على وجه الحضور: طبيعة كل من طائفتين الصورتين من صور الاعلام ، طبيعة عملية الاتصال التى يفرضها كل من هذين التطبيقين من التطبيقات الاعلامية ، ظاهرة الرقابة وابعادها ثم اخيرا مستويات التعامل النفسى والتفرقه بينهما تبعا لكل من هذين الميدانين من ميادين النشاط الحكومى •

أولا : أول نواحى التمييز تنبع من طبيعة الاعلام وبالتالى من وظيفته فالاعلام الداخلى هو امتداد لوظيفه الدولة الاتصاليه يقوم كما سبق ورأينا على اساس واجب الدولة فى ان تمكن المواطن بحد ادنى من المعرفة بخلفيات نشاطها السياسى اى تسمح له بالمشاركة الحقيقية والفعلية فى كل ما يتصل بمصير المجتمع السياسى • وهكذا تثور بخصوص الاعلام الداخلى ما يسمى بحق الاعلام : اى حق المواطن فى المعرفة بقسط معين من المعلومات المرتبطة بالقرار السياسى سواء كان ذلك قبل اتخاذه ام عقب اتخاذه وتبعا لخصائص هيكل النظام السياسى • الاعلام الخارجى على العكس من ذلك هو مقدمة لحركة سياسية اى كما سبق ورأينا هو أداة مكملة لعملية تنفيذ السياسة الخارجية واذا شئنا ان نحدد هذا الفارق من حيث الطبيعة والجوهر فان الدولة عندما تقوم بالاعلام الداخلى انما تريد من المواطن ان يحترف وهى لذلك تخبره بالحقيقه ومن واجبها الا تخفى عنه الحقيقه او على الاقل الا تموه تلك الحقيقة • هذا المفهوم يفسر لماذا الدول الديمقراطية تجعل هذه الوظيفه اساسا امتداد للنشاط الحزبى : الحزب هو الذى ينير المواطن والصراع الحزبى وحده هو الذى يسمح باكراه جميع الاطراف المعنيه على الا تقول سوى الحقيقة • أما فى الاعلام الخارجى فالقصد من الاعلام هو خلق موجه من الرأى العام المحلى الاجنبى بحيث يدفع ويساند يقوى معينه او يضعف ويفتت من قوى معينه لابد وان يؤدى الى عملية توفيق حركية بالنسبه للدولة مصدر الدعاية فى عملية المفاوضة والمساومة الدبلوماسية • دعاية خارجية من جانب اسرائيل فى فرنسا بقصد تفتيت القوى المساندة للحكومة ودفع القوى اليسارية الى موقف المعارضة العنيفة لابد وان يضعف الدبلوماسية الفرنسية فى مواجهة الدبلوماسية الاسرائيلية • وهو لابد فى الامد البعيد لو قدر للقوى اليسارية الفرنسية ان تصل الى الحكم ان يخلق موجة مساندة للسياسة الخارجية الاسرائيلية من واقع القوى الاجتماعية الذاتية للمجتمع الفرنسى • كل هذا يفسر لماذا يحتفظ من الصعب الحديث عن الحق فى الاعلام بالنسبه للمواطن الاجنبى وهو امر

سبق ورأيناه يمثل احد الاركان الاساسية في تنظيم العلاقة السياسية بين المواطن والدولة في المجتمع المعاصر.

لنستطيع ان نفهم هذه الحقيقة علينا ان نعود قليلا لتحليل طبيعة عملية الاتصال الدولي وكيف اصابها نوع من التطور الضخم الذي كان لابد وان يحكم نتائجه على العملية الاعلامية. فعملية الاتصال قديما كانت تأخذ صورة اتصال مباشر أو بعبارة ادق التقاء بين الدبلوماسية الوطنية والدبلوماسية الاجنبية.

اليوم فان الاتصال اضحى على العكس من ذلك متعدد الابعاد او بعبارة اكثر دقة فان قنواته تعددت ومن ثم فكان ولابد ان تتعدد نماذجه حتى ان احد العلماء الذين حللوا هذه الظاهرة تحليلا رياضيا استطاع ان يحدد بين اربعة وعشرون نموذجا من نماذج الاتصال الدولي. ولكن يكفينا للتدليل على طبيعة هذا التغير العميق ان نقدم فقط نماذج ثلاث:

ا- النموذج الاول : حيث تخاطب الدولة مباشرة المجتمع السياسي الذي ينتمي الى المجتمع الاخر بحيث تستطيع ان تحظه على ان يضغط او ان يكون قوة ضاغطة على الطبقة الحاكمة في ذلك المجتمع الاخر. هنا الاتصال يأخذ بشكل خاص صورة الاعلام الدعائي. هذا النموذج سبق ورأيناه بالنسبة لاسرائيل في عملية اتصالها بالمجتمع الفرنسي من خلال قنوات الاحزاب اليسارية بصفة خاصة الاشتراكية ولكنها تزداد وضوحا في المجتمع الايطالي. فجولدا مائير عندما تركت تفصيل مقابلتها للبابا في شكل تسريب مدروس تنتشر من خلال الاعلام الايطالي انما ارادت بذلك ان تخلق تماطفا معينا مع تلك القوى التي سبق وابرزت استياءها الواضح من الكنيسة بخصوص موقفها من قانون الطلاق الايطالي. يساعد على تأكيد هذا النموذج وامكانياته ما سبق ورأيناه من تقاليد معاصرة تدور حول السماح للممثل الصحفي بمخاطبة والاتصال بجميع طبقات الرأي العام بما في ذلك الرأي العام المعارض والذي لا يمارس السلطة. ويبدو هذا ايضا واضحا في تقاليد الدبلوماسية الاسرائيلية التي لم تتردد سواء في بريطانيا العظمى او في الولايات المتحدة ان تخلق ادوات اتصالها مع كلا العنصرين الحاكم من جانب والحزب الذي يجلس في جانب المعارضة من جانب آخر. هذا التقليد يعود الى التخطيط الذي وضعه سلفر عندما عهد اليه برئاسة مجلس الطوارئ اليهودي عقب الحرب العالمية الثانية.

ب) النموذج الثاني هو ذلك حيث يتم الاتصال بين الطبقة الحاكمة وطبقة محكومة في مجتمع آخر ليعقبه اتصال آخر بين الطبقة الحاكمة التي قامت بذلك الاتصال مع الطبقة الحاكمة في المجتمع الذي توجهت اليه الطبقة الحاكمة في عملية الاتصال الاولى. ويبرز هذا النموذج واضحا في عملية

التبادل الثقافى فى المجتمعات التى تأخذ فيها الجامعات صورة الامتداد الحكومى للنشاط التعليمى • فلنتصور ان جامعه معينه فى عاصمة الى عدد معين من الاساتذه فهى تتصل بالجهاز المسئول عد السياسة الخارجية فى الدولة التى تنتمى اليها تلك الجامعة وعقب ان يتم الاتصال بين الاداة الحكومية وتلك الجامعة فان الجامعة المذكورة تخاطب مباشرة المجتمعات التى تعتقد بامكانية توفر اولئك الاساتذه من بين عناصرها المتخصصه • وفى اغلب الاحيان تلجأ الى الاعلان او ما فى حكمه وعندئذ يتقدم بمن يشعر بأنه تتوفر فيه الصفات المطلوبة الى تلك الجامعة اى يحدث الخطاب مباشره الى الطبقه المحكومة الاجنبيه الجامعة ذات الشأن وعقب ان يتم الاختيار او الترشيح فان تلك الجامعة لابد وان تحصل على موافقه اجهزة الدولة التى ينتمى اليها اولئك العلماء وخصوصا لو كانوا يحتلون وظائف جامعية مماثلة • هذا التبادل الثقافى بهذا المعنى لا يأخذ صورة اتصال بين أداة حكومية وأداة حكومية اخرى وانما بين اداة حكومية والمجتمع السياسى المحكوم الاجنبى مباشرة مع ضرورة اكمال هذا الاتصال بعملية رقابة تفرض صورة اخرى من صور الاتصال بين مختلف اجهزة الاداة الحكومية التى تتولى الاتصال المباشر مع الاداة الحكومية الاجنبية •

جـ — النموذج الثالث ويأخذ صورة الاتصال المباشر بين الطبقات المحكومة بعضها وبعض مباشرة دون تدخل القوى الحاكمة فى اى منهما • وهنا الاتصال يتم على مستوى شعبى ولكنه فى بعض الاحيان يأخذ صورة الاتصال المنظم من خلال الاجهزة والمؤسسات الخاصة • فالاتصالات البريدية نموذج واضح تعرفه جميع المجتمعات المعاصرة على نطاق واسع وهو يقتصر على مجرد الفضول المعتاد بل وقد يصل الى حد تنظيم علاقات ثابته ويكفى ان نتذكر ان هناك منظمات تقوم اليوم بتنظيم عملية التعليم والتثقيف عبر الحدود بل وخلق مناسبات الزواج من خلال الاتصال البريدى • ولكنه قد يأخذ ايضا صورة منظمات ذات كيان سياسى دون ان ترقى لان تأخذ الصورة الحكومية • المنظمات العلمية والجمعيات الثقافية ليست النموذج الوحيد وقد بدأ العالم يعرف فى الفترة الاخيرة مايسمى بالمنظمات الدوليه غير الحكومية ذات الوزن الخطير فى عملية الاتصال الدولى وتوجيه الرأى العام ولنذكر على سبيل المثال المنظمات النسائية والجمعية الدولية للعلوم السياسية • هذه الاخيرة التى تجتمع كل ثلاثه اعوام يصل المشتركين فيها الى اكثر من الفين عالم ومتخصص تضم اغلب خبراء ومستشارى صانعى القرارات السياسية فى العالم • ويكاد يكون تحليل التقارير التى تقدم اليها والمناقشات التى تجرى فى اروقه اجتماعاتها مرآة تعكس جميع التوقعات المقبلة •

ثانيا : الناحية الاخرى التى تميز الاعلام الخارجى وتجعله يختلف اختلافا هيكليا عن الاعلام الداخلى هو انه يرفض بطبيعته الاتصال التام او ما فى حكم الاتصال المطلق بين المرسل والمستقبل . عملية الاتصال كما هو معلوم هى نقل رسالة من شخص الى آخر من خلال رموز معينة . القاعدة المتداولة هى ان الرسالة بمجرد استقلالها عن شخص المرسل تصير ذات كيان هيكلى ولكنها لا تستقل وظيفيا بمعنى ان الرسالة لا تؤدى الغاية الموجهة منها الا عقب استقبالها والتعبير عن عملية الاستقبال برد فعل يعكس المقصود بتلك الرسالة . هذه العملية فى النطاق الداخلى واضحة ومفهومة . رغم انه قد يبدو ان الاعلام الجماهيرى لم يعد يسمح بذلك الارتباط حيث يوجد انفصال بين المرسل والمستقبل الا ان وحدة التواجد فى المكان او فى الاقليم تسمح بتيار مرتد الفصل بحيث انه فى حالة الخطأ يمكن ان تصحح الرسالة اى عندما يكتشف مرسل الرسالة انها لم تحقق الهدف المقصود منها يسرع رسالة جديدة توضح الاولى وتحدد دلالتها . يتم ذلك من خلال خطابات القراء او الاتصال التليفونى او الابحاث الميدانية حيث نستطيع فى الاعلام الداخلى ان نصل الى معرفة رد الفعل الحقيقى لاى رسالة اتصالية . تقديم رسالة لاحقة تعدل من المفهوم او تحدد من الدلالة تصير عملية سهلة ومتقبلة . يساعد على ذلك التناسق الطبيعى فى المنطق بين المرسل والمستقبل حيث ان كلاهما ينتمى الى طابع قومى واحد . ولكن لو انتقلنا الى الاعلام الخارجى فان هذه العملية لا تصير فقط شاقة ومرهقة بل تصير كذلك مستحيلة فى اغلب الاحيان . ذلك ان الرسالة بمجرد وصولها تستقل عن شخص مرسلها استقلالا كاملا لا فقط من حيث عملية الاتصال بل ومن حيث مكان الاستقبال . انها تنطلق كصاروخ فكرى يعبر الحدود ويتعين عليه ان يعبر بقوة اندفاعه الذاتية . من ثم لا يستطيع المرسل ان يقوم بعملية التصحيح وهو ان استطاع ذلك فلا يمكن ان يتم الا عقب فترة معينة يكون اثر الرسالة خلالها قد تجدد بشكل نهائى فضلا عما تفرضه من نفقات باهظة . هذا الى ان بعد الفترة الزمنية بين لحظة ارسال الاولى والرسالة الثانية للتصحيح لابد وان يؤدى الى ابراز التناقض ومن ثم الى خلق عدم الثقة فى مصدر الرسالة . يزيد من تضخيم هذه العملية ان الاعلام الخارجى بحكم تعريفه يفترض صراعا فكريا بين طابعين قوميين مختلفين . كل هذا يؤدى الى نتائج معينة خطيرة : فالاعلام الخارجى يفترض الحذر والكياسة وعدم المجاملة وحد النظر والقدرة على التنبؤ مع الحساسية المطلقة وسعة المعلومات والصلاحية لفهم الطابع القومى الاجنبى مع القدرة على اجراء عملية توفيق بين المفاهيم الحضارية .

ثالثا : كذلك فان الاعلام الداخلى بفضل نظام الرقابة يستطيع ان يحقق نوعا من التجانس الذاتى لا فقط فى عناصر الرسالة وكذلك من حيث نوع الاعلام ، مسموع او مكتوب او مرئى ، تجانس لا يمكن ان يتحقق بالنسبه للاعلام الخارجى . هذه الحقيقة واضحة فى المجتمعات الشموليه التى تقيم نظاما صريحا للرقابة تتولى متابعة الوقائع عند المصدر ومن ثم يمنع التناقض الداخلى فى الاعلام المحلى . ولكن المجتمعات الديمقراطية ايضا تعرف صورة اخرى من صور الرقابة تسمى فى بعض الاحيان الرقابة الاختيارية تسمح فى بعض الاحيان بتحقيق درجه معينه من درجات ذلك التناسق . ولكن بالنسبه للاعلام الخارجى فيكف يتم ذلك ؟

لنفهم الاجابة على هذا السؤال علينا ان نميز بين الاعلام الخارجى المتجه الى الخارج والاعلام الخارجى المتجه الى الداخل او بعبارة اخرى الاعلام الخارجى المصدر والاعلام الخارجى الوارد . فبالنسبه للاعلام الخارجى المصدر اى الصادر من دولة الى مجتمع آخر قد تستطيع الدولة صاحبة الشأن ان تفرض رقابة عند المنبع على اعلامها ولكن مثل هذه الرقابة ليست ذات فاعليه . ذلك ان المجتمع الاجنبى الذى تتجه اليه باعلامها يستطيع ان يستقبل اى اعلام آخر بل وفى اغلب الاحيان لابد وان يستقبل اكثر من اعلام واحد آخر . ومن ثم ازاء هذا التباين فى مصادر الاعلام تصير الرقابة من جانب الدولة لا قيمة لها ان لم تتضمن نوعا من القدرة الذاتية على اعداد الاعلام بحيث الرسالة الاعلامية تملك قوة دفعها الذاتى فى صراعها مع الاعلام الاخر ازاء المستقبل الاجنبى . بعبارة اخرى حيث ان الدولة فى تلك الحالة لا تستطيع ان تضبط مصادر الاعلام الذى سوف يتعرض لها المستقبل الاجنبى لانها تخرج عن سلطتها فان الرسالة الاعلاميه يجب ان تملك تلك الصفات الذاتيه التى تسمح لها بالفوز الذاتى والتلقائى دون المساندة الحكوميه .

النموذج الاخر وهو الاعلام الخارجى المستورد اى الاعلام الخارجى الذى يخضع له المواطن المحلى : هنا تصير عملية الرقابة اكثر فعاليه ولكنها دائما محدودة . فاختلاف اللغة ودقه وصرامه النظم الجمركيه تسمح باقامه حواجز بين المجتمع القومى والدعاية الخارجية . ولكن هذه الحقيقه يجب ان نتقبلها بنسبيه معينه . فالمجتمع المعاصر يتجه لان يكون عالميا والعلم باللغات الاجنبيه اضحى متيسرا . اضف الى هذا ان الاتصال الاذاعى بما توفره من امكانيات الغى هذا العامل وجعل المجتمع المعاصر مجتمعا يرفض الحدود الجمركيه على الاقل فيما يتعلق بالنواحى الاعلاميه . هذا التطور سوف يزداد تأكيدا فى الاعوام المقبلة بصفه خاصه بفضل الاقمار الصناعيه وانتشار التليفزيون عقب غزو اجهزه الترانزستور . ونتيجه ذلك ان الاعلام الداخلى فى مواجهة الاعلام الخارجى المستورد

لابد وان يعدل من مذاقه وان يغير من استراتيجية حتى عند وجود نظام الرقابة . الكـــذب وتشويه الحقيقه اضحى اسلوبا مرفوضا لم يعد يؤدى الا الى اسوأ النتائج .

وقد ترتبت على هذه الحقيقه نتائج مهمه :

ا ـ النتيجه الاولى ان الاعلام الخارجى فى حاجة الى التخطيط على عكس الاعلام الداخلى الذى يمكن ان نتصوره دون تخطيط بطبيعة الحال الاعلام هو فى حاجة دائما الى تخطيط بمعنى تنظيم لعملية الاتصال ولكن عندما يصير الاعلام خارجى فان هذا التنظيم يرتفع الى مضمون مدلول تفسير الرسالة الاعلاميه . لقد وصل الامر فى بعض الاحيان بجهلز انطلاقا من هذا المفهوم الى ان يبكر باعلان الحقيقه قبل وقوعها او تكاملها وذلك مسرده تصور معين لتخطيط علاقته بقـــوى الرأى العام الخارجى والنموذج المشهور سقوط كيبف امام القوى الروسية فمن المعروف ان جهلز اعلن ذلك السقوط للمجتمع العالمى قبل وقوعه كاملا وقبل ان تعلنه اجهزة الاعلام المتحالفه واليوم يعتبر علماء الدعاية هذا التصرف من جانب جهلز دلالة واضحه على بعد نظره وقوه ادراكـه فى ضروره خلق الثقه من خلال المبالغه فى الصدق .

ب ـ النتيجه الثانيه وهى ان الاعلام الخارجى لا تستطيع الدولة حتى فى الدول ذات التقاليد الديمقراطيه الثابته ان تتركه للافراد ، الدول العريقه فى مبدأ الحريه الاعلاميه تقـــف ازاء الاعلام الخارجى موقفا مختلفا حيث ترفض الدولة ان تترك ذلك الاعلام يعتمد على الجمهـــور الخاصه وتقصره على الاجهزه الحكوميه او ما فى حكمها . النموذج الواضح لذلك هو بريطانيـــا العظمى والولايات المتحدة الامريكيه حيث ترفضان يتولى الاعلام الخارجى اى نشاط خاص وحيث تخضع هذا الاعلام لعملية تنظيم حكومية كاملة . وهى اذا سمحت فى بعض الاحيان لبعض المنظمات كالصليب الاحمر او ما فى حكمها ان تقوم ببعض المهام الاعلاميه فذلك دائما فى نطاق التخطيط الحكومى وتحت رقابة اجهزه الدولة .

رابعا : الناحية الرابعة والاخيره تدور حول مستويات التعامل النفسى . فمن بين تقاليـــد النظرية الاتصاليه ضروره التمييز فى نطاق التعامل النفسى بين مستويات متعددة تبعا للهدف من التعامل من جانب وللجمهور الذى نتجه اليه بالخطاب من جانب آخر هذه العملية نفرضها نظريـة الاتصال فى الاعلام الداخلى ولكن أبعادها فى الاعلام الخارجى موضع مناقشه .

فى النطاق الداخلى علينا ان نميز بشكل واضح بين الدعاية والدعوة والاعلام وعملية غسيـل المخ . الدعوة يقصد بها الخطاب المتجه الى المؤمن او من فى حكمه بقصد خلق او تحقيق علاقة الولاء . الدعوة تتجه الى الانصار والتابعين وليست لمجرد خلق علاقه الصداقه او المســـاندة .

الدعاية هي اساس عملية التلاعب بالعواطف بقصد الوصول الى خلق حالة من حالات التوتر الفكرى والشحن العاطفى الذى لابد وان يؤدى الى تشوية التتابع المنطقى • فغسيل المخ هو نوع من التعامل النفسى مع الذات الفرديه حيث نتوجه الى مواطن معين تحديد كمن حيث مقوماتـــــه وخصائصه بقصد التلاعب بشخصيته واعادة تشكيل مفاهيمه النفسيه • الاعلام فى معناه الضيق يعنى الاخبار او نقل الحقيقه دون تضخيم او تشويه •

لو انتقلنا الى الاعلام الخارجى فان هذه المفاهيم الثلاث تختلط الواحد منها بالاخـــــر وتتشابك بحيث يكاد يستحيل الفصل بينها : كل اعلام خارجى يتضمن دعاية ، والدعاية الخارجيـة تختلف فى اغلب الاحيان بالطابع الاعلامى • كذلك فان الدعوة تصير وقد اضحى لا موضع لها • ان الدعوة بمعنى الخطاب السياسى الى الغير بصدد ان تتصوره عبر الحدود الا بالنسبة لاستثناءات محدودة كما هو فيما يتعلق بالحزب الشيوعى وقادته • يظل مفهوم غسيل المخ مستقـل فى معناه واضح فى ابعاده • ولكن الاعلام الخارجى يضيف الى ذلك مفهوم آخر وهو الحرب النفسيه اى تلك العملية التى تتجه الى الخصم بقصد تحطيم القوى المعنوية • الاعلام الخارجى خـــلال السنوات الاخيرة وسع من مفهوم الحرب النفسيه فاضاف صورة جديدة تسمى بالحرب الاعلاميـة • ويقصد بذلك التعاون بين التقارير والبيانات الرسمية المرتبطة بالوقائع ودلالات تلك الوقائـــع • فاعلان ان ضحايا معركة معينه لا يتجاوز عدد معين ثم الرد عليه بما يثبت ان العدد يتجـاوز ذلك او يقل عنه بمسافه كبيرة هو بمثابة حرب نفسيه بين طرفين كل منهما يسعى الى خلق عـــدم الثقه فى المصدر الاعلامى الذى نبعـــت منه تلك البيانات • الاعلام الخارجى بعبارة اخرى لا يفرض التمييز بين المفاهيم ، ومرد ذلك الى انه لا تحكمه اى اعتبارات او نوازع اخلاقية • وهكذا تصيـــر الدعاية اداة من أدوات الحرب النفسيه ، ويصير اسلوب غسيل المخ تقليدا متداولا تكاد تلجأ اليه جميع الحكومات • الحكم من ذلك فى الاعلام الداخلى فان الدولة أو الحزب عندما تتجه الى ابنائها ومؤيديها • من الطبيعى فى تلك اللحظة ان عملية التعاون مع المستقبل يجب ان تخضع لقواعـــد هذا التعامل لقيم معينه تحكم السلوك وتتحكم فى صياغة اساليب تحقيق عملية الاتصال •

٨ــ هذه الطبيعة الخاصه للاعلام الخارجى الذى تميزه تميزا واضحا عن الاعلام الداخلى كان ولابد ان يفرض نتائج معينه فى فن العمل الاعلامى • وهى نتائج بعيدة المدى تتحكم فى نجاح الاعلام الخارجى او اخفاقـه •

يعنينا من هذه النتائج ما يأتـى :

أولا : ضرورة التخطيط السلمى المنظم للاعلام الخارجى •

ثانيا : ضرورة تكوين الاعلام الخارجى بالعمل والاسلوب الدبلوماسى •

ثالثا : كذلك فان الاعلام الخارجى يجب ان ينهج من لغة المصالح وان يتجرد او على الاقل ان يبتعد عن لغة العواطف والانفعالات .

هذه النتائج فى حاجة الى شىء ولو قليل من التفصيل :

١ — النتيجة الاولى تلك المتعلقة بعملية التخطيط . والتخطيط فى ميناء العام يعنى التحكم فى الحركة مع ما يفرضه ذلك من تصور مقدم للموقف وتنقلاته المتتابعة من مرحلة الى اخرى مع تحديد لادوات التحكم فى ذلك التنقل على ضوء الاهداف التى نسعى الى تحقيقها . التخطيط بهذا المعنى يفترض عناصر عديدة : قدرة على التنبؤ ، قدرة على التحكم فى الحركة ، قدرة على توقعات الاثر المباشر ، قدرة على فهم الاطار العام للتفاعل والتعامل مع القوى والمتغيرات الاجتماعية والسياسية .

لقد سبق ان رأينا ان الرسالة الاعلامية بمجرد انطلاقها تستقل فى الاعلام الخارجى عن شخص مستقبلها بحيث يصبح ان لم يستحل تصحيحها . ولتجنب ذلك فمن الضرورى ان يوجد جهاز يتولى عملية التخطيط بحيث يضمن نوعا من التنسيق والتماسك بين مختلف عناصر الرسالة الاعلامية من جانب وبين مختلف الاجهزة الاعلامية بالنسبة لنفس الرسالة من جانب آخر . وكذلك بين مختلف أدوات تنفيذ السياسة الخارجية بحيث يسير الاعلام وهو يتحدث فى واد والسياسة الخارجية تسير فى واد آخر من جانب ثالث اخيرا بحيث يتحقق توفيق ان لم يكن عدم تعارض بين نفس الاعلام الداخلى والاعلام الخارجى . وهنا تجدر بنا عدة ملاحظات تدور جميعها حول دلالة الخبرة التى عرفها الاعلام البريطانى خلال الحرب العالمية الثانية . فعندما دخلت بريطانيا المعركة لم تكن مستعدة لمواجهة الهجوم النفسى الذى كانت المانيا النازية قد اعدت له عدتها : كان الشعب الانجليزى يقف ازاء الدعاية الهتلرية بلا سلاح . فى عجل انشئت عدة ادارات ، سواء فى وزارة الخارجية ، سراء فى وزارة الحرب ، سواء فى ادارة الاذاعة البريطانية . ترتب على ذلك تناقض وتعارض بلغ حدا خطيرا فى بعض المواقف فقد كانت هناك الاذاعة البريطانية التى تخضع لتوجيهات وزارة الخارجية باسم Hom Service . ثم من جانب آخر صوت القاهرة والذى كان يخضع لتعليمات القيادة العسكرية المستقرة فى الشرق الاوسط والتى لا تقبل توجيهات الا ممن وزارة الحرب البريطانية . وازاء هذا الوضع تقدم وبير الاعلام البريطانى فى تلك اللحظة باقتراح انشاء ادارة واحدة مستقلة باسم ادارة الدعاية . ورغم ان هذا الاقتراح رفض فى اول الامر الا انه عقب ذلك وازاء التناقضات المتعددة التى حدثت بصفة خاصة بالنسبة للاذاعة الموجهة الى اليونان ويوغوسلافيا ان اتخذ مجلس الوزراء البريطانى قرارا مشهورا بانشاء ادارة ثلاثية يشترك فيها ممثلون لكل من وزارة الخارجية ووزارة الدفاع وادارة الاعلام المركزية وعهد الى احد علماء السراى

العام برئاسة هذه الادارة التى كانت تعمل بمثابة هيئة للتنسيق بين الاجهزه الثلاثه •

الواقعة المشهورة التى ادت مباشرة الى اتخاذ ذلك القرار كانت فى اعقاب الهجوم المكثف الذى تعرضت له اليونان من جانب قوات المحور • ففى نفس تلك الفتره كان الجيش الانجليزى فى شمال افريقيا كان قد بدأ ينقلب من الهزيمة والانسحاب الى المواجهه والتقدم • واثير السؤال : هل سوف تنزل قوات انجليزيه لتساند الشعب اليونانى ؟ صدرت فى نفس اليوم اذاعات ثلاث تجيب على هذا التساؤل اجابات مختلفه : فالاذاعه البريطانيه الصادره من B. B. C تعلن ان المساعدة اتيه لا ريب فيها • والتعليق على النشرة العسكريه يؤكد ان الامر موضع دراسة • اما محطة لندن التى تخضع لتعليمات الوزير البريطانى المقيم فى منطقه الشرق فهى تعلن عن اسفها وتطالب الشعب اليونانى بالتضحيه انتظارا لطرد المحور من شمال افريقيا لان هذا وحده يمثل الانتصار الحقيقى على القوى المعاديه •

عقب هذا التناقض اتخذ تشرشل قراره التاريخى بانشاء تلك اللجنة المشتركة والتى ظلت تعمل حتى نهاية الحرب العالمية الثانية • ويسلم الجميع بأن هذا التنظيم وحده هو الذى سمح لبريطانيا بأن تستعيد ما خسرته وان تحقق فى ميدان الصراع النفسى ضد دول المحور نجاحا منقطع النظير •

ب — الناحية الثانية والمرتبطة بتلك الناحية السابق تحليلها والمتوجه عنها تدور حول طبيعة العمل الاعلامى فى النطاق الخارجى • ورغم ان كلمة النطاق الخارجى تعبر عن مفهوم عام واسع يشمل اكثر من تطبيق واحد الا ان هذا المفهوم يرتبط بكل ما له اتصال بالتعامل مع القوى غير المعاديه • سبق ان رأينا دلالة هذا الاصطلاح واضحة عندما حددنا كيف ان التعامل مع الوافدين المهاجرين يجب ان ينظر اليه على انه نوع من الاعلام الخارجى • التعامل مع القوى غير المعادية هو من حيث جوهره عمل دبلوماسى او بعبارة ادق هو عمل مكمل لعملية التفاوض ومن ثم يجب ان يقع فيها ويتحدد بها • وهذا يفرض نتائج عديدة :

أولا : الدبلوماسية المعاصرة هى ليست مجرد نقل وجهات نظر وانما هى تفاعل بين حضارات • هى بعبارة اخرى تفترض كخلفيه عامه متسعه عملية التقابل والعناق بين المفاهيم المختلفه للوجود الانسانى • بهذا توصف الدبلوماسيه المعاصره بأنها دبلوماسية المواطن للمواطن Citizen to Citizen diplmacy.

ثانيا : هذه الطبيعة تفرض علاقة التداخل المستمر بين العمل الدبلوماسى والعمل الاعلامى • هذا التداخل يفرض لا فقط ان العمل الخارجى يجب ان يخضع لعملية تخطيط اسها التنظيم والتنسيق بين السياسة الخارجية والسياسة الاعلامية • بل كذلك بصفه خاصه هذا يعنى ان جمهور

الاعلام الخارجي يجب ان يجمع بين الثقافة الاعلامية المتخصصه من جانب والثقافة السياسية من جانب آخر والتدريب الدبلوماسي من جانب ثالث .

ثالثا : وهذا يقودنا لتحديد طبيعة عمل رجل الاعلام في النطاق الخارجي . ليست وظيفته اقناع بسياسة حكومية او الحصول على تأييد المواطن ازاء قرار سياسي كما هو في الاعلام الداخلي . انه اكثر من ذلك : هو رسول حضاره ومنفذ سياسة بل نجاحه كمنفذ للسياسة يتوقف على نجاحه كرسول للحضارة . ومن ثم فهو وسيلة اتصال بين مفهومين من مفاهيم الحركة الخارجية . وهذا يفرض العام واستعداد وقدره وصلاحية على فهم لا فقط ابعاد الحركة السياسية التي يعيشها المجتمع الذي هو مدع لان يتحرك في نطاقه بل وقبل كل شيء اخر يجب ان يملك تلك القدرة والحساسية التي تسمح له بأن يكون مرآة تعبر له وتعكس طبيعة تلك الحضارة . هو مرآة وليس اكثر من ذلك بمعنى انه لا يجب ان ينسى انه دائما ينتمي الى الحضارة التي يمثلها .

بعبارة اخرى فان نجاح رجل الاعلام الخارجي يتوقف على قدرته في ان يفهم الابعاد الحضارية للمجتمع الذي يعانقه دون ان ينسى طبيعته وجوهره الذاتي كامتداد للحضارة التي يمثلها ولعل هذا يفسر لماذا يخفق اغلب رجال الاعلام العرب في الخارج : وقد يفهم هذا بشكل واضح بالنسبة لاولئك الذين لم يقدر لهم الحياة والاندماج في المجتمع الاجنبي الخارجي . ولكن لا يجب ان يستنتج من ذلك ان المواطن العربي يصير اعلاميا ناجحا كجود انه قدرت له عملية الاندماج في المجتمع الخارجي . نموذج واضح يؤكد هذه الحقيقة مديري المكاتب الاعلامية العربية في بعض البلاد الاوربية فهم قد اختيروا في بعض الاحيان لطول حياتهم في تلك البلاد . في اغلب الاحيان هم طلبة فاشلون ذهبوا لدراسة عليا في المجتمعات الغربية فلم يقدر لهم النجاح وظلوا في بعض الاحيان خلال خمسة عشر عاما يتنقلون من فشل الى فشل او على الاكثر نجاح جزئي . مثل هؤلاء هم من اسوأ من يتولى الاشراف او توجيه عملية الاعلام الخارجي . فضلا عن انهم يمثلون حالات التمزق النفسي فانهم وقد انقطعت صلتهم بارض الوطن وبالحضارة الاصيلة التي يجب ان يدافعوا عنها ويمثلوها لا يمكن ان ينتهوا الا بالاخفاق .

ان خبير اعلامي ناجح في النشاط الداخلي قد لا يصلح بل قد يفشل فشلا ذريعا في الاعلام الخارجي . وذلك الخبير الذي قد ينجح نجاحا رائعا في الاعلام الخارجي قد لا يصلح لان يصير صحفيا من الدرجة الثانية في جريدة ريفية . كذلك ليس مجرد اتقان لغة اجنبية او المعرفة بمجتمع اجنبي من خلال الاحتكاك المادي هو وحده الذي يمثل الصلاحية والقدرة على الغزو الاعلامي والنجاح الدعائي في محيط التعامل بالقوى الخارجية .

جـ) كل هذا يقودنا الى نتيجة اخرى تدور حول طبيعة ولغة الاتصال الدولى • وهنا تبرز بشكل واضح طبيعة ومدى هذه التفرقه بين الاعلام الداخلى والاعلام الخارجى • ان الاعلام الخارجى هو نوع من تحقيق علاقة الولاء • أما الاعلام الخارجى فهو خلق علاقة المنفعه واصطناع أدوات الارتباط بالمصالح •

بعبارة اخرى الاعلام الداخلى هو امتداد لتلك العلاقه النفسيه التى تربط المواطن بالدولة • وكل مواطن فى علاقته بالمجتمع السياسى الذى ينتمى اليه لابد وان تستمر علاقته بخلفيه نفسيه متصلة الابعاد متعددة المراتب• تبدأ من الرضا وتنتهى حتى الولاء • هناك اولا الرضا بمعنى قبول تصرف معين Consensus • الرضا بهذا المعنى لايعدو ان يكون سوى التأييد او الرفض لسلوك الحاكم فى مواجهة المشاكل • ثم هناك درجة ثانيه اكثر اتساعا والتى يعبر عنها بكلمة المشاركة تعنى التفاعل والتجاوب Participation. بالاهتمام والارتباط والشعور بأن ما يحدث من جانب السلطه الحاكمة لا يتعلق فقط بمن يمارس السلطه وانما يحدث آثاره وبالتالى يعنى كل مواطن وكل من ينتمى الى المجتمع السياسى • التجاوب والتفاعل لا يفترض التأييد او الرفض ولكنه اكثر اتساعا من مجرد التأييد او الرفض• دائرة اخرى اكثر عمقا نعبر عنها بعلاقة الولاء Loyality. علاقة الولاء هى امتداد لرابطة الايمان وتعبير عن التعبئة الايديولوجيه حيث تصير المصيبه محور للحركة ومفسره للمواقف بغض النظر عن تقييم ودلالة وجوهر التصرف• الولاء ليست علاقه بين المواطن والحاكم وانما هى علاقه روحية بين المواطن والدولة بغض النظر عن شخص الحاكم • فالاعلام الداخلى لايدور الا حول هذه الابعاد النفسيه التى تبدأ وتتركز فى علاقة الولاء •

الاعلام الخارجى على العكس من ذلك لا يفترض ولا يدور ولا تعنيه علاقة الولاء • على العكس هو يعلم مقدما انه لا وجود ولا موضع للحديث عن تلك العلاقة • انه على العكس من ذلك توثيق لرابطة المصلحة • ان اى مواطن لا يمكن ان يهتم بالعالم الخارجى الا اذا كان ذلك ينبع من علاقه المنفعه بل وفقط المنفعه المباشرة والذاتية • عندما قررت السياسة الامريكية ان تضع قواعد الهجوم الاعلامى على العلاقات بين الصين وروسيا كان المنطلق الوحيد الذى من حوله تم بناء عملية الجذب الدعائى هو ان الخطر الروسى قريب والخطر الامريكى بعيد • هذا فى المنزل المجاور وذلك فى القرية المجاورة • فأيهما ادعى الى اثارة الانتباه؟ وقد عبر عن هذه الحقيقه شوابن لاى فى حديثه المشهور مع هيكل عندما ذكر المثل التقليدى : ان الماء الاتى من البعيد لا يمكن ان يطفأ النار القريبه • بطبيعة الحال براعة رجل الاعلام الخارجى عندما يحاول ان يخلف عملية الاتصال اليه بالنواحى العاطفيه والتى من بينها عناصر علاقة الولاء وبصفه خاصة عندما يدور الاعلام الخارجى

حول التقارب الحضاري وعلى وجه التحديد في نطاق العمل الاتصالي الذي اسميناه دبلوماسية التجمعات، على ان هذا لا يمنع من ان جو عملية الاتصال وبالتالي طبيعة الاعلام الخارجي تظل لنفس المصالح وتخدم لنفس المصالح .

وترتبط بهذه الناحية التاليه وتنبع منها وتصير امتدادا طبيعيا لها . علاقة العمل الاعلامي الخارجي بأدوات الحركة السياسية في النطاق الدولي .

لقد سبق ان رأينا كيف ان الدعاية والاعلام هي أداة من أدوات تنفيذ السياسة الخارجيه وهي بهذا المعنى أداة بين أدوات اخرى تقوم بعمليه مساندة للعمل التفاوضي . لقد عودتنا اسرائيل انها تصيغ في سياستها الخارجيه مستندة الى اذرع ثلاث: دبلوماسية نشطة، اعلام ذكي، قوة عسكرية يقظه . ويجمع الخبراء على ان العمل الاعلامي يجب ان يمثل خط الهجوم الاول وخط الدفاع الاخير في تنفيذ اي سياسة خارجية . هي خط الهجوم الاول بمعنى ان الاعلام الخارجي هو وسيلة لجس النبض او ان شئنا هو بمثابة الشرك يستطيع ان يلقى به مخطط السياسة ليجتذب انتباه الخصم ويوقعه في الموقف المثالي بالنسبه لحركته الخارجيه ومن ثم يحرك جميع قواه الايجابيه اي مدفعيته الثقيله سواء اخذت صورة قتال فكري من خلال التفاوض او قتال جسدي من خلال الهجوم العسكري او كلاهما . على ان الاعلام الخارجي ايضا يمثل خط الدفاع الاخير اذ انه يكون تلك الاداة التي تسمح بحماية الاخفاق والتخفيف من نتائجه .

على ان الاعلام يدوره في النطاق الخارجي ويحكم هذه الطبيعة يستند الى ادوات اخرى خلفيه يكمله ويسانده لابد وان تندمج معه في بوتقه واحدة من حيث التنسيق والتكامل . نذكر على وجه الخصوص:

(أولا) السياسة الثقافية وعملية التبادل الثقافي

(ثانيا) السياسة السياحية وعملية الانفتاح الحضاري .

(ثالثا) سياسة المعونات الاقتصادية وتقديم الخبرات الفنية .

جميع هذه النواحي يجب ان يتم تنفيذها من خلال السياسة الاعلامية وتنسيق كامل معها . بل كثيرا ما يحدث ان تتستر السياسة الاعلامية خلف اي من هذه الابعاد المختلفه لعملية الاتصال الدولي . ان تبادل الافلام اوسع الافلام التليفزيونيه ليست الا احد مظاهر التعبير عن هذه العلاقة ومن المعلوم ان السياسة الفرنسية درجت على ان تجعل من تغلغلها الثقافي وسيلتها الاولى لتنفيذ سياستها الخارجيه . يقول احد خبراء تاريخ الاعلام المعاصر: ان اعظم نجاح حققته فرنسا الحديثه هو سياستها الثقافيه . فمنذ ان انتهى نابليون اختفت فرنسا كقوة عظمى ، ولكن فرنسا استطاعت من خلال سياستها الاعلاميه ان تقنع العالم رغم ان هذا الاقناع لا يستند الى حقيقة قائمة، بأنها لا تزال حتى لحظتنا هذه قوه عظمى .

- ٣ -

الاعـــلام العربى ومشاكلـــه

٩ - عقب هذا العرض السريع لطبيعة الاعلام الخارجى كأداة من أدوات السياسة الخارجيـــة وما يترتب على ذلك من خصائص واضحه لوظيفة الاداة الاعلامية فى النشاط الدولى يقى علينـا ان نتساءل : اين الاعلام العربى من المعركة السياسية التى يواجهها ذلك المجتمع فى نطاق الوجود الدولى منذ فرضت اسرائيل سياسة عدوانية واضحه على المنطقه؟ واين الاعلام العربى من التطور العام الذى فرضته تطورات المجتمع المعاصر فى ربع القرن الاخير من القرن العشرين وهى تطورات سوف تزداد تأكيدا فى الاعوام القادمة؟ قد يبدو لاول وهلة ان العلاقة بين هذين السؤاليـــن محدودة ولكن الواقع ان احدهما يتحدد بالاخر . فالمنطلق الاساسى الذى منه تتحدد جميـــع ابعاد هذا التحليل هو ان العالم العربى يواجه فى هذه اللحظه حربا اعلامية او معركة اعلامية تبدأ منذ عام ١٩٥٦ ولا تزال تفرض وجودها على المنطقة واذا كان القتال العسكرى محـــدود النطاق والصراع الدبلوماسى محدود الابعاد فان المعركة الاعلامية التى يجد العالم العربـــى نفسه احد اطرافها لا تتقيد زمانا ولا مكانا ولا موضوعا . فاسرائيل تشن حربا اعلامية منذ وجودها بل هى فى هذا تستمد مصادرها الحقيقيه من حرب سابقة بدأها العالم الصهيونى منذ بدايـــة القرن الحالى وهى حرب لا تقتصر على تلك الدول التى تحيط باسرائيل والتى جرى تقليد غير موفق على تسميتها بدول المواجهة وانما تتعدى ذلك الى كل ماله صلة بالعرب او بالحضارة العربية .

منذ عام ١٩٦٧ اكتشفت البلاد العربية فجأة ان اسرائيل جعلت مساندها فى سياستها الخارجية ثلاثـــة : العمل الدبلوماسى ثم الاداة الاعلامية واخيرا قوة الردع العسكرية . دبلوماسية نشطـــة اعلام ذكى ، جيش يقظ . هذه هى الاضلاع الثلاث التى تقيم عليها اسرائيل اعمدة تحركهـــا الخارجية . وهى قد جعلت كل من هذه الادوات ترتبط الواحدة منها بالاخرى برابطة دياليكتيكية معينة بحيث ان كل منها يقوم ويعتمد للاخرى بحيث ان اسرائيل تتحرك فى سياستها الخارجيـــة وقد اضحت ايا من هذه الادوات تمثل رأسمالها قد استندت على قاعدتين مختلفتين تعبران بمثابـــة أدوات مساندة لتلك الحرية فى اختراقها لقوى المقاومة ضد تحركها الدولى .

واذا كان من الطبيعى ان نتساءل : اين الاعلام من السياسة الخارجية العربية؟ وكيف لم يستطع الاعلام العربى ان يؤدى دوره الفعال حتى اليوم؟ ام انه على العكس من ذلك قـــد استطاع ان يكون ذا فاعلية ولو محدودة؟ وتأتى الوقائع الاخيرة التى لا تزال ماثلة للاذهان تذكرنـــا مرة اخرى بحقيقة العلاقة بين هذه الحرب الاعلامية ونجاح السياسة الخارجية العربية فى صراعهـــا مع القوى الدولية . حادث تدمير طائرة الركاب الليبية عقب حادث ميونخ وقبل حادث الهجوم علـــى السفارة السعودية بالخرطوم . ان الدلالة الحقيقية فى هذه الوقائع الثلاث فى انها ترتبط بهـــذا

الصراع الاعلامى بل وايضا اثرنا على اى تحرك دبلوماسى حتى من جانب اى دولة عربية منفردة فى علاقتها بالقوى الاخرى ايضا تلك غير المساندة للوجود الاسرائيلى فالدبلوماسية المصرية كان لابد وان تعانى من احداث موضع واكثر وضوحا احداث الخرطوم • وهذه الاثار لم تقتصر على حد الصراع بين العالم العربى والوجود الاسرائيلى بل تعداه الى خلق نوع من انواع الحرب النفسيه او الصراع الاعلامى بين الدول العربية ذاتها • احداث الخرطوم فرض هذا التناقض الذى سوف يقدر له فى الاشهر القادمه ان يزداد اتساعا •

اسئلة عديدة اثيرت ولا تزال تثار من ست اعوام دون ان نلمح حتى هذه اللحظه اى تقدم او محاولة جدية فى تقديم اجابة تتصف بالتأصيل العلمى مع اطار واضحه لابعاد المبادرة والحركة على هذه التساؤلات •

اى محاولة لاشباع الفضول الذى تفرضه هذه الاستفهامات لابد وان تثير الكثير من الحساسيات على انه هذه ليست هى الصعوبة الوحيدة • فان طبيعة هذه المشكلة تفرض الكثير من ابعاد الغموض الذى يجب ان نواجهه بجلية وضحية مطلقة • فهناك اولا السؤال الذى لابد وان نطرحه فى بداية هذا التحليل هو: هل هناك ما يمكن ان يسمى حقا بالاعلام العربى ؟ ام ان هناك سياسات اعلامية عربية بقدر عدد الدول العربيه؟ وذلك مع افتراض ان تلك المجموعه من الاندفاعات والارتباطات التى تعبر من نفسها اعلاميا يمكن ان توصف بأنها سياسة • اذن كيف يمكن ان نتحدث عن الاعلام العربى بصيغة المفرد ؟

ثم السؤال الثانى الذى يفرضه التحليل السابق يدور حول هذا الاستفهام: هل نستطيع ان نطبق التفرقة السابقة حول التمييز بين الاعلام الداخلى والاعلام الخارجى؟ لقد رأينا ان محور وجوهر النظرية الاعلامية كأداة للحركة السياسية هو التمييز بين الاعلام الذى يتجه الى المواطن والاعلام الذى يتجه عبر الحدود • فهل نستطيع ان نخضع الحركة الاعلامية العربية وبغض النظر من مصدر ذلك الاعلام الى تلك التفرقه؟ الاعلام العربى الذى يتجه من دولة عربية معينه الى دول عربية اخرى هل توصف بأنه اعلام خارجى ؟ واين الاعلام العربى الذى يتجه الى الاقليمات العربية المقيمه فى اسرائيل وبعضه خاصة عقب حرب ١٩٦٧ من تلك التفرقه؟ هل نصفه بأنه اعلام خارجى ونخضعه لطبيعة ذلك الاعلام أم انه يجب ان ينظر اليه على انه من طبيعة خاصة؟ وايضا من كل ذلك الاعلام الذى يتجه الى العرب المقيمين فى خانة القارة العربية اى المهاجرين سواء لايزالوا يرتبطون برابطة الجنسية ام انفصلوا نهائيا عن ارضهم ولو من الناحية القانونية؟

كذلك فى كل حرب اعلامية يجب ان تكون واضحة التفرقه بين الصديق او المحالف والخصم او العدو • وهنا لابد وان نفرض تساؤلا آخر: هل الاعلام الذى نريد ان ننازله هو فقط الاعلام

الاسرائيلي ؟ أم ان عملية المواجهة اكثر امتداد واكثر اتساعا ؟ الاجابة على هذا السؤال الاخير واضحة ولكنها لاتكفي للاجابة عن السؤال السابق : ان جوهر الاجابة هو سؤال آخر : هل نخضع الجميع لسياسة اعلامية واحدة أم يجب ان نميز كل من مستويات الفئات والشرائح التي تتكون منها معسكر العدو واحد قائمة ؟

لا نستطيع ان نطمع في ان نقدم اجابة شافية على جميع هذه التساؤلات في هذه الصفحات القليلة ، ولكن طرحها يبرز بشكل واضح مدى تعقيد هذا الموضوع وكيف انه في حاجة الى خلفية فكرية واضحة فضلا عن تخصصات من مستوى معين من العلمية والكفاءة والقدرة على المبادرة وسعة التخيل . وهو أمر للاسف لم نستطع حتى الان ان نواجهه بتلك الجدية اللازمة التي تفرضها علينا طبيعة المرحلة التي تجتازها الامة العربية .

وكما لو كانت هذه الاسئلة والتساؤلات ليست فيها الكفاية فان جامعة الدول العربية فلا بد وان تأتي لتزيد من تعقيد وتشابك الموضوع . وهي تزيد من تعقيد الموضوع بسبب عدم القدرة على امكانية تصور حقائق وابعاد هذه العملية . حتى انها في بعض الاحيان كما سوف نرى فيما بعد عقبة حقيقية ضد امكانية تحقيق اعلام عربي ذكي وفعال على مستوى هذه المرحلة . واذا كنا لانريد ان نذكر المسئولين بأنهم يستطيعون على الاقل ان يحصلوا على بعض الدروس من متابعة الاعلام الاسرائيلي وتحليل اسباب نجاحه ، فاننا لا نملك سوى ان نحدد على الاقل بعض ابعاد هذا الاخفاق :

أولا : فالاعلام العربي لايزال في مجموعه يرى في الاعلام الخارجي امتداد للاعلام الداخلي وتطبيق من تطبيقاته .

ثانيا : وهو يرفض حقيقة الواقع العربي او على الاقل ليست لدية القدرة الكافية ولا الشجاعة اللازمة على مواجهة هذا الواقع الذي اساسه ضرورة التمييز بين مستويات اربع من مستويات العمل الدبلوماسي : المستوى الثنائي ، ثم الاقليمي ، ثم المستوى الجماعي ، ثم اخيرا المستوى الدولي مع ما يفرضه ذلك من ابعاد للعمل الاعلامي .

ثالثا : واخيرا فيجب ان نعترف ان جامعة الدول العربية اضحت حاليا تمثل عقبة حقيقية ضد امكانية نجاح وفاعلية اي اعلام عربي خارجي الامر الذي يفرض اعادة النظر في اختصاصات وتنظيم اختصاصات جامعة الدول العربية في هذا الشأن .

فلنتابع هذه النواحي المختلفة بشيء من التفصيل :

١ - أول هذه النواحي ذات النتائج المخيفة هو ان الاعلام العربي لم يستطع ان يميز بين الاعلام الخارجي والاعلام الداخلي ولايزال يجعل جميع صور الاعلام تخضع لمنطق واحد اساسه منطق الاتصال الداخلي . ومما لاشك فيه ان هناك من الاعتبارات ما تفرض دقة وحساسية في تطبيق

المفهوم التقليدي المتعلق بالتمييز بين الاعلام الخارجي والاعلام الداخلي على الاعلام العربي ولكن هذه الدقة والحساسية تفرضان مواجهة الموضوع بجدية اكثر من الممكن .

تتجلى عملية التخلف هذه بشكل واضح فيما يتعلق بالمتخصصين في العمل الاعلامي . فهم صحفيون برعوا في الاعلام المحلي ولغته واساليبه واعتقدوا انهم لذلك صالحون في الاعلام الخارجي . هذه الناحية واضحة ليست فقط على مستوى البلاد العربية كل على حدة بل وايضا على مستوى جامعة الدول العربية . فادارة الاعلام بتلك الجامعة يشرف عليها ويوجهها رجال جاءوا من اجهزة الاستعلامات التي هي اساسا اجهزة تتجه الى الاعلام الداخلي . وهنا تبرز المأساة اكثر وضوحا لو تذكرنا نتائج هذا الوضع :

أولا : الاعلام الداخلي في جميع البلاد العربية وبلا استثناء يسير على طابع غير علمي ولا تحكمه سوى الحبكة والاثارة . ونحن نحلم جميعا مدى تدهور مستوى الاعلام العربي . فلنقارن بين اي صحيفة عربية وصحيفة اخرى تماثلها في الخارج . سوف نكتشف في الحال مدى التخلف المخيف الذي تعبر عنه الصحافة العربية . وهذا يبدو في اكثر من ناحية واحدة : سطحيتة في التحليل وتكرار ممل وبطء في متابعة الاحداث وانتفاء كامل للتوقعات وعدم قدرة على التنويع وانعدام للشخصية الذاتية . واذا كانت هذه الخصائص تبرز واضحة في الصحافة العربية رغم ما لها من تقاليد في بعض البلاد فاننا نستطيع ان نتصور مدى عمق المأساة بالنسبة للاعلام الاذاعي . فهذا الاخير ليس مجرد مهنة اعلامية ولكنه تجميع بين الفن الاعلامي والفن الاذاعي في آن واحد . تزداد هذه الملاحظة وضوحا لو انتقلنا الى الاعلام السينمائي : التكنولوجيا تصير بمختلف الاعيبها ضرورة لازمة لنجاح العمل الاعلامي .

ثانيا : كذلك فان الاعلام الداخلي من الطبيعي وهو يتجه الى المواطن العربي لا يفلح ان يحكم اتجاهاته بل وان يحدثه بلغته ومستواه الفكري . مما لا شك فيه اننا نسلم بأن مستوى المواطن الاوربي او الغربي هو كيف يحدث هذا بنفس لغة واسلوب ومستوى الاول ؟ النتيجة لا يمكن ان تكون سوى عكسية : وهي أن ينظر الغربي الى مثل تلك الصورة من صور الاتصال على انها تخلف او تعبر عن حضارة اقل من مستواه الامر الذي ينتهي بأن يخدم دعاية العدو .

ثالثا : كذلك نجد ان الاعلام العربي الداخلي تسيطر عليه في جميع البلاد العربية ظاهرة الخوف من الحقيقة والتي احدى نتائجها ان كل اعلام يصير ترديد أجوف للبيانات الرسمية الصحفي العربي يأبى ان يقول الاشياء باسمائها فهو في اغلب الاحيان مأجور سواء كان مأجورا للسلطة في المجتمعات غير الديمقراطية او كان مأجورا لبلاد اجنبي في تلك التي تصف نفسها بأنها مجتمعات ديمقراطية فان النتيجة دائما واحدة وهي اختفاء الضمير المهني . يختفي الضمير

المهنى ليجعل موضعه نوع من عبادة صاحب النفوذ • كل هذا لابد وان يمنع القدرة والصلاحيـة اوعلى الاقل لابد وان يشوه فى مقوماتها • فاذا انتقل هذا الوضع الى الاعلام الخارجى لكان من السهل ان نتصور نتائجه • ان اكثر من محلق واحد اجنبى يحلق على هذا بكلمة ذات دلالـة : هو فى غلب الاحيان يقتصر على قراءة ملخص اخبار احدى الصحف ويحلن بصراحه عن انه ليس فى حاجة الى ان يطلع على الصحف الاخرى العربية لانه يعلم مقدما انها جميعها سوى تكون صورة مسوخه من الاخرى •

ثالثا : الناحية الثالثة المترتبة على النظرة الى الاعلام الخارجى على انه امتداد للاعلام الداخلى وتطبيق مع تطبيقاته يبرز فى تحديد جهة الاختصاص الذى تتولى هذه العملية مـن الناحية الاداريه فالاعلام فى مصر تتولاه هيئه الاستعلامات وهذا التقليد تتبعه لغلب الدول العربية ان كانت تلك الدول تملك جهازا مختصا بالاعلام الخارجى • ومن مراجعة جميع وزارات الخارجيـة فى الدول العربيه نلحظ انه لاتوجد دولة واحدة بها جهاز للاعلام الخارجى • بعض الدول تملك ما يسمى ادارة الصحافة التى وظيفتها استقبال المعلومات من الخارج وليس توجيه الاعلام من الداخل الى الخارج • ولو ان احدا من المسئولين لدينا اعتنى بأن يتساءل : كيف ينظم الاعلام فى اسرائيل اوما هو سر نجاح الاعلام الاسرائيلى ؟ ولو ان جامعة الدول العربية حاولت من خلال ذلك الجهاز الضخم صاحب الامكانيات المعروفـة الذى لايزال يدور فى حلقه مفرغة ان تقوم بجميع معلومات عن تنظيم هذا المرفق فى الدولة العبرية لعلمت انه يخضع منذ نشأة تلك الدولة لوزارة الخارجيـة •

هذه التبعية اثيرت وفرضت بعض المناقشات على مستوى مجلس الوزراء الاسرائيلى فى اعقاب حرب ١٩٦٧ • قبل ذلك التاريخ لم يكن احد يجرؤ على ان يثير هذا الموضوع • لان هذا الجهاز كـان يشرف عليه ويخطط له العالم المشهور "ليوكومن" واستاذ العلوم السياسية بالجامعة العبريـة •

عقب وفاة العالم المذكور ظل الوضع على امره حتى جاء اسرائيل جاليلى وحاول ان يستخدم قوتـه واهميته فى مجلس الوزراء الاسرائيلى فى ان ينزع هذا الاختصاص من يد وزارة الخارجيه فلم يوفـق وتميل بالاخفاق المتم • واستطاع ابا ايبان ان يظل محتفظا بتبعية الاعلام الخارجى لوزارة الخارجية مؤكدا تلك الحقيقة الواضحة وهى ان الاعلام الخارجى هو نوع من انواع الدبلوماسية عبر الحدود • عملية الالتحاق بالجهاز الدبلوماسى ليست مجرد ارتباط عضوى وانما هى تعنى تفاعل فى المفاهيم وتلاحم فى الحركة ووحدة فى الاساليب • انها بعبارة اخرى تنبع من مفهوم مختلف •

ولعل مثل واضح يؤكد النتائج المخيفة التى ترتبت على هذا الوضع •

فى عام ١٩٦٣ دعت مصلحة الاستعلامات المصرية الصحفى البريطانى المشهور "ايفور باويل" والذى كان يعتبر صديقا لمصر ليتولى الاشراف على مجلة "آراب اوبزيرفير" والتى توجهها هيئـة

Arab observer

الاستطلاعات المصرية الى العالم الخارجى باللغة الانجليزيه • عقب ان قضى فى مصر اربعة اعوام منها ثلاثه شغل فيها منصب مستشار وزير الثقافة فاصدر مصر ليشرو لفا بعنوان "تحيه الامل فى ارض النيل" نزل الى الاسواق فى اكتوبر من عام ١٩٦٧ اى فى تلك اللحظة التى كان العالم فيها لايزال تمر امام عينيه الصورة التى نعرفها جميعا والمرتجله بحرب الايام الستة • وطبيعة الحال لم تتمر الصحافة المصرية ان تنشر منه مقتطفات ضخمة وان تعلق عليها بعباراتها المسمومة لتربط بين حقيقه هذه الخبرة ودلالتها والطابع القومى المصرى وخصائصه •

فعبارة كهذه ينسبها الكاتب للملك فؤاد "لا تنتظر النية الطيبة من المصريين انهم لايستطيعون ان يفهموا معنى ذلك" لابد وان توضع موضع الصدارة من صفحات كاملة •

متابعة الخبرة التى يرويها لنا الكاتب الصحفى السابق ذكره تفصح لنا عن حقيقه اسلوب التعامل مع الاعلام الخارجى • عدم التخصص أولا والاستهتار ثانيا • وهذا سبق وذكرناه • ولكن اخطر ما فى الموضوع ان عملية الاعلام الخارجى تنتهى بأن تصير نقل بعض المعلومات السطحيه غير الدقيقه من الموسوعات العامه كالموسوعة البريطانيه واتخاذها وسيلة للتكسب الرخيص • ويقول نفس الكاتب انه حاول الاصلاح بجميع الوسائل وعندما انتهى بالشعور باستحالة تحقيق اى صورة من صور تعديل الوضع القائم تخلى عن اى محاولة واتخذ قراره فى نفسه: "على ان اعتبر الموضوع بأكمله كلعبة • طالما انهم يستمرون فى الدفع ..."

١١ — الناحية الثانية التى نلاحظها على الاعلام العربى انه لايميز بين مستويات الاعلام الخارجى • وهنا أمر طبيعى طالما ان هذا الاخير لا يساير العمل الدبلوماسى • لقد سبق ان رأينا ان الاعلام الخارجى هو أداة لتنفيذ السياسة الخارجية • وانه يجب ان يصير متلاحقا مع العمل الدولى يعدله ويلاحقه • وهذا يعنى ان الاعلام الخارجى يجب ان يعكس طبيعة الموقف العربى من وجهة نظر الحركة السياسية • فالموقف العربى فى اوضاعه المعاصره يفترض مستويات اربعه للعمل الخارجى • وكل منها له خصائص مختلفة بل ومتميزة:

أولا : المستوى الثنائى حيث العمل الخارجى يدور حول علاقه دوله عربية بدولة اخرى بصفه خاصة عندما تكون هذه الدولة الاخرى دولة عربية • الاعلام المصرى فى علاقته بالمملكة السعودية • او هذه فى علاقتها بجمهورية السودان او تلك فى علاقتها بليبيا وهكذا •

ثانيا : المستوى الاقليمى اى تلك الصورة من صور النشاط الدبلوماسى وبالتالى الاعلامى المرتبط بالعلاقات المختلفه الخارجية بين دول القارة العربية • هذا المستوى فى كثير من الاحيان بل وفى اغلب الاحيان ينفصل ويستقل عن المستوى الجماعى • ونقصد بذلك ان المستوى الاقليمى ذلك الاعلام الذى يخرج من احدى الدول العربية ولكنه يتجه الى الدول الاخرى العربية بقصد

ارد ون قصد ولمجرد انه قد صنع باللغة العربية • واذا كانت الحواجز لا تزال قائمة بين اغلب هذه الدول سواء أكانت هذه الحواجز من صنع القانون او بحكم الواقع ، فان بعض انواع الاعلام المكتوب والمسموع استطاعت ان تحقق نوعا مهما من الاشعاع الذى لا موضع للمناقشة فى اهميته • صوت العرب بالنسبه للاعلام المسموع وبعض المجلات اللبنانية كالحوادث فيما يتعلق بالاعلام المكتوب خير مثل يعبر عن هذه الحقيقة •

ثالثا : ثم هناك المستوى الجماعى اى ذلك الذى يرتبط بجامعة الدول العربية استقبالا او ارسالا اى الذى تقوم بين جامعة الدول العربية من خلال اجهزتها المتخصصه • فادارة الاعلام بجامعة الدول العربية ومن خلال مكاتبها المنتشرة فى الخارج تقوم باعلام جماعى ، بمعنى انه اعلام يفترض فيه انه يمثل المجتمع العربى كحقيقه كلية فى مواجهة العالم الخارجى •

رابعا : ثم هناك المستوى العالمى فى معناه التقليدى اى الذى يتجه من اى دولة عربية الى العالم الخارجى فى تلك الابعاد الاخرى غير الابعاد التى اسميناها بالمستوى الثنائى او المستوى الاقليمى •

هذا التمييز ينبع لا فقط من طبيعة العمل الدبلوماسى بصفه عامه فى المجتمع المعاصر بل وكذلك من طبيعة الموقف العربى من خلال صراعه الذى نعيشه فى هذه اللحظه • وحيث ان النشاط الخارجى يجب ان يقوم على اساس التمييز الواضح بين العمل الثنائى والنشاط الاقليمى والتحرك الدولى فكذلك الاعلام الخارجى يجب ان يخضع لهذا التمييز ثم تأتى عملية وجود اختصاص اعلامى لجامعة الدول العربية فتفرض على هذا التمييز صورة جديدة تجعل من ضرورة التفرقة بين مستويات العمل الاعلامى حقيقه اكثر الحاحا ازاء الواقع العربى •

وتبدو هذه الملحوظة واضحة عندما نتذكر كيف يختلف الهدف فى كل من هذه المستويات وكيف يستتبع ذلك طبيعة وفنا ولغة مختلفة •

(ا) فالاعلام الخارجى فى نطاق العلاقات الثنائيه يرمى الى تعميق الروابط القائمة بحيث يصير العمل الدبلوماسى ليس مجرد علاقات سطحية بين طبقات حاكمة وانما امتداد لعلاقات حضارية بين مجتمعين •

(ب) ولكنه فى العلاقات الاقليمية يصير وقد أضحى هدفه الاساسى اعادة الثقة فى الذات وتكتيل القوى المحليه فى مواجهة الخطر الصهيونى • انه يسعى اساسا لتكتيل الوعى الاقليمى بالخطر الذى احدثه وجود عنصر غريب فى المنطقه لا يمكن ان يؤدى الا الى احداث هوة سوف تزداد اتساعا مع مضى عامل الزمن •

(ح) ولكنه على المستوى الجماعى يتجه الى تقديم صورة قوية لذاته وقد اوجدت منها تلك الشوائب التى خلقتها الدعاية المضادة والتى استطاعت الدعاية الصهيونية ان تؤدى الى تراكمات بخصوصها فى الوعى الجماعى الغربى . وهى حتى اذا اتجهت الى المجتمع المحلى وهى كما سوف نرى فيما بعد لا تتجه اليه لا يمكن ان تكون الغاية منها سوى الارتفاع عن مستوى الخلافات المحلية وخلق صورة من صور الوعى الجماعى بالمصالح الكلية .

(د) على العكس من ذلك فى نطاق الاسرة الدولية اى فى تلك الدائرة الواسعة التى تشمل وتحتضن المجتمع الدولى فان الهدف لابد وان يختلف، انه اساسا عملية خلق قوى ضاغطة اجنبية محليه تستطيع ان تساند العمل العربى من الداخل فى علاقاته الخارجية مع تلك الدول .

وهكذا نجد ان العلاقات الثنائيه تعنى التعانق الحضارى والعلاقات الاقليمية تفرض التكتل الحركى . والعلاقات الجماعية تقود الى خلق علاقة ولاء جديدة .

اما فى العلاقات الدولية تصير خلق قوى ضاغطه محلية تستطيع ان تؤثر على صانع القرار المحلى او الداخلى .

تعدد الاهداف بهذا المعنى لابد وان يفرض لغة مختلفة وتخطيط مختلف بل وفلسفة مختلفه .

فأين الاعلام العربى من كل هذا ؟

١٢ — خير ما يعكس الاوضاع المعاصرة للاعلام العربى وحقيقة الاخفاق الذى يعلن عنه هذا الاعلام تقدمه لنا جامعة الدول العربية .

وقد كان من الطبيعى منذ وجود هذه المنظمة ان ترتبط بجهاز يكون حلقة الاتصال بينها وبين العالم الخارجى من جانب وبينها وبين وحدات العالم العربى من جانب آخر . فهى منذ انشائها قد حددت هدفها الاصيل وهو خلق التعاون بين الحكومات العربية . والتعاون يعنى اتصال ويعنى ايضا خلق رأى عام مساند يسمح بتدعيم ومساندة الحركة السياسية المرتبطة بتلك العملية . على انه عقب عام ١٩٦٧ فقد كان من الواضح ان اهداف الاعلام الصادر من جامعة الدول العربية يجب ان تتغير . لم تعد جامعة الدول العربية مجرد أداة لتنظيم تعاون بين الحكومات وانما اضحت رمز لمقاومة عدو يسعى الى تمزيق الجسد العربى واداة التكتيل قوى الدفاع فى مواجهة ذلك الخطر الذى افصح عن وجوده بصورة لم يكن لها مثيل من قبل . ولقد اتضحت هذه الاحاسيس والمشاعر من خلال اجتماع مجلس وزراء الاعلام العرب فى دورة انعقاد طارئة بسبتمبر ١٩٦٧ اى عقب المأساة بثلاثة اشهر . ومن العودة الى قرارات مجلس الوزراء فى بنوده نجد انه اكد على ضرورة التميز بين المرتكزات الاعلامية فى الداخل والاخرى الخارجيه . وبغض النظر عن تقييم قرارات وهما اذا كانت متسرعة دون دراسة مسبقه ام لا الا اننا يجب ان نعترف

بأصلة تلك القرارات عندما ميزت بين الاعلام العربى الداخلى والاخر الخارجى ولم تقتصر على التمييز بل تعدت ذلك الى تحديد الاهداف. فى الداخل الغاية التى يجب ان يدور حولها اعلام جامعة الدول العربية هو " التأكيد على حتميه الوحدة القومية كمنطلق للعمل العربى المشترك " اما فى الخارج فمن خلال قائمة طويلة بالاهداف نجد ان مجلس الوزراء الذكور قد جعل محور الاعلام العربى يتركز " فى عملية كشف طبيعة الصهيونية باعتبارها حركة قائمة على العنصرية والتعصب الدينى مع ما يعنية ذلك من " حصن للحجج الصهيونية التاريخية والدينية .. "

فماذا فعلت جامعة الدول العربية ؟

لقد اضحت جامعة الدول العربية عبئا وعقبة ضد اى نجاح ممكن للاعلام العربى أى ليستطيع هذا الاعلام ان يكون أداة مؤثره وذات فاعلية فى السياسة الخارجية سواء على المستوى الدولى او المستوى المحلى . والسبب فى ذلك يعود اساسا الى عديد من العوامل سوف نتناولها فيما بعد بالتحليل ولكن المنطلق الاساسى هو ان جامعة الدول العربية لا يقتصر على انها تعكس تناقضات داخليه بل هى ترفض اى محاولة ايجابية لوضع حد لتلك التناقضات. هى اولا تعكس تناقضات داخلية وذلك بحكم كونها تجميع لسياسات. ومن ثم فهى لا تمثل ارادة واحدة ولا تعكس اى سياسة متناسقه . على ان الامر الاخطر من ذلك ان هيكل جامعة الدول العربية لم يقدر له حتى الان اى محاولة جادة لوضع حد لتلك المتناقضات ولو على مستوى معين . من السهل ان تدافع جامعة الدول العربية عن نفسها بأنها تعكس الواقع العربى . ولكن هذا فى حقيقه الامر ان هو الا نتيجة واضحة لعدم قدرة الجهاز الثابت والدائم فى تلك الجامعة على ان يستقل بذاته ويكون له طابع دبلوماسى يستطيع ان يرتفع على مستوى التناقضات ولو بنسبة معينة . ومن خلال هذا الوضع السلبى كان من الطبيعى ان تزداد التناقضات وضوحا وان تصير الخلافات والصدامات اكثر تعبيرا عن الوجود العربى وان يستغل كل عدو للوطن العربى من خلال تعميق تلك التناقضات اوعدم التناسق تأكيد منطقه بعدم قدرة المجتمع العربى على توحيد الجهود .

ويكفى بهذا الخصوص ان نذكر واقعة على سبيل المثال ؟

قبل حرب عام ١٩٦٧ وعقب اقفال مضيق تيران اجتمع الرئيس جمال عبد الناصر فى مؤتمره المشهور بممثلى الصحافة العالمية . ومن خلال عبارات قوية واضحة قد تتصف بطابع المبالغة فى الصرامة والصلابة ولكنها لم تكن تعكس اى تخاذل من جانب السياسة المصرية فى الدفاع عن القضية العربية واذاء تلك العبارات كل من تتبع الصحافة العالمية والرأى العام الدولى يذكر مدى التوتر الذى اصاب القوى اليمينية ومدى الخوف الذى لحق بالعالم الغربى من تلك التصريحات.

حتى ان ديجول اسرع بخطاباته المشهورة ينذر ويوعد . فى تلك اللحظة لم يجد المندوب الدائم لاحدى الدول العربية بالامم المتحدة ان يفعل سوى ان يجمع جميع مثلى الصحافة العالمية ويعلن على رؤوس الاشهاد ان حديث الرئيس المصرى لم يكن سوى نوع من الدعاية الرخيصة الصلبة وانه لم ينوى ولن ينوى اى صلابة فى سياسته الخارجية . هذا التصريح سرعان ما تلقفته جميع ابواق الدعاية الصهيونية حتى ان جريدة النيويورك تايمز خصصت له صفحات كاملة تحلل ابعاده متعاقبة . فضلا عن ان هذا المندوب الدائم لدى الامم المتحدة يخالف بهذا التصريح ابسط قواعد الدبلوماسية بل وابسط مبادىء الذوق السليم فان الامر الذى لا شك فيه ان امكانية حدوثه انما يعنى نقصا من جانب عملية التنسيق والربط والضبط التى يجب ان تقوم بها جامعة الدول العربية .

النتيجة هى ان الاعلام العربى الصادر عن تلك الجامعة لا يعبر سوى عن مجموعة متناقضة من الاراء والاتجاهات والمواقف تعكس فى اغلب الاحيان تفاهة وسطحية جديرة بالتأمل . ومن ثم كيف يستطيع ذلك الاعلام ان يكون ذا فاعلية ؟

فلنتابع مظاهر الاخفاق قبل ان نتساءل عن اسبابه لنحدد على ضوء تلك التساؤلات البدائل للوضع القائم وامكانيات التحرك العربى من خلال جامعة الدول العربية على المستوى الاعلامى والدعائى .

١٣ — نستطيع ان نركز مجموعة ابعاد الاخفاق فى نشاط جامعة الدول العربية فى النواحى الاعلامية فى نواحى اربعة كل منها يتضمن العديد من الجزئيات . الاعلام العربى من خلال جامعة الدول العربية يتميز اولا بالتناقض الواضح : تناقض فى جميع جزئياته وعلى جميع مستوياته هو تناقض ادت اليه من جانب عدم قدرة جامعة الدول العربية على احداث تنظيمها الذاتى ومن جانب آخر اخفاقها بأى معنى من المعانى فى تحقيق عملية المبادرة والتأقلم بأبعاد الموقف فى اعقاب حرب عام ١٩٦٧ . وتزداد هذه النقائص وضوحا عندما نلاحظ ان سلبية جامعة الدول العربية وصلت الى حد ان هذا الجسد المترهل لم يحاول بأى اسلوب من الاساليب الاستفادة من الخبرات المعاصرة الاخرى على الاخرى على اى مستوياتها .

نتابع هذه المظاهر المختلفة للاخفاق بالتفصيل :

١٤ — اول ما نلاحظه فى اعلام جامعة الدول العربية هو التناقض المخيف . وقبل ان نناقش مظاهر هذا التناقض علينا ان نلاحظ كيف ان اخطر ما يمكن ان يوصف به اعلام هو التناقض سواء كان التناقض فى المنطلق او فى جزئيات المنطلق او فى الحركة او ابعاد الحركة فان هذه السلبية تمثل الفتق الذى يستطيع منه الخصم ان يتزلق بسهولة ليقوم بحركة التفافية تسمح له بتحطيم عدوه .

(١)

مظاهر التناقض عديدة وابعاده متنوعة • سبق ان رأينا كيف ان تناقضات السياسة الخارجية للبلاد العربية عكست نفسها على جامعة الدول العربية ذاتها • وبدلا من ان تحاول الجامعة باعلام ذكى ان تخفف من اثار هذا التناقض وان تقدم له صورة تفيد من آثار استغلال هذا التناقض لتشويه الصورة العربية فى الخارج فان جامعة الدول العربية ساعدت على تأكيده بل ودفعت به دفعات قوية • ولعل احد مظاهر هذا التناقض ان نقارن بين ما يمكن ان يوصف من قبيل التجاوز بأنه المنطق الاعلامى للجامعة قبل عام ١٩٦٧ ومنطقها عقب ذلك العام • قبل حرب الايام الستة كان المنطق العربى من خلال اعلام جامعة الدول العربية • يجعل ركيزته مشكلة اللاجئين ومن خلالها حق العودة الى الارض المغتصبة ومعنى ذلك الغاء الوجود الاسرائيلى كليه • بعبارة اخرى رفض للشرعية وتأكيد للحق الفلسطينى عقب عام ١٩٦٧ اذا بها تتصور فى اطار الاعلام العربى لدول المواجهة وهو تحرير الارض المحتلة عقب ذلك التاريخ مع الاعتراف بالوجود الاسرائيلى فى المنطقة • هذا التناقض الذى انعكس فى الاعلام الصادر من جامعة الدول العربية ودون ان تقدم له ما يبرره استطاعت الدعاية الاسرائيلية ان تخترق من خلاله الصورة العربية لتعلق على ذلك المنطق الجديد بقولها : ان هذا يعنى تغيير فى العقل العربى وتقبل للوجود الاسرائيلى وهو لذلك خطوة سوف تأتى بعدها خطوات لاحقة تؤكد صحة التصور العبرى • ولم يتردد مدير المخابرات العسكرية الاسرائيلية هاركابى فى مؤلف له مشهور بعنوان " اتجاهات العرب نحو اسرائيل " ان يجعل من هذه الملاحظة احد منطلقاته فى تأصيل التطور العام للموقف فى المنطقة بما يتفق مع مصالح الدولة العبرية •

١٥ — والواقع ان ما يميز موقف جامعة الدول العربية من الاعلام العربى هو عدم قدرتها على الامساك بزمام المبادرة وفشلها فى ان تؤكد قلم نفسها بأبعاد الموقف كما تحدد عقب مأساة ١٩٦٧ • سبق ان رأينا بعض مظاهر هذه الحقيقة ولكن نستطيع ان نضيف على وجه الخصوص النواحى التالية :

(١) — لم تحاول ان تقدم اى منطق اعلامى بخصوص عملية المواجهة السياسية مع العدو سواء على مستوى الحركة او مستوى الدعاية او مستوى الدعوة • وكان يكفى لذلك على الاقل ان تعهد الى بعض المتخصصين والخبراء بالقيام بتقديم منطق متكامل قابل للمناقشة يدور حول تصور عربى للصراع فى المنطقة • وبدلا من ان تفعل ذلك لجأت الى انفاق الملايين حول مكاتب وموظفين اقل ما يمكن ان يوصفوا به انهم مجموعة من المتفرجين •

(٢) — ثم تأتى ابرز نواحى اخفاق تلك الجامعة التى تدور حول عملية الاتصال بينها وبين الدول العربية ذاتها • لقد سبق ان رأينا ان مجلس وزراء الاعلام العرب فى سبتمبر ١٩٦٧ ابرز

بوضح ضرورة التمييز بين المرتكزات المتعلقة بالاعلام الداخلى وذلك الذى يمكن ان يوصف بانه اعلام خارجى فماذا فعلت جامعة الدول العربية بخصوص الاعلام الداخلى ؟ هل يستطيع احد ان يتصور ان قنوات الاتصال بين البلاد العربية والبلاد الاجنبية اكثر قوة واكثر فاعلية من عملية الاتصال بين الدول العربية والجامعة العربية ذاتها ؟ ان جامعة الدول العربية التى لديها مكاتب اعلامية فى جميع انحاء العالم تتفق عليها ملايين الدولارات ليست لديها مكاتب اعلامية فى البلاد العربية وليست لديها على الاقل سياسة اعلامية بالنسبة لتلك البلاد ؟ ولو ان جامعة الدول العربية القت نظرة على اى منظمة دولية اخرى لوجدت ان لتلك المنظمة مكاتب اعلامية على الخصوص فى البلاد التى تنتمى اليها ؟ فلماذا ؟ هل هو نتيجة خوف من الحكومات العربية ام ان انشاء مكاتب اعلامية فى هذا البلاد لا يسمح بارسال ذوى الحسب والنسب لقضاء الاوقات السعيدة فى باريس ولندن ونيويورك على حساب القضية باسم الشعوب المغلوبة؟

سؤال الاجابة عليه ذات شجون ؟

(١٦) — ثم يأتى عقب ذلك ليكمل هذا الاخفاق الواضح ما نجحت فيه جامعة الدول العربية من اقفال اى قناة من قنوات الاتصال كان يمكن ان تخلق العلاقة بين ادارة الاعلام بتلك الجامعة والفكر العربى الخلاق السياسى الذى كان يستطيع ان يساند الحركة العربية على مستوى العمل اليومى . ولو انها القت بنظرها نحو تنظيمات الوحدة الاوربية لاستطاعت ان تجد فى هذا الخصوص نماذج عديدة لا حصر لها . فاستيعاب الشخصيات القومية المؤمنة والمستقلة عن تمثيل الحكومات هو احد المنطلقات الاساسية التى استطاعت من خلالها تلك المنظمات ان تسوق الجماعة الاوربية نحو العمل الموحد ورغم الخلافات المعروفه بين اجزاء ودول غرب اوربا . فلنتذكر على سبيل المثال الصراع التقليدى بين فرنسا والمانيا . ولكن ذلك كله يفترض شجاعه فردية معينة لم يهيأ لجامعة الدول العربية ان تحصل عليها منذ انشائها حتى اليوم .

ثالثا : على ان ابرز نواحى الاخفاق واكثرها علامة على الاستخفاق وعدم الشعور بالمسئولية هو عدم قدرة جامعة الدول العربية على التنظيم الذاتى لجهازها الاعلامى . وقد تبدو هذه الناحية محدودة الاهمية ولكن كل من عمل فى نطاق الدعاية والاعلام الخارجى يدرك ان ادارة الجهاز الاعلامى هى المنطلق الاول وقدرة اى دعاية او اعلام على النجاح . ان الاعلام الخارجى فى حاجة الى ما يسمى بالقدرة الذاتية على الانطلاق بمعنى ان المنطق يجب ان يملك ذلك التكامل الذى يستطيع ان يجعل منه قديفته تسير بقوة دفعها الذاتى . واحد الادوات التى تسمح بتحقيق ذلك هو الجهاز الادارى . فماذا فعلت بهذا الخصوص جامعة الدول العربية .

١ـ سوء اختيار مديري المكاتب الاعلامية في الخارج احد المظاهر الواضحة لعدم قدرتها على تنظيمها الذاتي لقد ظلت ولا تزال تسير في حلقة اساسها ان عملية اختيار مديري المكاتب لاتخضع لاي اعتبارات من حيث القدرة والصلاحية والكفاءة الذاتية • وفي اغلب الاحيان تارة بدعوى تمثيل البلاد العربية وتارة اخرى بدعوى تفضيل موظفي ادارات الامانة العامة • فان هذه المكاتب لم يقدر لها حتى اليوم قدرات على مستوى التأثير المحلي والغزو الحضاري في المجتمع الذي يعمل من خلاله مكتب الاعلام •

٢ـ والواقع ان مرد ذلك هو ان جهاز الاعلام يخضع لنفس القواعد التي يخضع لهـــا جهاز جامعة الدول العربية دون اي تمييز او تفرقة وان وجدت بعض نواحي التميز فهي دائمـــا لصالح المنتفعين ومن في حكمهم حتى ان جامعة الدول العربية اضحت بمثابة متحف يضم عديمي الكفاءة او من انتهت فترة خدمتهم بالاحالة الى المعاش وتزداد هذه الحقيقة خطورة بالنسبة للجهاز الاعلامي فهو يخضع بجميع احد الاشياء المساعدين الذين لا دراية لهم بالعمل الاعلامي • ورغم ان هذه الصفة نراها في اكثر من موضع واحد الا ان خطورتها بالنسبه للاعلام واضحة لاتحتاج لمناقشة وليس مرد ذلك فقط ان جامعة الدول العربية تريد من خلال مكاتبها ان تقوم بوظيفة مستقلة تعبيرا عن ارادة مستقلة خلافا للمحاولات الاخرى كما هو مثلا بالنسبه لادارة البترول ولكن ايضا لان الاعلام العربي في حاجة الى سرعة في التغيير وقدرة على الحركة لان العدو الذي يواجهه يمتاز بهذه الصفات •

٣ـ واخفاق جامعة الدول العربية يبرز بشكل اكثر وضوحا فيما يتعلق بخلق المتخصصين او الخبراء في الاعلام الخارجي • في عام ١٩٦٧ اكتشف الجميع انه لايوجد لدينا خبراء فـــي الاتصال الدولي وان العالم العربي لايزال تنقصه هذه الخبرة واكتشفت جامعة الدول العربيـــة ان اعداد خبراء في هذا الشأن في حاجة الى ثقافة معينة والى تخصص معين فماذا فعلت حتى الآن ؟ في كل اجتماع لخبراء الاعلام العربي نجد ان الكلمة الاولى التي تقال وتتردد على جميع الالسنه هي نقص العالم العربي من الخبراء فهل ما كانت تستطيع جامعة الدول العربية بكل ما لديها من امكانيات ان تخلق خبرائها خلال سته اعوام من الضجيج المستمر؟ ومتى سوف تهدأ في التفكير في هذه العملية بحكمة وبعد نظر •

١٧ •ـ وجامعة الدول العربية لم تقتصر على عدم قدرتها على احداث ما هي في حاجة اليه من التنظيم الذاتي وخلق مطلقها واداواتها الخاصه بها والصالحة لمواجهة الموقف بل انها لـم تحاول حتى الاستفادة من الخبرات المعاصرة ولو ان المسئولين عن جهاز الاعلام العربي فـــي تلك الجامعة حاولوا مجرد القراءة العادية لاي دراسة خاصة بالدعاية الخارجية لاكتشفوا الكثير من النواحي التي كانت تستطيع جامعة الدول العربية ان تخلق من خلالها انطلاقات حقيقية في سهول

١ــ فلو تابعنا تاريخ الدعاية الخارجية خلال الحرب العالمية الثانية لاكتشفنا ان سر نجاح اى عملية دعائيه خارجية هو التخطيط. والتخطيط هنا لا يعنى انشاء مكاتب ووضع لوائح وانما يفترض أولا وقبل كل شىء جهاز متخصص يستطيع ان يقوم بعملية بناء للمنطق الدعائى والاعلامى. ولو عدنا لتنظيم جهاز الاعلام التابع لجامعة الدول العربية لما وجدنا لمثل هذا المفهوم اى موضع على اى مستوى من المستويات. فهناك ما يسمى بلجنة التخطيط والمتابعة وما يسمى بقسم التخطيط والمتابعة ولكن جميع هذه التنظيمات لا تتضمن فهما حقيقيا لمعنى التخطيط الاعلامى : هى لا تعدو تجميعا لبعض المسئولين فى الادارة بقصد متابعة سير الجهاز او مناقشة بعض الاقتراحات دون ان يقدر لاى منها حتى الان اى محاولة جادة لتقديم ذلك الذى يقصد بالمعنى الفنى لكلمة خطه اعلامية. وكما قررنا من قبل فان الخطه الاعلاميه هى منطق متكامل، ويتضمن تجزئة لعناصره وتحديدا لمرحله لكل عنصر وتوقع لردود فعل كل من هذه العناصر مع تصورات لمواجهة ردود الفعل الجانبية، وتجريب لادوات الاتصال بمختلف مستوياته مع دراسة لابعاد عملية التأثير والتأثر.

٢ــ ولو اتيحت لنا دراسة الاعلام الاسرائيلى وتساءلنا عن اسباب نجاحه ومراحل نجاحه لاكتشفنا الكثير والغريب ان المعلومات الاوليه حتى عن تنظيم جهاز الاعلام الاسرائيلى لا موضع لها فى جامعة الدول العربية. ولو ان اولئك الذين بيدهم الامر قدر لهم الاطلاع على بعض المؤلفات المتداولة منذ ما لا يقل عن عشرة اعوام بخصوص الدعوة الصهيونية ومدلولاتها الدعائية والاعلامية لعرفوا الكثير. ان اسماء كسيلفر ولجين ولبوكوهن اولئك الذين خططوا للعمل الاعلامى الاسرائيلى فى مختلف مراحله، نستطيع ان نصرخ بها امام المسئولين عن اجهزة الاعلام دون اى صدى.

٣ــ على ان ابرز نواحى الاخفاق والفشل تنقلنا الى عملية صنع القرار السياسى. فان اى محاولة جادة من جانب جامعة الدول العربية وجهازها الاعلامى للتأثير على تصور صانعى القرار السياسى فى المجتمعات الاجنبيه بحقيقة ابعاد المشكلة العربية لا وجود لها. هذه الناحية ليست فى حاجة الى كثير من التفصيل لفهم نتائجها قرارا فى محاولة التحكم فى الوقائع. تصور الواقعة يرتبط بذلك النظام الكامل للقيم الذى يسيطر على صانع القرار. احد مسالك التأثير على صانع القرار من جانب الدولة صاحبة المصلحة هى أن تؤثر على تصور صانع القرار للمشكلة او بعبارة ادق ان تؤثر على ادراكه لابعاد المشكلة. ويتم ذلك اما بالاتصال الشخصى او بالاعلام الجماهيرى المخطط والمنظم من خلال انتقال العلم بالواقعة الى عالم المدركات لصانعى القرار وقبل صدور رد فعله بتلك الواقعه. بعبارة اخرى لو تدخلت القوى الخارجية خلال عملية الادراك من خلال مسارات العلم بالواقعة لتصبح ذاتها فى مدركات صانعى القرار فان الدولة او القوة الدولية

صاحبة المصلحة تستطيع ان تؤثر بطريقة مباشرة ولكنها غير علنية، حاسمة ولكنها خفية، في توجيه الاحداث. هكذا فعلت الدعوة الصهيونية قبل ان يشن سيلفر هجومه الاعلامي المشهور على الرأي العام الامريكي ابتداء من عام ١٩٤٣ وضع تخطيطا كاملا لعملية الوصول الى مراكز صنع القرار والتأثير في تلك المراكز ابتداء من عام ١٩٣٢.

فماذا فعلت جامعة الدول العربية بهذا الخصوص؟

٤ــ اضف الى ذلك من ابرز نواحي الاخفاق عدم اهتمام جامعة الدول العربية الاهتمام الحقيقي والواجب بالعرب في المهجر. لقد كانت تستطيع بسياسة ذكية وباعلام نشط ان تخلق من كل عربي ما يسمى في العمل الدعائي باصطلاح "الجرثومة الناقلة للعدوى" ومعنى ذلك جعل كل مواطن عربي في المهجر جهاز استقبال للمنطق العربي يتولى عملية ارسال تالية في الوسط المحيط الذي يعيش فيه. وهو امر يفترض لتحقيقه توفر المنطق المتكامل الذي لم تفكر الجامعة باجهزتها المختلفة في بنائه واعداده.

١٤ــ ان الحقيقة التي يجب ان نعترف بها هو ان جامعة الدول العربية لا تستطيع في اوضاعها الحالية ان تقوم بأي عمل اعلامي او دعائي جدير بالاحترام في مواجهة الدعوة الصهيونية. الواقع ان هيكل الجامعة من حيث تقاليدها لا يؤهلها لذلك وتكوينها الحالي هو استمرار لاوضاع سابقة لا تتجانس مع طبيعة تلك المهمة. والسؤال الذي يجب ان نطرحه: هو ما هو البديل لذلك؟

ان امام المسئولين واحد من ثلاث:

أولا : تطوير كلي وشامل لجهاز الاعلام بجامعة الدول العربية تطويرا يسمح بافراج ذلك الجهاز من تقاليد التخاذل التي تسيطر على اوضاعه الحالية.

ثانيا : او انشاء منظمة مستقلة على غرار المنظمات الاخرى النوعية ذات الكيان والهيكل الذاتي تعبيرا عن طبيعة وخصائص الوظيفة.

ثالثا : ان تنزع وظيفة الدعوة والدعاية للقضية العربية من يد الجامعة وان يعهد بها الى احدى دول المواجهة ذات الكيان السياسي وذات التقاليد الدبلوماسية الواضحة التي تستطيع ان تتحمل المسئولية كاملة بخصوص العمل الاعلامي.

كل من هذه الاقتراحات وهذه البدائل لهما ميزاتها ولها عيوبها. ولكن الحقيقة الواضحة التي يجب ان نسلم بها والتي هي غايتنا هذه الدراسة هو ان الوضع القائم لم يعد صالحا ولن يكون له من اثر في المستقبل سوى زيادة التعفن في قضية المصير التي تفرض نوعا اخر من انواع منطق الحركة.

١٥ - في غير هذا الموضع أعلنا ان البديل الوحيد للصراع العسكري في لحظة اتضح فيها الصراع العضوي بين المجتمع العربي والصهيونية الاسرائيلي أيرا يستحيل التصور ان لم يكن على الاقل مستبعد الامكانيات هو الصراع النفسي الذي شاهدناه الا سنوات لا يمكن ان يكون سوى العمل الاعلامي . هذه الحقيقة في حاجة الى تحليل . وإذا كنا ابرزنا بوضوح مدى اخفاق الاعلام العربي وكيف انه حتى الآن يدور في حلقة مفرغة ليعكس الترهل النظامي فاننا يجب لتأكيد هذه الحقيقة ان نوضح ابعاد الاخفاق من حيث الجمود الفكري والشلل في القدرات المنطقية على التصور واستغلال الفرص في مواجهة العدو واستطاع ان ينجح في الانتفاع بجميع الاخطاء .

رغم ان هذه النواحي العديدة في حاجة الى دراسة مستقلة ، الا اننا نستطيع منذ الان ان نتناولها بشيء من الايجاز .

١٦ - ان السياسة الخارجية الاسرائيلية لا يمكن ان تعدو سوى تحقيق اهداف ثلاثة سوف تسيطر على تحركها الدولي في الاعوام القادمة ،

ا) التكامل الديموجرافي لتكوين تلك الدولة القوية كما بأن تتسع لتضم عشرة ملايين يهودي .

ب) الاستيعاب الحضاري بحيث تستطيع الاداة الحكومية ان تحقق عليها تدجيج وصهر جميع العناصر العربية التي قدر لها ان تدخل في نطاق الاقليم الاسرائيلي قبل وبعد عام ١٩٦٧ لتكون منها طبقة جديدة تصير الطبقة السفلى في مجتمع يقوم على اساس التباين الطبقي بحيث يتمركز في اعلى مراتبه رجل السابرا الغربي الاصل .

ح) ان تصير اسرائيل المتحدث الوحيد ذو الفاعلية الحركية لعالم القوى الكبرى . فهي لن تحدث فقط الولايات المتحدة بلغة المصلحة والامن القومي الامريكي بل سوف تجعل من نفسها حلقة من حلقات الخطاب والاتصال بجميع القوى الاخرى العالمية : اوربا المتحدة ، روسيا الشيوعية ، الصين الغازية ، ثم اليابان المتحفزة لا نريد ان نتناول هذه الابعاد الحركية بالتفصيل ولكن يهمنا فقط ان نلاحظ ان مواجهة هذه الابعاد الثلاث يفرض ضغوطات نفسية قابلة لان تخلف من حدة النجاح المتوقع للسياسة الاسرائيلية ان لم تمنعها من ان تحقق اهدافها تحقيقا كاملا . في كلا الحالين فان الحرب النفسية والتعامل النفسي يفرض علينا ان نواجه هذا الغزو بتحليل سريع اساسه المبادرة وشجاعة الجسور بقصد منع تحقيق هذه الاهداف:

أولا :التعامل النفسي الاسرائيلي اليهودي للمهجر هو منطلق الدعوة . وبالتالي يجب ان تتحدد بكليتين : تمزيق هذه الدعوة وابرازها على انها اسطورة مضللة لا اساس لها من الصحة ولا تستطيع ان تواجه منطق العصر ولا حقيقة التطور الذي تفرضه العلاقة بين المواطن

اليهودى والدولة التى ينتمى اليها •

ثانيا : بالنسبة للعربى المقيم فى اسرائيل فان واجب الاعلام العربى هو تنمية الشعور بالتكامل الذاتى واعادة الثقة فى النفس ومساندة هذا العربى الوحيد المنفرد فى صراعة اليومى ليظل رافضا اى محاولة من محاولات الاندماج والانصهار او الاستيعاب فى الكوسموبوليتيك الجديد •

ثالثا : اما فيما يتعلق بالقوى الكبرى فان هناك اكثر من منطلق واحد يؤيد القضية العربية ويسمح بربط المصالح التى تمثلها كل من هذه القوى بالمصالح العربية وتأكيد التناقض المطلق او النسبى بين تلك المصالح والمصالح الاسرائيلية ولو فى الامد البعيد •

ولعل العودة الى تاريخ العمل الدعائى الصهيونى يسمح لنا بأن نقدم نموذج قابل لتأكيد القدرات الحقيقيه للتعامل النفسى كمنطلق للصراع الدولى بين القوى فى المجتمعات المعاصرة • فعندما انتقلت الحركة الصهيونية من جنيف ونيويورك كان الرأى العام الامريكى يقف من هذا المذهب موقف الرفض بان لم يكن موقف عدم الاهتمام • الابحاث الميدانية حتى عام ١٩٤٢ تثبت ان الرأى العام الامريكى كان يضع القوى اليهودية موضع الاحتقار والازدراء وانه كان يرى فى اليهودى عنصر خطر على المجتمع الامريكى بل ويمقته فى مواقع اشد رفضا لوجوده من موقع الالمانى واليابانى الذى كان يصارع كل منهما صراع حياه او موت ولكن ما ان وصلنا الى عام ١٩٤٩ حتى اذا بذلك الرأى العام يأخذ صورة الطوفان الثابت المستقر فى تأييد الحركة الصهيونية والدفاع عن القضية التى تمثلها تلك الحركة •

لماذا وكيف حدث ذلك ؟

ليس هذا موضع التحليل التاريخى للحركة الصهيونية • ولكن فلنضع النقط فوق الحروف ولنسعى لنؤكد من خلال التقييم المحايد غير الحاطفى كحقيقة النجاح وتغيراته •

ا) التمييز بين الدعاية والدعوة : الاولى تتجه الى الامريكى غير اليهودى والثانيه لا تخاطب سوى اليهودى •

ب) جعل عملية الزحف النفسى تتم على مرحلتين : الاولى تتجه الى خطاب صانع القرار تسعى للتأثير فيه او الشل فاعليته • الاتصال احد المسالك ولكنه ليس الاسلوب الوحيد • فالاغراء والتهديد قليلا لان يتحول كل منهما لاستأصال • وتحطيم • قصة وكيل وزارة الدفاع الامريكية معروفة ليست فى حاجة الى تفاصيل • فقط عقب خلق نقط ارتكاز فى المجتمع لوضع الهجوم النفسى تبدأ عملية الاغراق الجماهيرى من خلال مخاطبة مختلف فئات الرأى العام •

حـ) اضف الى ذلك استغلال العلم وربطه بالحركة • هذا ان وصل سيلفر الى قيادة الحركة الصهيونية بدأ تعاونه مع العالم الامريكى اليهودى الاصل لوين • وهو الذى استطاع ان يصوغ

له لينه العمل الدعائي ، وهو الذي استطاع ان يأصل له مفهوم عقده القرابة الدائمة الذي بقصه ان للقت ابواب الدعاية الصامتة بقصد سحق جميع زعماء اليهودية الذين كانوا قد اتخذوا موقف الرفض والمعارضة للحركة الصهيونية .

١٧ - ليست احد اهداف هذه الدراسة تحليل الدعاية الخارجية الاسرائيلية واسرار نواحي نجاحها . ولكن كما سبق القول في صدر هذا الموضوع . المذاق الدعائي يفترض مستقبلين متوازنين يكمل كل منهما الاخر ويدعمه : مذاق ايجابي وهو جوهر الشيء ومذاق سلبي وهو مذاق رفض المذاق المكمل . الاخطاء العربية هو ايضا احد المسالك التي تدعم من خلال الدعاية الاسرائيلية مكتسباتها وتظاهر نجاحها . فالاعلام الاسرائيلي استطاع ان يفهم بعض الحقائق ويدرج فيها نجاحا واضحا .

أولا : فهم ان الاعلام الخارجي هو أداة دبلوماسية وعرف كيف ان هذه الصفة اي الصفة الدبلوماسية يجب ان تصبغ العمل الاعلامي في الدان لا تفقده من حيث كونها اداة للسياسة الخارجية بل وكذلك من حيث حقوقتها كنشه تخاطب ومذاق تعامل بين قوى غير داخليه . هذا النجاح واضح في اكثر من بعد واحد : ربط المهاجرين اليهود بالقضية الاسرائيلية ، جعل العمل الدبلوماسي أداة دعائية ، استغلال فكرة الحوار التليفزيوني والاذاعي مذاقا محايدا لخلق الاقناع وتأكيد الاقتناع .

ثانيا : كذلك فقد فهمت الدعاية الاسرائيلية حقيقة العمل الدعائي الخارجي من حيث كونه يجب ان يخضع محتوى مضمونا لفكرة مركزية التخاطب . ان مستقبل العمل الدعائي الخارجي وهو يتوجه بحكم طبيعة الموقف لاكثر من مذاق واحد يفترض على مذاق التعامل خصائص معينة وهي خصائص لا يمكن ان تصل الى تحقيقها الا من خلال التوحيد والتنسيق الداخلي والحركي للتخاطب الدعائي .

نماذج النجاح واضحة :

أ) اسرائيل واثيوبيا حيث جعلت الدعاية الاسرائيلية من التقارب بينهما نوع من المذاق الحضاري ، وهو مذاق يعني اللقاء والتفاعل دون ان يتعدى ذلك .

ب) اسرائيل واوربا الغربية حيث اتخذت قاعدة الانطلاق الدعائية هي فكرة الامتداد الحضاري . لم يعتمد التخاطب المذاق للعمل الدعائي يستند الى فكرة اللقاء والمذاق وانما يجعل جوهره فكرة الامتداد والتواصل المضموني .

حـ) اما عن اللغة الاعلامية فيكفي لابراز هذا النجاح المقارنة بين الدعاية الاسرائيلية في المجتمع الامريكي قبل عام ١٩٦٧ وعقب عام ١٩٦٧ . قبل ذلك التاريخ تدور وتتمركز حول عقدة المسئولية . وذلك رغم ان مذاق الدعاية الاسرائيلية الموجهة الى المجتمع الالماني بصفه خاصة كان يغلف نفسه بمعتدء الذنب . عام ١٩٦٧ اذا بفكرة حماية المصالح الامريكية

تصير جوهر اللغة الدعائية وذلك رغم ان عقده المسئولية سوف تنتقل لتسيطر على اللغة الدعائية الموجه الى مجتمعات غرب اوربا •

د) نموذج آخر لا تزال تحاصر بعض ابعاده غير الواضحه ولكننا نتوقع نجاحه فى القريب العاجل يرتبط بالعمل الاعلامى المتجه الى الصين • ان اسرائيل تتحدث مع هذه الاخيرة فقط بلغة التكنولوجيا ومن خلال المنطق التكنولوجى • ترى هل سوف تظل جامعة الدول العربية جامدة ايضا بالنسبة لامكانياتها فى هذا النموذج ؟

١٨ — الواقع ان جامعة الدول العربية فشلت فشلا واضحا رغم امكانياتها وضخامة الفرص التى اتيحت لها • فليست فقط الصين احد الميادين التى كان يستديع الاعلام العربى لو قدر له الذكاء ان يغزوها بنجاح • بل هناك نماذج اخرى لا تزال تصرخ وتتساءل اين كانت الجامعة واين كان رجال تلك الجامعة ؟

ا) ان روسيا وبصفه خاصة خلال الفتره السابقه على عام ١٩٦٧ كانت ميدانا مفتوحا على مصراعيه • هو ميدان تزداد فاعليته ويزداد وضوحه بالنسبه لاوربا الشرقيه • ومع ذلك ماذا فعلت جامعة الدول العربية ؟

ب) المانيا لم تكن اقل من ذلك كقوة جاذبة لمنطق القضية العربية •

ح) ويزداد الامر وضوحا لو انتقلنا الى الاحزاب الاشتراكيه فى فرنسا وايطاليا • فالرأى العام الفرنسى وكذلك الرأى العام الايطالى الى حد ما لم يؤيد فى اى من طبقاته او شرائحه القضية العربية كرد فعل او كمنتوجه للاعلام العربى • القوى اليمينيه بتقليدها تقف من السلبيه موقف العداوة • الاحزاب الشيوعيه تساير الموقف الرسمى لموسكو • الاعلام العربى كان من الطبيعى ان يتجه الى الاحزاب الاشتراكيه • فهذه البلاد اى البلاد العربيه تقدم نماذج واضحه للتطور الاشتراكى وبعضها يعلن بأن الاشتراكيه هى منطلقه الحركى واساسى فلسفته السياسية • ومع ذلك فان هذه الاحزاب هى التى تكون رأى عربى الحربة فى رفض القضية العربية بتلك البلاد • فلماذا او كيف يحدث ذلك ؟

ولنتذكر الامكانيات ولنتذكر بعض ملامح الفشل :

(١) عرب المهجر فى الولايات المتحدة وكندا وامريكا اللاتينيه •

(٢) الطلاب العرب الذين يمثلون عدد لا يقابله اى عدد آخر مماثل من جانب الطلاب اليهود فى اى بقعه من بقاع العالم عدا الولايات المتحدة الامريكية •

(٣) العمال العرب الذين يصلون الى مئات الالاف والذين يكونون فى المانيا وحدها ما يزيد على خمسين الفا بل ويقدره البعض بأنه يصل الى مائه الف •

(٤) واين الاتصال الاعلامى بالدول الاسلامية ولو من خلال الازهر •

١٩ — ان الخطأ الحقيقي الذي يجب ان يعاب على جامعة الدول العربية هي انها لم تقدم منطلقا دعائيا او اعلاميا ولو في صورة فطرية او بدائية . وفشلها في هذا يعود الى عوامل عديده سبق ان فصلناها . ولكن يتعين علينا ان نضيف بعض الملاحظات التي يجب ان تفرض اكثر من استفهام واحد . نصوغها كختام لهذه الدراسة لنلمح من خلالها المنطلق الحقيقي الذي يجب ان تنبع منه عملية المواجهة الاعلامية في الاعوام القادمة .

ا) ان جامعة الدول العربية تصور نفسها كمنظمة اقليمية على اساس ان عملها الحقيقي هو تقطير القيام بالتنسيق اللازم بين مختلف الدول الاعضاء . على ان الواقع يمثل فقدا حادا لمستويات العمل السياسي الذي يجب ان تقوم به تلك الجامعة . هذا المستوى يرتبط بوظائفها الداخلي كمنظمة اقليمية . ولكنها تنسى انها ايضا كمنظمة اقليمية يقع على عاتقها عبء اخر يوصف كونها حلقه وصل بين المنطقه الاقليميه التي تمثلها والعالم الخارجي . عملها في مواجهة العالم ليس عملية تنسيق وانما عملية خطاب واتصال ودفاع عن مصالح لا يمكن ان تكون الا مشتركة . بعبارة اخرى يصير عملها بمثابة تجميع للقوى الذاتية في عملية المواجهة الدولية او بلغة اكثر دقة تصير قنطرة تتقابل فيها جميع روافد الوجود العربي .

هذا هو المنطلق الحقيقي لوظيفه الجامعة العربية في عملية المواجهة الاسرائيليه .

ب) كذلك مما يدعو للتساؤل الامكانيات الحقيقية لاستغلال المشاكل الداخلية للوجود الاسرائيلي كقاعدة لصياغة دعاية اساسها تشويه الطابع القومي الاسرائيلي بصفة خاصة واليهودي بصفة عامة او للتشكيك في القدرات الذاتية . ان هذا المنطلق الذي استغلته اسرائيل ببراعة لم تستطع حتى الآن ان تجعل منه دعامة لحركة دعاية عكسية وضادة رغم ان جميع الوقائع التاريخية القريبة والبعيدة تؤهل العمل العربي لمثل هذه الموجة وتقدم له من المادة ما يمكن ان يكون اوفانا للعمل الدعائي .

فماذا فعلت سوى ان ترسل مديرين للمكاتب وعقب عام نسمع على صفحات الجرائد انها قد اكتشفت ان الواحد منهم اقل ما يمكن ان يوصف انه خائن للامانة ؟ ترى هل نحن في حاجة الى اكثر من هذه الأدلة والبراهين على ضرورة اعادة النظر في جميع عناصر ومقومات التنظيم الاعلامي بجامعة الدول العربية .

التمييز بين الدعايه والدعوة فى تقاليد الحركة الصهيونية واثره على السياسة الخارجية الاسرائيليه خلال العشرين عاما القادمة

١ ـ علق احد المؤلفين على الدعاية الاسرائيلية بقوله : رغم ان الفن الدعائى لم يرتفع بعد ويتكامل ليصير علما حقيقيا الا ان متابعة الجهود الاسرائيليه بهذا الشأن كفيلة بأن تفتح لنا بابا واسعا لتأصيل علم الدعاية . فالخبرات العديدة التى قد ر لاسرائيل ان تمر بها والنجاح المتعمد الابعاد الذى قدر للعمل الدعائى الصادر عن الدولة العبرية ان تحققه كفيل بان يقدم لنا حقلا للتجارب وميدانا خصبا للملاحظه والمشاهده قل ان نجد له مثيلا .

والواقع ان المتابعة التاريخية والتحليليه لتحديد العلاقه بين العمل الدعائى والصراع السياسى فى تاريخ الحركة الصهيونيه يسمح بتأكيد مدلولات معينه يجب ان تكون اساسا للتأصيل الفكرى لعملية التفاعل النفسى بين المواطن والدولة .

أولا : فالدعاية الاسرائيلية اثبتت ضرورة التمييز الواضح بين الدعاية الداخلية والدعاية الخارجية : الاولى تتجه الى المواطن او من ينتمى الى الجسد العضوى للمجتمع السياسى حيث تستطيع الدولة من خلال تحكمها فى ادوات الاعلان ان تخلق رابطة نفسيه اساسها التدرج والتحكم فى فيضان المادة الاعلامية سواء من حيث الانطلاق او من حيث الاعداد او من حيث خلق عناصر التأثير من خلال قادة الرأى المحلى . على العكس من ذلك فالدعاية الخارجية لا تسمح بهذه المحلية : انها تذيعه فكريه تنطلق وعليها ان تسير بقوة دفعها الذاتى وان تقوم بنفسها ومن خلال منطقها الذاتى بعملية الضبط والاجابة على رد الفعل .

ثانيا : كذلك تتاليه التعامل النفسى للدعاية الاسرائيلية استطاعت ان تمكننا من التمييز بين مستويات هذا التعامل بصفة خاصة بين الدعاية والدعوة والحرب النفسيه . فالدعاية هى تلك التى تتجه الى الصديق او الى غير الصديق او الى غير المهتم لتغيير من مظاهر الاستجابه . الحرب النفسيه هدفها تحطيم الخصم . اما الدعوة فهى عملية عناق وتعانق بين عقيدة ومن هو مؤمن او قادر او صالح للايمان بتلك العقيده . هى خطاب يتجه الى الانصار او من فى حكمهم وغايته خلق او تعميق علاقة الولاء . والولاء فى اوسع معانيه هو الشعور بالانتماء او بعبارة اخرى هو الرابطه العاطفيه والعقيدية والمنطقيه التى تفرض نفسها على المواطن بحيث يشعر ان كل ما يأتى من مصدر تلك العقيدة او من ممثلها او من المحرك الذى يعبر عنها يجب ان تصحبه مباشرة علامات

الرضـــا والتأييـــد .

التمييز بين هذه الابعاد الثلاث هو احد محصلات الخبرة الاسرائيليه . والغريب ان الفقه العربى درج على الخلط بين الدعاية والدعوة والحرب النفسيه وذلك رغم ان كل منها يخضـــع لتخطيط واعداد مستقل . هناك علاقه لاشك فى وجودها بين هذه الابعاد الثلاث من التعامل النفسى حيث ان جميعها مظاهر لعملية الاتصال التى تعكس الحركة العبرية فى نطاق التعامل المعنوى ، ولكن كل منها يبرز بذاتية وتميز وصفة خاصة من حيث المراحل المرتبطة بالسياســـة الخارجيـــة الاسرائيليـــة .

رغم اننا لانقصد من هذه الدراسة ان نتابع هذه النواحى بتفصيل عميق ، فالظروف لاتسمح بذلك الا ان الملحوظة العامة التى تفرض نفسها علينا فى بداية هذا التحليل هو ان الدعـــوة الصهيونيـــه كتعامل نفسى متجه الى خلق الانصار وجد قبل خلق الدولة الاسرائيليه ثم عـــاد ليبرز مرة اخرى فى اعقاب حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، وهذا يفرض التساؤل : لماذا الدعوة وليست الدعاية هى التى سيطرت على الحركة الصهيونيه حتى عام ١٩٤٨ ولماذا ضعفت خلال الفـــترة الممتدة منذ انشاء الدولة العبرية حتى حرب حزيران ولماذا عادت بعد تلك الحرب وما ارتبـــط بها من احداث لتفرض نفسها مرة اخرى على نشاط الدولة الاسرائيلية ؟

مما لاشك فيه ان هناك فارق واضح بين الدعوة الصهيونيه قبل انشاء الدولة الاسرائيليـــة والدعوة الصهيونيه عقب هزيمة يونيو . ولعله يكفى لتأكيد هذا الفارق ان نتذكر ان الدولة العبرية خلال المرحلة الاولى لم يكن لها بعد وجود هيكلى . اما فى المرحلة الاخرى فهى تتحرك كمقدمه وكرأس حربة للصهيونية العالمية فهلاف فى الاطار المرتبط والملتصق بالارض الاسرائيلية حيث تحكم علاقته بتلك الارض رابطة الولاء والانتماء الروحى وليست علاقة الرضا او التأييـــد .

يرتبط بهذه الناحية وعكسها ما قدمه لنا العالمين الاسرائيليين انتونفسكى واريان من تحليل لحقيقه العلاقة النفسية التى تربط المواطن الاسرائيلى بالدولة العبرية ، فى مؤلف لهما مشـــترك صدر فى العام الماضى . ورغم ان النتائج التى وصلا اليها تدعو للتساؤل الا ان الحقيقة الواضحـــه لمتابعة الحياة السياسية فى المجتمع الاسرائيلى تفرض علينا ان نميز بين مستويات ثلاث من مستويات العلاقه بين المواطن والسلطه : رضاه يعنى تأييد او رفض للنظام السياسى او الطبقة الحاكمـــة ، مشاركة اى تفاعل وتعانق حقيقى بين الارادة الفردية والارادة الجماعية فى عملية الصراع السياسى . ثم علاقه ولاء تصور امتدادا للرابطة الروحية التى تربط المواطن بالمفهوم العام المجرد بالدولة :

الدولة كحقوقه فكرية ، او ان هذا النجم السياسي كتجمع حضاري وكقناه من مراحل التطور التاريخي للانسانيه وقد تركزت في وظيفه الشعب المختار . هذه المستويات الثلاث هي بدورها امداد للمفهوم العقيدي العمل السياسي او بعبارة اخرى تأكيد لضرورة التمييز بين الدعايـــة والدعوة بوصف ان كل منهما يخلف علاقه تختلف اختلافا تاما عن العلاقه الاخرى . ان الفهـــم الحقيقي لابعاد السياسة الخارجية الاسرائيليه لايمكن ان ينطلق في هذه اللحظه الا من تحليل طبيعة التعامل النفسي وابعاده كتخطيط مرحلي يمهد ويعد لحركة سياسية . تحديد بهـــذا المعنى ابعاد تلك الدعوة التي برزت واضحة مسيطرة على العمل السياسي الاسرائيلي في اعقاب حرب عام ١٩٦٧ قد يسمح لنا بفهم بعض ابعاد السياسة الخارجية المقبلة . هذه التوقعات لا يمكن ان تنطلق من فراغ انها استمرار لتقاليد ثابته في الحركة الصهيونيه . وهكذا نتابع هـــذه الدراسة في اقسام ثلاث :

(أولا) نبدأ بمتابعة موجزة وسريعة للدعوة كأحد تقاليد الحركة الصهيونيه .

(ثانيا) ثم نعقب بعد ذلك بدراسة محددة لخصائص الدعوة الصهيونية والاسرائيلية عقـــب نصر عام ١٩٦٧ .

(ثالثا) وكخلاصة لهذه الدراسة التاريخية والتحليلية نضع افتراضاتنا وتوقعاتنا بخصـــوص ابعاد الحركة السياسية المقبلة في النطاق الخارجي للدولة الاسرائيلية .

— ١ —

الدعوة وتقاليـــد الحركـــة الصهيونية

٢ — يمكن القول اجمالا بأن الحركة الصهيونية في تاريخها المعاصر تركزت حول واقعتيـــن : الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر وانشاء دوله اسرائيل في منتصف القرن العشريـــن . الواقعه الاولى اخرجت المجتمع اليهودي من مجتمع الجيتو الى المجتمع القومي . لم يعد اليهودي يمثل الشخص المحتقر وانما هو المواطن صاحب الحقوق ، انشاء دولة اسرائيل اخرج اليهودي من المجتمع القومي الى المجتمع العالمي بحيث لم يعد اليهودي يمثل اقلية رغم الاعتراف بحقوقهـــا فهي دائما مجتمع هامشي وانما اضحى ينتمي الى دولة وتمثله اداة حكومية ، تتحدث باسمه في الاسرة الدولية . حول هاتين الواقعتين نستطيع ان نتتبع جميع تطورات الحركة الصهيونية وتطور الفكر اليهودي في ابعاده السياسية . مختلف تقلبات الحركة اليهوديه خلال القرن التاسع عشـــر

لم تكن الا سعيا نحو تحقيق ذلك الذى اخفقت فى تحقيقه من خلال الثورة الفرنسية .

السؤال الذى يفرض نفسه علينا : هل هزيمة ١٩٦٧ تمثل واقعه ثالثة تفصل بين مرحلتين من هذه الناحية؟ ان المتابع للمناقشات الحارة الدائرة فى الاوساط الاسرائيلية وفى المؤتمرات الصهيونيه يفرض على نفسه هذا التساؤل : ترى هل سوف يقدر لاسرائيل فى خلال مرحلة قادمة ان تخرج من محور الدولة القومية ذات السيادة المحصورة فى اقليمها الى الدولة العالمية ذات الفاعلية فى التلاعب فى اطار التوازن الدولى ؟ وهل يرتبط ذلك بمفهوم الوظيفه الحضاريه للدولة العبريه ، مفهوم سابق على وجود تلك الدوله ولكنه لم يقدر له الايفاع الفكرى والتأصيل الحركى والتخطيط السياسى الا عقب حرب عام ١٩٦٧ ؟ ان اسرائيل تحدثنا اليوم عما تسميه بالسلام العبرى فهل هناك علاقة فى هذا المفهوم بين طبقة الانتصار فى عام ١٩٦٧ واستغلال ذلك الانتصار فى عملية خلق الانصار للدعوة الصهيونية؟

كل هذه علامات استفهام يتعين علينا ان نحاول الاجابة عليها بايجاز ودقة من خلال المتابعة التاريخية لنستطيع ان نفهم ابعاد الدعوة الاسرائيلية فى اعقاب هزيمة حزيران .

٣ــ نستطيع فى تاريخ التعامل النفسى للحركة الصهيونيه ان نميز بين مراحل خمس:

المرحلة الاولى : ويمكن ان نسميها بمرحلة الدفاع اليهودى ، مرحلة صهيونيه سابقه على الصهيونية السياسية . هذه المرحلة التى تبدأ اجمالا منذ الثورة الفرنسيه وتنتهى فى نهاية القرن التاسع عشر هى مرحلة دعاية يهودية ، اعدت للدعوة الصهيونيه كحركة سياسية ، قامت على اساس استخدام الادب واعادة كتابة التاريخ كوسيلة من وسائل الدفاع عن الطابع القومى اليهودى . انطلقت الدعوة اليهودية خلال تلك الفتره من تقاليد الثورة الفرنسيه ، حيث نظر الى العمل الدعائى على انه ليس مجرد عمليه توجيه وايهام وانما هو عناق حضارى ومن ثم فهو حقيقه ثقافيه ترتبط ايضا بالتراث التاريخى . العلاقه بين الدعوة اليهوديه السابقه على الصهيونيه خلال تلك الفتره والحضارة الفرنسيه عميقه ومتعددة الابعاد . هذه العلاقه واضحه فى الادب العبرى . فطيلة القرن التاسع عشر نظر اليهود الى الثورة الفرنسيه على انها تماثل خروج اليهود من مصر او نزول للقوانين المقدسة على جبل سيناء . يقول تالمور بهذا الخصوص: " ان فرنسا الثورة اضحت بالنسبه لليهود الوطن الثانى بل واضحت بالنسبه لليهود المتعصبين المؤمنين بقدسيه الروح على المادة ارض الابار الروحية الوحيدة " .

كان من الطبيعي ان يؤدي هذا الى صدام بين الطابع القومي الفرنسي والطابع القومي اليهودي. فالتأكيد على ذاتيه المجتمع اليهودي لابد ان تؤدي الى تميزه وبالتالي الى انعزاله ومن ثم الى صدام مع الطابع القومي الكلي الذي يحايثه. هذا الصدام الذي انتهى بقضية دريفوس المشهورة كان لابد وان يؤدي الى فرض تلك النتيجة: وهي ان الدعاية ليست هي الدعوة. الدعاية التي تتجه الى المجتمع الفرنسي لتحقيق احترامه لليهودي وتعايشه معه ليست هي الدعوة التي تتجه الى اليهودي لتأكيد ايمانه بذاته وتميزه عن غيره بل ورفض الاندماج مع المجتمع الكلي:

المرحلة الثانية: والتي تجعل مطلقها التاريخي كتاب الدولة اليهودية تعلن عن تكامل الحركة السياسية باسم الدعوة الصهيونية. منذ ان وضع هرتزل كتابه عن الدولة اليهودية وبصفة عامة ابتداء من القرن العشرين حتى بداية الحرب العالمية الثانية ظهرت الدلالة الحقيقية للتعامل النفسي بين الحركة الصهيونية والمجتمع الذي تتجه اليه بالخطاب. ان الحركة الصهيونية خلال تلك المرحلة لا تتجه الى المجتمع الجماهيري ولا تريد ان تحصل على التأييد العالمي وانما تسير بحذر وخبث ساعيه نحو مراكز القوى السياسية في العالم المتمدين بقصد الحصول على تقبل شرعية الوجود اليهودي في الامرة الدولية. وهكذا نلحظ كيف ان هرتزل يخاطب الاصدقاء والاعداء بلغة واحدة وهي لغة المصالح. وهو لا يحرف بحد مفهوم الانصار كمفهوم متميز عن اولئك الذين نستطيع ان نسميهم المؤيدين. الوسيلة دائما في كلا الحالين الاقناع. تشويه الطابع القومي العربي لا موضع له وتحليل الطابع القومي اليهودي يتخذ موقف الدفاع ويرفض اسلوب الهجوم والتحدي. انه الرجل الضعيف او صاحب القوى المحدودة الفاعليه التي تريد ان تتعلق بمراكز القوة وان تحصل على تأكيد الشرعيه حتى ولو على حساب نفسها. هذه المرحلة تمركزت فيها الحركة الصهيونية في جنيف. ورغم وجود بعض الاسماء الضخمه التي ساعدت على تأصيل العمل الدعائي للحركة الصهيونيه الا انها محدودة الاهمية في نطاق التحليل الذي نتناوله. على ان ذلك لا يمنع ان نتذكر كيف ان نيومان استطاع ان يدفع بما اسمي لجنه الاعلام العام التي انشئت في عام ١٩٢٩ في امريكا بدفعات قويه وصلت اقصاها عندما صدر الكتاب الابيض في عام ١٩٣٩ حيث استطاعت هذه اللجنه ان تدفع بارسال نصف مليون تلغراف الى البيت الابيض وان تحقق تجمعا ضم ربع مليون يهودي وهو يهتف بالاغنيه التقليديه: اذا نسيتك انت يابيت المقدس فلتصب ذراعي اليمنى بالشلل.

تأتي المرحلة الثالثه والتي تعنينا على وجه الخصوص وهي تلك التي تمتد منذ بداية الحرب العالمية الثانيه وتنتهي بالاعتراف الدولي الصريح بانشاء اسرائيل. هذه المرحلة هي التي عرفت

انتقال الحركة الصهيونيه الى الولايات المتحدة حيث جعلت هدفها خلق تيار قوى من الرأى العام الامريكى يقوده مجلس الطوارئ الصهيونى من خلال مسالك معينه بحيث تتبنى السياسة الامريكية مهمة الدفاع عن شرعيه اقامة دولة عبرية • الصهيونية السياسية وهى تعبر عن حقيقه العصر وحقيقه المجتمع الذى تتفاعل معه وتتفاعل بطلابد ان تجعل اسلوبها يغلف بمنطلق جديد، يستند الى مسالك جديدة • هذه المرحلة هى التى عرفت بوضع عملية التمييز بين الدعاية والدعوة ووضعت الاصول الفكرية للتفرقه بين حقيقه الخطاب الذى يتجه الى خلق الانصار وحقيقه التعامل الذى يؤدى الى تعميق علاقة التأييد •

تأتى عقب ذلك المرحلة الرابعة والتى تمتد قرابة عشرين عاما منذ الاعتراف الصريح بشرعية الوجود الاسرائيلى • خلال هذه المرحلة الهدف من الدعاية يصير اقل وضوحا واقل تحديدا ولكنه أكثر تنظيما واقوى فاعلية الدولة الاسرائيلية تريد ان تحقق الكثير: تأكيد (١) للشرعية، اعتراف قانونى (٢) بالتواجد من جانب الدول التى تنتمى الى المنطقه تقديم (٣) صورة قومية نظيفه لليهودى تصل الى حد الاستحواذ الاعجاب من جانب الرأى العام المتعدين وغير المتعدين • اهداف متسعه ولكن ادواتها اكثر قوة واكثر فاعلية • فالدولة الاسرائيلية لها وجودها الدولى وهى أداة تستطيع ان تتحدث لا فقط فى نطاق رسمى بل وباسم الاقليات اليهوديه فى جميع انحاء العالم • على ان هذا التعدد للاهداف وهذا التنوع فى المشاكل فضلا عن الاضطراب الداخلى فى الحياة السياسيه وعدم وضوح طبيعة العلاقه بين الدوله العبريه واليهود فى الدياسبورا أدى الى تشويه العلاقه بين الدعاية والدعوة • صحيح ان هذا التشويه لم يصل الى اقصاه وانه فى خلال مراحل معينه وضحت بشكل صريح حقيقه التفرقه بين عملية خلق الانصار وعملية خلق المؤيدين • على ان هذه التفرقه لم تبرز واضحه لتعميد التقاليد التى سبق ان وضعتها الحركة الصهيونيه منذ ان انتقلت الى نيويورك فى اوائل الحرب العالمية الثانيه الا فى اعقاب هزيمة ١٩٦٧ •

٤ — فى أوائل الحرب العالمية الثانيه وفى اثناء انعقاد الجلسة الواحدة والعشرين للمؤتمر الصهيونى العالمى فى جنيف وعلى وجه الخصوص فى اغسطس ١٩٣٩ اتخذ قرار حاسم كان له أخطر النتائج • ورغم ان هذا القرار كان مهمشه ظروف مستقله عن العمل الدعائى الا انه دفع بعمليه التعامل النفسى من جانب الدعوة الصهيونيه بخطوات حاسمة • القرارات هو انتشاء لجنة الطوارئ للمشاكل الصهيونية وجعل مقرها الدائم مدينه نيويورك والتسليم لها بأن تقوم بوظائف القيادة

السياسية للحركة الصهيونية مرد ذلك يعود الى عاملين : اهميه اليهود الامريكيون وقد اضحوا مركز الثقل فى الصهيونيه العالميه ، ولكن بصفه خاصه احتمالات القتال فى اوربا ووضح الانتصارات النازية وتوقعات الحرب الطويلة الامد مع قطع الصلات الحقيقيه مع يهود وسط وشرق اوربا دفع بالحركة الصهيونية العالمية الى ان تنقل مركزها القيادى الى نيويورك . وكان من الطبيعى ان تقتنع هذه اللجنه الجديدة بأن واجبها الاساسى هو خلق رأى عام محلى ذا فاعليه ليساند الحركة الصهيونية فى حركتها السياسية على ان العامل الحاسم الذى كان لابد وان يدفع بالقضيه الحقيقيه لخلق الهناء النظامى الذى استطاع ان يقوم بعملية تحويل كامله للرأى العام الامريكى واليهودى فى تلك المنطقه هو الاستقالة التاريخية التى قدمها نويمان فى ديسمبر عام ١٩٤٢ .

يعلن نويمان بمناسبة الاستقالة ان الدعاية الصهيونية لن يقدر لها ان تحقق غايتها طالما ان اللجنة التى تشرف عليها لا تعمد وان تكون تجمعا للخلافات الشخصيه ومن ثم فهى تصوير للتذبذب فى السياسة والحرب . انها ، كما يقول القائد الروحى السابق ذكره ، فى حاجة الى ادارة مركزة ومركزية وعليها ان تضع برنامجا لنشاطها وان تملك ميزانيه قادره على ان تواجه المهمات الخطيرة التى عليها ان تؤديها . هذه الاستقالة وما ارتبط بها من حوادث وما سبقها من فشل وما اعقبها من نجاح هى التى يجب ان تعتبر المنطلق الحقيقى لفهم فلسفه العمل الدعائى الصهيونى بما فى ذلك حقيقه التنظيم الفعال الذى مكن الحركة الصهيونية من ان تحقق اهدافها النفسيه بنجاح وكمال لا موضع للمناقشه فى حقيقته حتى قبل انشاء الدولة الاسرائيلية .

بناءا على الاقتراح المقدم من وايزمان والذى عرض على المنظمه الصهيونيه العالميه فى اغسطس ١٩٤٣ تم اتخاذ قرار مزدوج وضع حدا لحالة الاضطراب وعدم الوضوح التى كانت تسيطر على الجهاز الدعائى الاسرائيلى .

أولا : اعادة تنظيم مجلس الطوارئ للصهيونيه الامريكيه .

ثانيا : اختيار رئيس المجلس الحاخام اباهليل سيلفر يساعده الحاخام "ستيفن وايز" على ان يتولى الاول ايضا رئاسة المجلس التنفيذى .

المجلس الجديد طبقا لهذا التعديل اضحى يتكون من سته وعشرون شخصا يمثلون اللجان التنفيذيه الاربعة للقوى السياسية الصهيونية مع عدد مماثل للشخصيات القيادية المفكرة التى يتم اختيارها بناءا على صفاتهم الشخصية .

تحددت منذ تلك اللحظه اهداف العمل الدعائى بالنسبه للصهيونيه السياسية فى اربعة ابعاد .

ا ـ اكتساب الرأى العام المحلى الامريكى بحيث يصير قوه مساندة للحركة الصهيونية فى النطاق الدولى .

ب ـ القضاء على اى فرقة داخلية من حيث التعبيرات الدعائيه . ان خلافات الاسرة لايجوز ان تخرج من نطاق منزل العائلة أمام المجتمع الخارجى يجب ان تظهر الخليه الاجتماعيه قوه واحده متماسكه لا تنفصل .

جـ ـ الحركة الدعائيه وقد اضحت مركزيه ، مركزة ومتناسقه فمن الطبيعى ان يسهل عليها ان تصير عدوانيه مهاجمه استفزازية ولا تكتفى باتخاذ موقف الدفاع عن القضيه .

د ـ وذلك الى جانب خلق درجة معينة من درجات التضامن مع المجتمع اليهودى الامريكى والحركة الصهيونيه ، اساسا لا فقط الايمان بتلك الدعوة بل والتعصب فى الدفاع عن المبادىء التى تتضمنها العقيدة الجديدة .

الذى يهمنينا من دراسة هذه المرحلة على وجه الخصوص امرين : اولهما طبيعة تحليل طبيعة التخطيط الدعائى للصهيونيه السياسيه ثم ثانيا اولئك المفكرون الذين قادوا هذا التخطيط من خلال اصول فكريه واضحه ومحددة .

٥ ـ تحليل التخطيط الدعائى للصهيونية السياسية خلال الفتره السابقه على الاعتراف الدولى بالدوله العبرية لايمكن ان يكون كاملا ومميزا عن حقيقه التطور الذى اصاب الرأى العام الامريكى خلال تلك الفتره اذا لم نوسع حدود الدراسة ونطلق ابعاد التحليل : مكانا وزمانا وموضوعا .

علينا ونحن نسعى الى فهم كيف نجح اولئك الدعاة ان نقف قليلا وان ننحنى احترافا لا فقط بالقوة والاصاله بل وايضا بالقدره على المغامرة والصلاحيه على سبيل تحقيق الاهداف التى تحددت بوضوح فاذا بذلك المجتمع الممزق يتكتل فى قبضه واحدة تسعى لتؤكد ذاتها وتثبت ان عشرين قرنا من المهانة لم تفعل سوى ان تزيد من تصميم الارادة لتحقيق الرسالة الالهية .

لنستطيع ان نفهم حقيقه هذا التطور فلنتصور شرائح المجتمع الذى كانت تتجه اليه الصهيونيه السياسية بالتعامل والعناق او الاتصال فى اوسع معانيه .

فهناك أولا اليهودى الامريكى : الهدف بخصوصه واحد لا يتعدد . هو خلق المؤمن المتعصب النقى الذى هو على استعداد لان يتخلى عن كل شىء ، ثروته واسرته بل وحياته فى سبيل الارض الموعودة . واذا كان هذا الهدف يمثل الحد الاقصى فهناك حد ادنى للحركة السياسية فى مواجهة اليهودى الامريكى : التأييد المادى والمعنوى الايجابى والمنتظم المستمر الذى لا ينقطع ولا يتوقف .

ثانيا : ثم هناك الامريكى غير اليهودى : وهنا الهدف يختلف ودرجة اتساعه تتنوع . الدعاية الصهيونية تسعى لان تخلق من ابناء المجتمع الامريكى غير اليهودى موجات كاملة لتأييد القضية اوعلى الاقل العطف عليها ، ولكنها لاتقتصر عند هذا الحد بل هى ايضا تتجه الى ابعاد معينه فى خلق فئه من بين تلك الشرائح التى وصفناها بأنها مجتمعات امريكيه غير يهوديه ترتفع الى مستوى التعصب والايمان فاذا بها صهيونيه رغم انها غير يهوديه .

ثالثا : ولكن هذه الدعاية وهى تتجه اصلا الى المجتمع الامريكى لاتنس من هو خارن المجتمع الامريكى وبصفه خاصه ممن آمن بالصهيونيه واضحى بالنسبه للقضيه يمثل الطابور الخامس فى المجتمعات الاوربيه حيث لايزال لتلك المجتمعات اهميتها وقدرتها فى نطاق التوازن الدولى وبالتالى فى صنع القرار السياسى . وهكذا نجد الطبقات والشرائح تتداخل : فاليهودى منه الصهيونى وغير الصهيونى ، والصهيونى منه اليهودى وغير اليهودى ، مستقبل الدعاية منه الامريكى وغير الامريكى ، واذا كان غير الامريكى قد نزل الى المرتبة الثانية من حيث الاهتمام الدعائى خلال هذه المرحلة ، فان غير الامريكى المقيم بفلسطين والذى يقوم بعملية الفاتح الغازى المحارب دون حماية ودون امكانية مواجهة عداوة محلية حقيقيه والتى لايزال العالم لم يكتشف بعد انها عداوه هشه تافهه لاقيمه لها لانها مشهارة على نفسها متخلخلة قد فقدت الايمان بقضيتها ورسالتها فى الوجود التاريخى لايمكن ان تتركه جانب الدعوة الصهيونية .

كل هذا لابد وان يفرض تخطيطا متكاملا .

فما هى العقول الخلاقة التى استطاعت ان تحقق هذه العملية ؟

٦ — عندما نتعرض للتأصيل التاريخى للتعامل النفسى للحركة الصهيونيه وبصفه خاصه خلال هذه الفتره ، فان اسماء ثلاثه لابد وان تفرض نفسها على انها وحدها التى استطاعت ان تضع اصول النجاح الصهيونى خلال هذه الفتره : سبق ان ذكرنا اثنان فى هذا الشأن : نويمان وسيلفر — وعلينا ان نضيف الى جانب هذين الاسمين عالم آخر له شهرة دولية فى نطاق التحليل السلوكى وهو الالمانى الاصل " لوين " فلنتابع فى عجالة سريعه افكار كل من هؤلاء الثلاث :

نويمان قائد صهيونى وصل الى الولايات المتحده وهو طفل وبنذ اعوامه الاولى تعلم اللغه العبريه بل ولم يكن يتحدث فى منزله سوى بتلك اللغه . ولد فى فيلادلفيا عام ١٨٩٣ وبنذ شبابه الاول اشتهرت عنه الحركية حتى انه فى عام ١٩١٠ وهو فى السابعة عشرة من عمره اسس ما سمى بجمعية الشباب اليهودى . اشترك فى المؤتمر الصهيونى اليهودى عام ١٩٢٠ وتدخل طرفا

في الخلاف المشهور الذي تصارع فيه "براند يز" و "وايزمان". في العام التالي نادى باتباع سياسة مناصرة لسياسة هذا الاخير وساهم بشكل جديه في تجميع القوى الامر الذي ادى الى تخلي براند يز عن القيادة خلال عشرة اعوام وحتى عام ١٩٣١ مثل القوى اليهو ديه الامريكيه في المؤتمر الصهيوني بل وانتخب في عام ١٩٣١ عضوا في الهيئه التنفيذيه للصهيونيه العالميه. عقب ذلك انتقل الى القدس حيث رأس ما اسماه "الوكالة اليهودية للادارة الاقتصادية". وفي نفس الوقت قام بتنظيم لجنه امريكيه لفلسطين كانت تكون من بعض اعضاء مجلس الشيوخ ومن بعض كبار المسئولين في الحياة السياسية الامريكية.

كل هذا اوضح حقيقة تصوره للحركه الصهيونيه وهو خلق مسالك واضحه ومحددة الوصول الى مراكز القوى. بهذا المعنى استطاع ان يتغلغل في قادة الرأى في المجتمع الامريكي ولم يقتصر على ذلك. ففي خلال اقامته بفلسطين قام بمفاوضات مع الملك عبد الله امير الاردن وحصل منه على الموافقه من حيث المبدأ على البدء في تنفيذ عملية الاستقرار اليهودي في المنطقه.

على ان ما نميز نويمان على وجه الخصوص هو ضرورة وضع الرجل المناسب في المكان المناسب ففي عام ١٩٤٣ ورغم اسمه الضخم قرر ان ينسحب ليترك الحاخام "اباهليل سيلفر" ليصير رئيسا للجنه الطوارئ الصهيونيه الامريكيه كان يؤمن بأنه خير من يصلح لقيادة العمل الدعائي يمثل الى جواره كصديق ورفيق ومدافع. وعندما اضطر سيلفر الى ان يقدم استقالته في نهايه عام ١٩٤٤ ضغط عليه نويمان ليظل في منصب القيادة في العمل الدعائي واقنعه بالعوده عقب عدة اشهر من تلك الاستقالة. في ١٩٥٤ أنشأ معهد هرتزل ثم مطابع هرتزل واخيرا مؤسسة هرتزل التي تنشر المجله الشهريه بيد ستريم والتي لاتزال حتى هذه اللحظه محور الدعاية والدعوة الاعلاميه في القارة الجديدة.

سيلفر هو الرجل الثاني الذي تدين له الدعوة الصهيونيه بوضع قواعد واصول التخطيط العمل الدعائي الذي اساسه التمييز بين الدعاية والدعوة خلال تلك الفتره. ولد في عام ١٨٩٣ في لتوانيا وتوفي في امريكا عام ١٩٦٣. منذ عام ١٩١٠ ينتمي الى النظام الكهنوتي الامريكي ولكن هذا لم يمنعه من متابعة الدراسة للحصول على عدة درجات للدكتوراه من اكثر من جامعة غربيه واحدة.

عملية العقيقي هو قيادته الواضحه التي استطاعت ان تدر له ان يقود الصراع في امريكا وخارجها في سبيل الاعتراف بدولة اليهوديه خلال وعقب الحرب العالمية الثانية. الخلاف الصارخ بينه وبين الاخرين كان في عدم ايمانه بأن الدبلوماسيه وحدها تستطيع ان تقود الى النتيجه المطلوبه

ان يجب ان يرتجل بها خطط دائم ومستمر من جانب الرأى العام • وهكذا اخذ على عاتقه وهو خطيب ممتاز وشخصيه ديناميكيه ان يكتل الرأى العام الامريكى واليهودى للدفاع عن القضيـــة الصهيونيه • بدأ ذلك فى خطاب مشهور فى ٢ مايو ١٩٤٣ ألقاه امام المؤتمر القومى للدعوة الـى فلسطين المتحدة تضمن هجوما عنيفا على موقف وزارة الخارجية الامريكية وعلى موقف فرانكلين روزفلت • عقب ذلك وفى نهاية نفس العام ألقى خطابا آخر امام المؤتمر اليهودى الامريكى يعتبر احد اهـم خطاباته تضمن تأصيلا واضحا للتفرقه بين الدعوة الصهيونيه المتجه الى اليهودى والدعوة الصهيونية المتجهه الى غير اليهودى ثم الدعاية الصهيونيه المتجه ايضا الى غير اليهودى • عقب انتخابـات روزفلت عام ١٩٤٤ أصر سيلفر على ان ينتزع من الكونجرس قرارا بتأييد الدعوة الصهيونية ضد الادارة الامريكية • ترتب على ذلك الصدام مطالبته بالاستقاله • ورغم ذلك فقد استطاع ان يكتل حوله مجلس الطوارىء الصهيونى وان ينقل الصهيونيه الامريكيه الى مرحلة السياسة النشطه • فهو يحارب اولئك الذين اعتبرهم حذرين فى استخدام النشاط السياسى بجميع صوره • وهو يضع قواعد حركته الدعائيه على اساس مخاطبة جميع القوى حتى انه فى لحظه معينه حصل على تأييد سواء على قادة الحزب الجمهورى وقاده الحزب الديمقراطى •

ظهر نبوغه التكتيلى واضحا عام ١٩٤٦ وذلك عندما اثيرت مشكلة المبادرة بالتسبد لقضيـــة التقسيم • كان رأى سيلفر هو ان الوكالة لا يجوز لها ان تعالج الموضوع حتى تتقدم احدى الحكومات بالاقتراح وعكس ذلك كان فى رأيه خطأ فادحا من الناحية الحركيه • وظل فى موقفه ثابتا حتى عندما خالفه المجلس واضطر الى ان يقدم استقالته ولكن المؤتمر الصهيونى الثانى والعشرين الذى عقد فى بازل عام ١٩٤٦ أيده ومن ثم ظل فى موقعه • وقد اثبتت الاحداث بعد نظره وقوة موقفه مـــن الناحية الدعائيـــة •

وقد عاد هذا النبوغ لتأكد مرة اخرى من خلال تعامله مع بيفن وزير الخارجيه البريطانيه • ذهب الى لندن وعايش الوزير الانجليزى وخرج من مناقشاته الى الاقتناع بأن هذا الاخير ليست لديه نيـه الى انشاء دوله اسرائيليه فى اى بقعه من فلسطين وان الدائره المستديره المقترحه ليست الا احدى مناورات وزارة الخارجيه البريطانيه • وهنا ايضا هذا الخلاف انتصر سيلفر فى مواجهه وايزمان فـــى مناقشات المؤتمر الصهيونى الثانى والعشرين •

على ان النبوغ الحقيقى لسيلفر تجلى فى دعوته للعالم الاشهر لبين بخصوص بناء منطق الدعوة الصهيونيه كعمل دعائى وصياغة اللغه التى يصل من خلالها ان يصل الى قلب اليهودى الامريكى •

٧٠ ليس هذا موضع التفصيل فى دراسة جهود لوين ونظرياته التى استطاع من خلالها ان يقيم البناء الكلى المتكامل لمنطلق الدعاية الصهيونيه . فلوين احد أشهر علماء النفس الذين استطاعوا ان يصبغوا بجهودهم الفكريه الثورة التى نبتت فى الارض الجديدة بعنوان المدرسة السلوكيـــة . ورغم ذلك فان متابعة التأصيل المنطقى والبنيوى اما اسماه لوين عقده النزاهية الذاتية تسمح بابراز الاصول الفكرية التى انطلقت منها ابحاث الحركة النفسيه الصهيونية والتى تدور فى جوهرها حول عملية التمييز بين الدعاية والدعوة فى الحركة السياسية المرتبطة بذلك المذهب .

لوين عالم لعلم النفس والاجتماع اصله المانى ولد فى عام ١٨٩٠ وترقى فى مناصب العمـــل الجامعى حتى وصل الى كرسى الاستاذيه بجامعة برلين عام ١٩٣٢ . فى ذلك العام وتحـــت تأثير توقعات الضغط النازى هاجر الى الولايات المتحدة حيث بدأ حياته الجامعية فى جامعـــة كورنيل ومنها انتقل الى المعهد ذا الشهرة العالمية المعروف باسم معهد ماساشوسيتس للتكنولوجيا حيث انشأ مركز ابحاث وديناميات الجماعة هذا المركز الذى سوف يقدر له فيما بعـــد ان يصل الى جامعة ميتشجان آن اربور ومنه حاليا تشع جميع ابحاث التحكم فى الحركة الاجتماعية .

ابتداء من عام ١٩٣٨ بدأ لوين يهتم اهتماما خاصا بنظرية الشخصية وصفه معينة من حيـــث علاقتها بمشاكل الجماعة وما يتصل بالاطار الجماعى والحركى . وهكذا من خلال مراحل متعاقبـــة استطاع ان ينقل بمفاهيم الكليات الديناميكية والمجال الحيوى الى نطاق تحليل الحركة الاجتماعية . نظريات لوين كانت حتى تلك اللحظه اى عام ١٩٣٨ اجمالا تقف مجردة دون غاية حركية محـــددة . وكان الالتقاء بين لوين وسيلفر هو نقطة البداية فى دفع المفاهيم الاكاديمية المطلقة لنظرية لوين نحو الحركة الصهيونية . تجلى ذلك بشكل واضح فى المؤلف الاشهر الذى كتبه لوين فى آخـــر حياته بعنوان " حل الصراعات الاجتماعية " والذى صدر فى عام ١٩٤٨ اى عقب موت صاحبه بعـــام تقريبا . فى ذلك المؤلف نستطيع ان نجد الاصول الفكرية لعملية بناء المنطق الدعائى اليهـــودى فى اهم عناصره اى فى تلك العناصر المرتبطة بالدعوة العقيدية .

المشكلة التى كانت تواجه سيلفر تدور حول موقف زعماء اليهود فى امريكا وخيانتهم للقضية الصهيونية . وكان ذلك يمثل بالنسبه له نقطة ضعف خطيرة : كيف يتجه الى الرأى العام الامريكى بالدعوة الـــى المساندة والرأى العام اليهودى اى ذلك الرأى العام المفترض فيه ان يكون خلفيه من الانصـــار يشكك فى تلك الدعوة . وكانت هذه الحقيقه اكثر وضوحا فى زعماء الاقلية اليهودية . طلب من لوين

دراسة المجتمع اليهودى المعادى للصهيونية . ثم فى لحظة تالية كان على لوين ان ينتقل لحظة الى الامام بالدراسة الميدانيه والتجريبية للقيادات اليهوديه التى تعمل على العداء اليهودى للصهيونية السياسية . الابحاث الميدانية المتعلقه بذلك تمت فى معهد ماسوتس حيث استدعاع لوين ليمثل مؤازرة له ان يؤجل ما اسماه فكرة الكراهية الذاتية والتى يستخلص منها مدلولا لبحثها كانت اساسا للحملة العنيفة التى تولى مجلس الطوارىء الصهيونى شنها على خصومه من اليهود .

لنستطيع ان نفهم هذا المدلق علينا ان نتذكر حقيقه اليهود غير الصهيونية فى المجتمع الامريكى . ابحاث لوين ابرزتهم من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ينتمون الى حالة معينة من اليسر والرخاء . هذا الوضع الاجتماعى فى اغلب الاقليات يثير ظاهرة جذبت اهتمامات العالم المذكور : وهى الرغبة فى الابتعاد عن الاقلية التى ينتمى اليها الفرد ومحاولة الاندماج فى المجتمع الكلى ولو على حساب الولاء لمجتمع الاقليات . الشخص الذى ينتمى الى الاقلية ولكنه يحقق نجاحا اقتصاديا واجتماعيا يوصف بأنه مواطن حدى بمعنى انه رغم نجاحه لا يستطيع ان يستوعب استيعابا كاملا فى المجتمع الكلى . يصير بهذا المعنى وهو ممثلا لما يسمى بمجتمعات الضواحى : مجتمع مغفل متحجر معقد يخضع لتصورات متناقضة لا يمكن ان تؤدى الا الى صورة من التمزق . وهكذا تبرز واضحة فى ذلك المجتمع اولا الصفات العدوانية والاستفزازية . السلوك الاستفزازى يقصد به فى اوسع معانيه تلك الصورة من صور التصرف حيث يسعى الفرد الى افتعال حالات التأزم أو حيث يكون رد الفعل غير متناسب فى ثقله مع المنبه مصدر تحريك القوة نحو الحركة . هذه الصفات العدوانية قد تنعكس ضد المجتمع الاصلى الذى ينتمى اليه المواطن اى مجتمع الاقليات وقد ترتد نحو نفسه وهكذا فان عملية الانتماء أو الولاء نحو مجتمع الاقليات تكون بالنسبه له مصدر الكراهية والتعذيب . وقد رعدم قدرته وعدم نجاحه فى القضاء على جميع الفوارق التى تفصله عن المجتمع الكلى والتى تمنعه ولو نفسيا من الشعور بانه قد اكتمل فى نجاحه الاقتصادى والاجتماعى بقدر ازدياد عمق هذه العقدة وازدياد تشعب مظاهر تلك الكراهية . الناحية الثانيه المرتبطة بهذه الظاهرة تدور حول السؤال التالى : كيف يتصرف هؤلاء الزعماء اى زعماء الاقليات فى علاقتهم بالدوائر الاجتماعية التى يتحركون فى اطارها ؟ لقد رأينا ان زعيم الاقليه او الاقل رجل الاقليه الناجح اقتصاديا واجتماعيا يدور فى اطارين ويتحرك فى مجالين : المجتمع الكلى الذى يسعى الى غزوه والذى يقف منه أى هذا الاخير موقف الرفض عند حدود معينة اجتماعيا واقتصاديا فى آن واحد فى اغلب الاحيان . ثم مجتمع الاقليات الذى اليه ينتهى وبه يرتبط من حيث الاصل

والتكوين . وذلك الى جانب ذلك المجتمع الضيق الذى نستطيع ان نسميه بمجتمع الاقليات المذدهر والذى اليه ينتمى بحكم الواقع وجهوده فى الارتفاع عن مستوى الاقليات العام .

السؤال الذى اثاره لوين وحاول ان يعالجه هو الاتى : ما الذى يحدث من جانب هؤلاء الذين ينتمون الى ذلك المجتمع الضيق سواء فى علاقتهم بمجتمع الاقلياء سواء بالمجتمع الكلى ؟ يقول لوين والاحصاءات تدعم ملاحظاته ان هؤلاء الافراد يسعون الى اتخاذ مراكز القيادة فى مجتمع الاقليات . وهم بذلك يحققون هدفين فى آن واحد : يحققون من جانب نوعا من الاحلال لاخفاق فى المجتمع الكلى بنجاح آخر فى المجتمع الفرعى او فى مجتمع الاقليات . وهم من جانب ثان يستطيعون من خلال هذه القيادة التى يمكنهم من تنمية علاقات التعايش والتفاعل بالمجتمع الكلى ان يخاطبوا هذا الاخير من خلال مركز القوه بوصفهم ممثلين لمجتمع الاقليات .

كيف استطاع لوين ان يستغل هذه الظاهرة فى العمل الدعائى ؟ سؤال يجب ان نتناوله بشىء من التفصيل لانه كما سوف نرى سوف يكون منطلقا للدعوة الصهيونية فى خلال الفتره التى سوف تعقب احداث عام ١٩٦٧ .

٨ — اليهودى الذى يصاب بهذه العقدة يصير غير صالح لان يمثل المجتمع الذى ينتمى اليه : هذه هى النتيجه التى وصل اليها لوين . وبقى ذلك بعبارة اخرى ان زعماء الاقليات اليهودية فى المجتمع الامريكى لا يصلحوا لقيادة الاقليات اليهودية . لماذا ؟ يجيب على ذلك لوين بقوله : ان هذا الشخص يكره نفسه ومن خلال تلك الكراهية ورغم انه لا يعترف بذلك يكره المجتمع الاصلى الذى ينتمى اليه . بل انه بطريقه لا شعورية يرى فى ذلك الانتماء العقبة الحقيقية التى تمنعه من تحقيق الذات الفردية . والنتيجة ان هؤلاء القادة غير صالحين ان يعبروا ايجابيا عن الرغبات والاهداف التى يعيشها مجتمع الاقليات وبالتالى فهم غير صالحين لان يشعروا بالاحاسيس التى تسيطر على المجتمع اليهودى . انهم لا يمثلون ذلك المجتمع بل انهم نموذج واضح للخيانة اللاشعورية ضد قضية ذلك المجتمع .

ابتداء من هذا المنطلق الفكرى بدأت تتردد على الالسنة عبارات ذات دلالات واضحه : التهرب من اليهوديه ، الكراهية الذاتية ، الخيانه اللاشعورية .

يقول لوين تحليلا لهذه الظاهرة : " اذا كان يقصد مثل هذا اليهودى — ينتمى الى مجتمع صغير فهدلا من ان يعمل على تحقيق اهداف ذلك المجتمع اذا بصراع خفى بينه وبين المجتمع الذى ينتمى اليه اى مجتمع الاقليات ينشب بل ويسيطر عليه اتجاه ثابت نحو ترك والتخلى عن ذلك المجتمع .

معاداة السامية المعروفة بقوتها بين بعض اليهود هي تعبير واضح عن كراهية بعض هـــؤلاء الامراء اليهود الى الانتماء الى المجتمع اليهودي . في اغلب الاحيان اكثر القادر امتيازات فـــي داخل المجتمع الذي لا يملك امتيازات او اولئك الذين عدفهم الحقيقي الخفي هو ان يحبروا الخط الفاصل بين مجتمع الاقليات او المجتمع الكلي هم الذين يجدون انفسهم في ذلك المركز الـــذي يصفه علماء الاجتماع بكلمة الرجال الجديون .... هؤلاء الافراد وقد استطاعوا ان يحققوا مركزا اقتصاديا واجتماعيا مرضيا بين غير اليهود ، كل ما يعنيهم هو الاحتفاظ بالوضع القائم ومن ثـــم ايقاف اي حركة من الممكن ان تثير انتباه غير اليهود . وهم لذلك قد تعودوا ان ينظروا الـــى الوقائع اليهودية من خلال نظرة المعادين الى السامية لانهم يخشون تهمة ازدواج الولاء فـــي حالة ما اذا اثيرت اي حركة يهودية ".

ولتأكيد هذه الملاحظات التجريدية والتي استطاع لبين ان يستخلصها من ابحاثه التجريبيه والعملية يقدم لنا بعض الوقائع المعبرة عن هذه الحقيقة ومن بين الوقائع التي يذكرها على وجـــه الخصوص ما حدث عندما اثيرت مسألة تعيين احد قضاه المحكمة العليا الدستوريه من بين اليهود . فان اول ما نبه الرئيس الامريكي الى خطورة مثل هذا التصرف هم من زعماء الاقليات اليهودية .

ابتداء من هذا التحليل ومن خلال المفاهيم التي صاغها لبين بهذا الخصوص انطلقت ابواق الدعوة الصهيونيـــة .

-٢-

الدعاية الصهيونية وهزيمة حزيران

٩٠- في غير هذا الموضع بوضح ابوزنا عناصر المنطق الدعائي الاسرائيلي خلال الفترة السابقة على هزيمة يونيو وكذلك قمنا بالتحليل الميداني الذي سمح لنا باكتشاف المداخل الفكرية للدعاية الصهيونية وكان اهم مالاحظناه بخصوص هذه الفترة هو عدم وضوح التفرقة بين الدعاية والدعوة. هذه التفرقة عادت لتبرز مرة جديدة عقب عام ١٩٦٧ وبصفة خاصة عقب انتخابات الكنيست السابع عام ١٩٦٩. على اننا اذا اردنا ان نحلل هذه الناحية الاخيرة التي تعنينا على وجه الخصوص لكان علينا ان نبدأ بدراسة موضوعية تحليلية ولو موجزة للاطار العام للحركة الاعلامية من جانب الدولة العبرية في اعقاب النصر المذكور.

اذا انتقلنا الى هذه الفترة وحاولنا القيام بعملية المتابعة فاننا لابد وان نصطدم باكثر من صعوبة واحدة. فالعالم العربي قد استيقظ ولكن يقظته لا تعبر عن حياة وفاعليته. واسرائيل بلغت اقصى مراحل قوتها ومن ثم لابد وان ترتكب اخطاء والنصر العسكري في ذاته خير حجة دعائية لتقوية مركزها الاعلامي ومساندة حججها المنطقية ولكن لابد وان يعرضها وكما حدث فعلا لقصور النجاح. ثم تأتي كل هذه العناصر فترتبط بحقيقة ثالثة وهي ارتباط المشكلة بالصراع الدولي في المنطقة وهكذا لن تعد الحرب الدعائية بين منطق اسرائيل يسعى لاثبات وجوده ومنطق عربي لا يعرف كيف يدافع عن نفسه وانما مشكلة توازن عالمي يرتبط بالاوضاع السياسية المتحركة في المنطقة.

كل هذا يزيد من تعقيد مشكلة تحليل الدعاية الاسرائيلية في اعقاب عام ١٩٦٧. ولعله من المؤلم ان نلاحظ كيف ان جامعة الدول العربية لم تحاول حتى الآن القيام بأي دراسة علمية حقيقية وجادة بهذا الشأن. والدراسة العلمية في هذا النطاق لا يمكن ان تكون الا ميدانية مستندة الى اساليب التحليل الوصفي والقياسي الكمي. ورغم اننا لم نكتمل بعد دراستنا بهذا الخصوص الا اننا نستطيع ان نقدم تحليلا للتصور العام للسياسة الاعلامية الاسرائيلية في نواحي ثلاث:

أولا : تطور المنطق الدعائي الاسرائيلي.

ثانيا : اسلوب الجوقة في عملية الاتصال الاعلامي

ثالثا : الدعوة وموضعها من عملية الاتصال الخارجي في السياسة الاسرائيلية.

الناحية الاولى تحكم حقيقة التطور العام للمنطق الدعائي الاسرائيلي وكيف انه لا يزال يسير في اطار متناسق بدايته الاولى في قلب القرن الثامن عشر وخطه العام لا يزال متماسك لم ينفصل

الناحية الثانيه سوف تقدم لنا نموذجا واضحا لكيف استطاعت اسرائيل ان توفق بين دعايتها الخارجيه وعملها السياسى الدولى المتصل بربط المصالح العاطفيه ابتداءا كخطوة اولى سابقه وسبقه على عملية ربط المصالح الاقتصادية بما فيها الحركية .

الناحية الثالثه والاخيره تعهد الينا صورة او نموذج التطور العام للحركة الصهيونية خلال الفتره السابقه على وجود اسرائيل وعلى وجه الخصوص تلك الفتره التى سبق وحددناها ان تمتد منذ انتقال القيادة الصهيونيه الى نيويورك حتى الاعتراف الدولى بالدولة العبرية .

١٠ — أول ما نلاحظه على تطور المنطق الدعائى الاسرائيلى هو ظهور نماذج جديدة من المنطق العام المتصل بالابعاد الانسانيه للقضيه الصهيونيه . سبق فى غير هذا الموضع ان اخضعنا هذه الناحية بالنسبه للفتره السابقه على عام ١٩٦٧ لتحليل متداول . وقد رأينا ان احد المداخل الفكرية لصياغة المنطق الدعائى الاسرائيلى هو ما اسميناه الحقيقه الانسانيه التى تستتر خلف الوجود اليهودى . محور هذا المنطق هو ان الحضارة الاوربية التى قامت على مبدأ المساواة لم تتردد ان ترفض ذلك المبدأ بالنسبه لليهود رغم انها اعترفت به بالنسبه لجميع الاقليات الاخرى ورغم تفضل اليهود على الحضارة الاوربية . وموقف التقاليد الاوربيه من التعصب ضد السامية لا يمكن فى الواقع ان يجد له تفسيرا اخلاقيا . وقد استطاعت الدعاية الاسرائيلية ان تستغل هذا المنطلق فى قدائفها الاعلاميه جاعلة من هذه الحجة اساسا لخلق الشحنه الانفعالية المتجددة بعقده الذنب والخالقه لنوع من التعاطف مع القضية الصهيونية .

فى اعقاب عام ١٩٦٧ بدأت تظهر نماذج جديدة المنطق مرتبطة شكليا من جانب الصياغة الاسرائيلية بذلك المدخل الذى سبق وحددناه وهو الابعاد الانسانيه للوجود اليهودى . هذه النماذج رغم انها تبدو لاول وهله استمرار لذلك المنطق التقليدى الا انها لو اخضعت لعملية تحليل عميقة لاستطعنا ان نبرز ما تتضمنه من تناقضات ليس فقط مع الحقيقه ولكن وصفه اساسيه مع نفس المدلول المنطقى للدعوة الصهيونية سواء فى صياغتها كما عرفناها خلال الفتره السابقه على حرب عام ١٩٦٧ سواء فى تقاليدها المرتبطة بحركات التحرير والقوميه خلال القرن التاسع عشر . لا تعنينا هذه الناحية الاخيرة لانها تخرج عن نطاق هذا التحليل ولكن يكفى ان نقدم هذه النماذج لنناقش على ضوئها حقيقه التطور العام الذى اصاب المنطق الصهيونى .

أول هذه النماذج يدور حول العلاقة بين الدين الاسلامى والدين اليهودى ، ففى تقاليدها السابقه حاولت الدعاية الصهيونية ان تقدم كلا الحضارتين على أنهما تعبير عن حقيقة تاريخية واحدة وعلى ان العلاقة بين الدين اليهودى والدين الاسلامى هى علاقة انسانية ترتفع عن مستوى النزاع او الصراع بين الاجناس وصل بها الامر الى ان احد دعاتها وهو المؤرخ "تورى" اصدر كتابا قبل الحرب العالمية الثانيه بعنوان "التأسيس اليهودى للاسلام" يحاول من خلاله ان يثبت الاصول اليهوديه لا تقل للحضارة الاسلامية بل ولنفس التشريعات المحمدية ، عبر عن نفس المفهوم روزنتال فى كتابه الاشهر عن الفكر السياسى الاسلامى فى خلال العصور الوسطى ، وكلاهما يصل به الامر ان يقرر بأن القواعد اليهوديه كانت مصدرا تنظيميا للحضارة الاسلامية وانه فى بعض الاحيان فان التقاليد اليهوديه هى وحدها التى تشبهت بها التقاليد الاسلامية الاصيلة فى اعقاب ١٩٦٧ سوف يختفى هذا المنطق وسوف نجد تصويرا آخر اساسه التأكيد على التفوقه فى الاصول العقيدية بين الدين الاسلامى والدين اليهودى ، الدعاية الصهيونية سوف تجعل عملية التقارب لا تمحو الدين الاسلامى بل تمحو الحضارة المسيحية لتأكد ان هذه الاخيرة مستمدة وانها تمثل استمرارا فى حقيقتها التطورية مع الدين اليهودى ، فكرة الانتماء الى الحضارة اليهوديه بالنسبه للتقاليد المسيحية تصير من جانب الدعاية الاسرائيلية فى اتجاهين : اتجاه ايجابى بمعنى الاستمرارية التى لا تنقطع والواحدة فى المفاهيم والتعاليم وعدم الانتماء بالنسبه للحضارة الاسلامية حيث نجد التوازن دون التقاطع او التقابل بين تلك الحضارة اى الحضارة الاسلامية وذلك الدين اى الدين الاسلامى مع اى مفهوم آخر يهودى او كاثوليكى فى اى بعد من ابعاده الدينيه ،

وانطلاقا من هذه البوتقه الفكرية الجديدة نجد ان الدعاية الاسرائيلية تؤكد على حقائق معينه :

أولا : هى تردد دائما ان التاريخ لم يعرف التقابل بين الشرق والغرب كما يعرفه ، اليست الحروب الصليبيه ، ثم موجات الغزو التركى كافية ان تؤكد ذلك ؟ ثم هل وفقت فرنسا رغم كل ما فعلته فى شمال افريقيا ان تخلق اى صورة من صور التقارب الحقيقى مع ذلك المجتمع والذى يجعله اقرب الى حضارة البحر الابيض من الحضارة العربيه ولكنه مع ذلك يحمل طابع ويتشبع بمفهوم الوجود الاسلامى ؟ وهكذا نجد ان الدعاية الاسرائيلية قد وجدت بذورا معينه من الكراهية الدفينه والشعور بالمرارة من جانب المجتمع الاوربى وصفه خاصة المجتمع الفرنسى : فالهزائم المعروفه وصفه خاصه الصفحة التى لم تختفى بعد من الاذهان والمتعلقه بطرد الفرنسيين من شمال افريقيا مع فصولها

المتتاليه والتى انتهت بمعركة سيناء عام ١٩٥٦ لابد وان تقدم للدعاية الصهيونيه جرائم قيمة لنقل العدوى الفكرية •

ثانيا : وقد استتبع هذا النوع من التطور فى احدى جزئيات المنطق الدعائى الاسرائيلى انها تخفف حديثها عن فضل النبوغ اليهودى على المجتمع الغربى لتؤكد من ناحية اخرى ان هناك ارتباط روحى ومتابعة تاريخية فى العلاقة بين التراث المسيحى والتراث اليهودى • تتساءل الدعاية الصهيونيه : من يستطيع ان ينكر ان التراث المسيحى هو استمرار واستعداد للتراث اليهودى ؟ ان كلاهما ما هو الا تأكيد لعالمية مبادىء معينة وحقائق واحدة والارتباط التاريخى اقوى من ان يتحدد من انه مجرد علاقة صراع لانه فى حقيقته هو نوع من انواع التوالد الذى كان لابد وان يبرز بعض مظاهر التناقض ولكنه تناقض يعكس حقيقه الوحدة المطلقه التى تربط بين كلا الصورتين من صور الوجود الغربى •

ثالثا : وتبلغ القمه عندما تنتهى الى تأكيد ان كل تجريح للتراث اليهودى هو انكار وانقاص للتراث المسيحى • وهكذا وابتداءا من هذا المنطلق تتحدث الدعاية الصهيونية عن تبرأة اليهود من دم المسيح وتجد انصارا لمنطقها من بين رجال الحضارة المسيحية وبصفه خاصة الطوائف غير كاثوليكيه وهنا تتلاعب بحقيقه معينه وهى ان الطوائف غير الكاثوليكية وبصفه خاصة البروتستنت ليست الا تفسيرا متميزا للتعاليم المسيحية • لماذا لا تكون اليهودية بهذا المعنى نموذجا آخر ولكنه سابق ومقدم للمسيحية ؟

١١ • — هذا التصور الجديد كان لابد وان يضعف منه ما سبق ورأيناه فى الدعاية الاسرائيلية قبل عام ١٩٦٧ من التأكيد المستمر حول عقده الذنب والتى جعلت منها اسرائيل احد منطلقاتها المترتبة والمتبلورة حول المنطلق الانسانى فى تأصيل الدعوة الصهيونية • عقدة الذنب التى خلفتها الدعاية الاسرائيلية وتطورتها الى اقصى مراحل القوة فى عمليه التهكيت والتذكير بالخطيئه فى بعدين : احدهما تتجه به الى المجتمع الاوربى والاخر تتجه به على وجه الخصوص الى المجتمع الالمانى اذا بها تختفى لتتحول الى نموذج جديد من نماذج خلق التوتر النفسى لاستقلال عملية الشحن العاطفى منطلقا لسلوك جديد • هى لم تعد تتحدث عن عقدة الذنب وان تحدثت عنه فبأسلوب مخفف يبرز ويختفى دون تضخيم او تقويمة • ان خطيئة الامس قد اختفت وقدمت لما نستطيع ان نسميه عقدة المسئولية •

ما معنى عقدة المسئولية ؟

تذكير الفرد بأنه بحكم وضعه وحضارته، بحكم صفات القياديه وتاريخه القديم والحديث يتحمل عبئا يفرض عليه حركة ايجابيه اكثر مما يبدو ومن خلال قدراته وامكانياته اسرائيل تستغل هذه الناحية لتذكر الاوربى بأنه مصدر الحضارات وانه مسئول عن تطور الانسانيه وان هذا يفرض عليه عملا ايجابيا يعكس عظمته التاريخية ويؤكد حقوقه المشروعه فى المنطقة . وهى بهذا الشكل تحقق اكثر من غاية واحدة فى وقت واحد :

أولا : تتجنب التوتر الذى كان لابد وان يحدث نتيجة لاستمرار التأكيد على عقدة الذنب، بعبارة اخرى تتجنب عملية الضغط النفسى المستمر فى اتجاه واحد لو ظلت تركز على عقدة الذنب وهو أمر ما كانت تستطيع ان تستمر فيه الى مالانهايه ومن ثم تستبدل بعقدة الذنب عقدة اخرى من نوع جديد : عقدة لا تتضمن اثارة ولا تهكميا وانما تقويه والتحلم اساسه التلاعب بالمشاعر الحساسه . وهنا يجب ان نلحظ ايضا انها عقدة اكثر تعبيرا عن حقيقه الموقف فالاتجاه العام الاوربى فى هذه اللحظه وهو محاولة الاستقلال عن القوى الكبرى تتفق وتتجانس مع تأكيد هذه الصورة الجديدة من صور الشعنات الانفعالية .

ثانيا : وهى استنادا الى هذه العقده تخلق نوعا من التملق . للرأى العام الاوربى اذ تشعره انه لايزال سيد الموقف وانه لايزال يستطيع ان يتحرك وانه صاحب الكلمة النهائية فى منطقه خطرة . الصراع فيها له طابعه الدولى الواضح . على انها تعلم ان هذه الدعاية تخالف الى حد ما سياستها الخارجية التى اساسها رفض تدخل القوى الكبرى فى فرض الحلول لتصفية الموقف فى منطقة الشرق الاوسط فانها تخلف منطقها الدعائى بفكرة تعانق الارادات : ان الوصول الى حل لاى مشكلة يجب ان يعنى تعانقا بين الارادات المسيطرة على تلك المنطقه . ومنطقه الشرق الاوسط اصبحت تقابلا به ارادات ثلاث : اوربية ، ثم ارادة اسرائيلية واخرى عربية . تقابل هذه الارادات هو الذى سوف يسمح بالتخلص من حالة التوتر وهكذا تحقق اسرائيل اهدافا متعددة فى نفس اللحظة : هى تظهر بمظهر الدولة المسالمة وهى تفرض بهذا المنطق على الدول العربية ضرورة التسليم بالجلوس معها على مائدة المفاوضات وهى تقدم نفسها على انها الوسيط الذى لاغنى عنه لخلق حلقه الاتصال بين الارادة الاوربية والارادة العربية . وهكذا تحفظ دائما لنفسها خط الرجعة .

١٢- على انه لا يجوز لنا ان نتصور ان المنطق الدعائى الاسرائيلى قد تغير تغيرا جذريا فهو من حيث حقيقته لا يزال منطقا مهجوسا . ان اسرائيل لا تزال تؤمن بأن خير دعاية هى تلك التى تخلف موقف الهجوم والذى قد يصل بها فى بعض الاحيان الى حد خلق حالة الاستفزاز . هى تصل الى تلك المرحلة اى مرحلة الاستفزاز والعدوانيه فقط فى صيف عام ١٩٧٢ عقب زيارة جولدا مائير الى فرنسا وايطاليا ولكن الخط العام للمنطق الهجومى سابق على ذلك التاريخ بل يعود بنا الى عام ١٩٥٦ .

ولذلك :

أولا : هى تؤكد بطريق خفى وفى جميع اصطلاحاتها المتداولة على الفصل بين مصر وسيناء . وهم ان هذه الحجة كانت متداولة قبل حداث ١٩٦٧ ، عبر عنها بشكل واضح حديث بن جوريون مع جريدة الفيجارو الفرنسيه الا ان ذلك اضحى قاعده صريحه فى حديث جميع المسئولين . فمصر تنتهى عند قناة السويس لا فقط اليوم بل كانت كذلك منذ اقدم العصور . ان سيناء تمثل وجودا عضويا مستقلا اقليميا وجغرافيا : كان كذلك وسوف يظل كذلك لان الطبيعة خلقت منه منطقه منعزلة تملك خصائصها الجغرافية . وهنا نجد اسرائيل تستغل بعض الحقائق التاريخيه والديموجرافية تأكيدا لمنطقها : شبه جزيره سيناء لم تنتمى اداريا لمصر فى فترات معينه وهذه حقيقه لا موضع للشك فى صحتها . ثم تأتى الحجة الاخرى الاكثر قوه وهى ان سيناء لم تعرف سكانا مصريين . ان اسرائيل تتساءل بخبث وتردد اين المصريون الذين يقيمون او اقاموا فى تلك المنطقه ؟ اليسوا هل هذه المنطقه يختلفون اختلافا كليا عن وادى النيل ؟

ثانيا : كذلك فان اسرائيل لا تنسى عملية تأكيد الطابع القومى . لقد سبق ان رأينا فى دراستنا الخاصة بتطور الدعاية الاسرائيلية حتى عام ١٩٦٧ كيف كان احد اهداف تلك الدعاية الثابته منذ بدايتها عملية ازالة الصورة المشوهة للطابع القومى اليهودى . على انها عقب ان اخضعت هذه الصورة لعملية تنظيف جانبيه منذ انتقلت الى مرحلة تأليه الطابع القومى . فى اعقاب عام ١٩٦٧ نجد ان المنطق الدعائى الاسرائيلى وقد انتقل الى مرحلة هجوم كلية شاملة بلغ حد تأكيد ذلك الطابع وتقديمه على انه صورة الشعب المختار صاحب الوظيفه التاريخية وهنا تبرز ناحية من نواحى الاخفاق فى الدعاية الاسرائيلية . فيقدر نجاحها فى تحويل عقده الذنب الى عقدة المسئولين بقدر اخفاقها فى عمليه تحويل الدفاع عن الطابع القومى اليهودى الى تأليه كذلك الطابع . يبرز هذا التأليه فى بعض الاحيان الى حد المبالغة الواضحة التى لابد وان تخلق حالة من حالات

التوتر من جانب الجمهور المستقبل • لقد بلغ الامر بمحترفي الدعاية لان يذكرنا ان الرب هو اليهودي وانه انما اختار الشعب اليهودي كتحقيق وانبثت الحضارية لاعجابه بهذا الشعب فاذا به يتصاعد — اي الآله — ليسر خلف الوظيفه الحضارية التي انتدبها الشعب اليهودي بارادته وملابساته •

لو ان الدعاية الحربيه كانت على قسط من الغوه او الذكاء فكم كانت تستطيع ان تستغل مثل هذا المنطق لهدم جميع عناصر البنيان الفكري للدعوة الصهيونيه •• ؟ ولكن هل من مستمع •

الناحية الهجومية تبرز في موضع آخر رغم انه قد يبدو لاول وهلة منطق سلمي الا ان في الواقع من حيث جوهره يسير في نفس الاتجاه • وذلك عندما تصف حرب عام ١٩٦٧ بانها حرب من اجل السلام ولتحقيق الطمأنينه والسلام في المنطقه •

لنستطيع ان نفهم هذا المنطق علينا ان نعود الى تذكر حقيقه حرب الايام الستة لواقعيه وكي تتعانق وتتعانق مع المنطق الدعائي • فذلك الصراع بأبعاده المعروفه وعقب ان وضحت اغلب الحقائق المرتبطه به كان لابد وان يؤدي الى انفجار ذاتي لبعض عناصر المنطق الدعائي الاسرائيلي السابق على الصدام العسكري • ويبرز ذلك واضحا من النواحي التاليه :

(ا) فالاسطورة التي كانت تقدم اسرائيل على انها شعب ضعيف محاط بحرب يحملون لاهلها العداوة وينتظرون اللحظه المناسبة للقضاء على هذا الشعب البائس قد انفجرت من اساسها اذ ظهر للعالم فجأة ان يهود اسرائيل جند محنكون يملكون اداة عسكرية مخيفة •

(ب) كذلك فالاسطورة التي كانت تردد ها اسرائيل في كل مناسبه ان جميع العرب مسلمين اذا بها تنهار واذا بالرأي العام العالمي فجأة يكتشف ان البلاد العربيه تعرف اقليات ضخمة تنتمي الى جميع الاديان بما في ذلك الديانه الكاثوليكيه بكل والديانه اليهوديه • بل واكتشف الرأي العام ان دوله كليتان • وهي دولة عربية • تتحكم في سياستها قوى مسيحيه لا يستهان بها •

(جـ) كذلك اسطورة ان الحرب اعداء لليهود وانهم يحدون عن عداوه تقليديه لم تنقطع كان لابد وان تنفجر بدورها • هذه الاسطورة اختفت او كادت لان الحوادث كان لابد وان تثير السؤال التالي : لماذا لم تمثل اليهوديه مشكله سياسية في تاريخ المجتمعات العربية والاسلاميه ولماذا لم تفرض نفسها الا خلال القرن التاسع عشر وعلى وجه الخصوص في غرب اوربا ؟ اليس هذا نتيجة لازمة لظهور الدولة القومية وليده التقاليد الغربيه وليس هذا وحده هو الذي فرض المشكلة وهو الذي ابرزها وبلور معالمها ؟ واليست المشكله اليهوديه نتيجه اخفاق المجتمع اليهودي في ان

يوفق بين بقائه اقليه واندماجيه فى المجتمع الحديث الذى فرضته فلسفه الدوله الوطنية .

الدعاية الاسرائيليه لتصيد التوازن الذى فقدته نتيجة هذه الانتكاسة راحت تركز على تقديم ذلك الصراع العسكرى بأنه من جانب حرب فرضت عليها من جانب العرب ولم تشعر هى البها ، ومن جانب آخر على انها حرب فرضتها الظروف لتحقيق السلام وللوصول بتلك المنطقه الى حالة من الطمأنينه والاستقرار . من اهم الكتب التى خرجت تدافع عن القضيه الاسرائيليه ساعيه لاستحوار الرأى العام الامريكى مؤلف صدر فى اوائل عام ١٩٦٨ بالعنوان التالى : " حرب اسرائيل من اجل السلام " نشره الامريكى هالبرن فى صورة مجموعة من الخطابات التى كان يكتبها الصحفى الاسرائيلى بن آدى مراسل الجريده المشهوره جيسرا جورازليسم بوست صديقه الامريكى خلال فتره القتال وعلى وجه التحديد ابتداء من ١٨ مايو حتى ١٩ سبتمبر ١٩٦٧ يعرض فيها تفصيلا لحالته النفسيه خلال تلك الفتره بحيث يجعل القارىء يخرج من تلك الصفحات وهو يتساءل .

لماذا فرض القدر على هذا الشعب ان يقاتل دفاعا عن نفسه وهو لا يريد سوى الحياة الهادئه المسالمة . ولماذا يفرض عليه جيرانه ان يمسك بالسلاح ويدافع عن حقه فى الحياة ؟

١٣ — الناحية الثالثه من نواحى المنطق الاسرائيلى التى تبرز واضحة صريحه وتبلغ فى بعض الاحيان حد المجابهة والتحدى تدور حول فكرة الشرعية . شرعية الوجود الاسرائيلى لا تمتد فقط فى اعقاب حرب عام ١٩٦٧ وستطيع ان نجد مصادرها البعيدة منذ القرن التاسع عشر . ولكنها عقب ذلك التاريخ تأخذ ابعادا جديده . لانستطيع ان نتابع هذه الابعاد فى هذه الدراسة الموجزة التى تخرجنا عن هدفنا المباشر من التحليل ولكن يكفى ان نتذكر بعض هذه الابعاد .

(ا) فالوعد الالهى قد تحقق وهكذا قد عادت الحضارة الى الارض الاسرائيليه بعودة ابنائها اليها والتصاقها بالشعب المختار .

(ب) والشرعيه لم تعد تنبع من مجرد وعد آلهى وانما اضحت تستمد اصولها من الواقعه القائمه من حق الفتح .

(جـ) والشرعية لم تعد تقتصر على الحق فى الوجود وانما اضحت تعنى الحق فى قيادة المنطقه . ان اسرائيل الدولة القائد لها ان تتكلم باسم المنطقه ولها ان تطور المنطقه ولها ان تخلق قنوات الاتصال بين المنطقه والعالم الخارجى ولها ان تفرض السلام فى المنطقه . وهكذا بدأنا نسمع لاول مرة كلمه السلام المصرى Pax Semtica .

على ان الشرعيه ليست فقط جانب ايجابيا ولكنها تملك ايضا ابعادها السلبيه • والدعايـة الاسرائيليه تعلم ذلك وتستغله ببراعة :

أولا : فهى ترفض اثارة المنطق العربى بأى معنى من المعانى • ان المنطق العربى الذى تركته هزيمة يونيو وما اعقب تلك الهزيمة من احداث فى حالة اعياء وترهل لا يزال يجد من جانب المنطق الاسرائيلى نوعا من السلبية وعدم التعليق كقاعدة عامه • انه ازدراء صامت يتضمن تأكيـدا لعنصر التفوق الذى يصير منطقا مساندا لمنطق الشرعيه •

ثانيا : وهو كذلك يبرز فى موقف الرفض السلبى بشكل واضح يتعرض لمشكلة فلسطين • ان يتجنب اى تعليق او دراسة او مناقشة لمشاكل فلسطين وما يحيط بها يمثل احدى الحقائـــق الواضحة التى يلحظها كل من يتابع الاعلام الاسرائيلى بصفه خاصه الخارجى فى اعقاب عام ١٩٦٧ •

ثالثا : وهو يرفض تقديم حلول بالنسبه لمشكلة الشرق الاوسط ورغم ان ذلك يعكس ناحيـة من نواحى الضعف فى علاقه القوة المسيطرة على القوى السياسية فى المجتمع الاسرائيلى تبـــرز واضحة عندما نتحدث عن عملية تحديد الحدود التى تريد ان تقف عندها اسرائيل لتصفها بأنها الحدود الآمنه • الا ان دعاية اسرائيل تحيل هذا الضعف الى قوة عندما تقدم موقف اسرائيل على انه موقف المتفوق القوى بشرعيه حقـه •

رابعا : على ان الدعاية الاسرائيليه لا تتردد فى ان تخرج من هذه السلبية عندما تجـد المناسبة لتشويه الطابع القومى المصرى • وهكذا فان الكتاب الذى اصدره الصحفى البريطانـــى "باويل" بعنوان خيبة الامل فى وادى النيل ورغم انه صدر فى عام ١٩٦٧ اذا بالصحافه الاسرائيلية لا تجد فرصة او مناسبة دون ان تعيد ذكراه وان تقتطع من صفحات كاملة فى اكثر من جريدة واحدة نذكر منها على وجه الخصوص جيروزاليم بوست الاسبوعيه التى ظلت تدق بثبات على المؤلـف وصاحبه ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٩٧٠ • وهى تنتفع فى هذا الخصوص بجميع الوقائع فتطوع لها دعايتها واعلامها الذى يسعى الى تشويه الصورة القومية الاسرائيليه فمصر هى مستودع الشيوعيه فى جنوب البحر الابيض • ومصر لا تعرف اى قوى ذات فاعليه سوى الشباب المندفع • ومصر عندمـــا تطرد الخبراء السوفيت انما تعلن انها دولة لا تعرف كيف تخطط حركتها • وهنا تذكر المستمـــع الاوربى اليس مع افتراض صحة ذلك فان العدو العاقل خير من الصديق الجاهل ؟

×

١٤ • ـ على ان الناحية الاخرى التى تعكس تطورا حقيقيا فى الدعاية الاسرائيليه ومنطقها الدعائى هى تلك التى عبرت عنها الصحافه العبريه باسم " قانون ليبكين " وليبكين هذا هو استاذ الطبيعيات

النرويجيه فى معهد وايزمان • قام بتحليل الدعاية الاسرائيليه فى الخارج وقدم لهذه الدعاية منطقا جديدا تحدثت عنه الصحافة العبريه ابتداءا من نهايه عام ١٩٧٠ دون ان نعلم على وجه اليقين مدى تشبع التخطيط الدعائى الاسرائيلى لذلك المنطق سوى من خلال تحليل مضمون الاعلام المكتوب •

الفكرة الرئيسيه التى تسيطر على مفاهيم هذا التصور الجديد هو ان اسرائيل يجب عليها لا ان تقدم نفسها صورة ذاتية مستقلة كما تعودت وانما تقدم صورة تعكس تصور المستقبل لذاتيته ومشاكله • بعبارة اخرى ان عملية الاتصال تقوم على اساس التقاء صورة ذاتيه بمنطق آخر • درجت اسرائيل قبل ذلك التاريخ على ان تجعل الصورة الذاتيه هى صورة الوجود الاسرائيلى وان المنطق الآخر الذى يتقابل مع هذه الصورة هو منطق الاوربى بعبارة اخرى درجت على ان تطوع المنطق الاوربى على ان يستقبل الصورة الذاتيه الاسرائيليه • أما اليوم فهو يريد على اسرائيل ان تتبنى صورتها الذاتيه وان عليها ان تجعل هذه الصورة تعبر بمثابه المرآه التى يجد كل مستقبل اجنبى ما يعبر عن مشاكله واهدافه وذاتيته فى تلك الصورة • وهكذا يعلن " كل فرد يرى فى الشرق الاوسط من خلال مشاكله الشخصيه ويرفض ان يمتزج بالوقائع او بالحجج الخلقيه " ومعنى ذلك ان على اسرائيل ان تطوع منطقها وصورتها بحيث تقدم لكل رأى عام اوربى ما يشبع ذلك المنطق ويصير امتدادا لتلك الصورة الذاتية الخاصة به •

الواقع ان هذا المفهوم هو تطوير لمفهوم آخر سبق وعانقته الدعاية الاسرائيليه قبل حوادث عام ١٩٦٧ • فقد سبق ان رأينا انها تقدم نفسها بحيث يجد كل مذهب سياسى فى الصهيونيه احدى دعائم عقيدته السياسيه او على الاقل بعض نقط الاقتراب والتشابه • فهى تحدث الاشتراكى بلغه الاشتراكيه • وهى تناول الديمقراطى باسلوب نظامها السياسى • وهى تذكر المؤمن بالنازيه بأن عقيدتها هى فى جوهرها عقيده هيجيليه • ولكنها اليوم تنقل هذا المفهوم من مجرد لغة منطق سياسى ينساب من خلال العمل الدعائى الى تصور كل متكامل للوجود الذاتى ينتهى بأن يصير التميز ليصير مرآه يجسد فيها كل فرد انعكاس لمشاكله والآمه • يقول ليبكين فى مقال له على صفحات جيرازليم بوست تعليقا له على هذه الحقيقه " ان حرب الايام الستة قد صدمت العالم بما فيه الكفايه لتحدث الاحساس الحقيقى بالتفاهم لاسرائيل وبالاهتمام الكافى بخصوص قتالها فى سبيل البقاء ولكن منذ ان انتهى الخطر فان هذا القانون يصير قابلا للتطبيق بخصوص جميع مشاكل الاحتلال والانسحاب والحدود والاستيلاء • ان كل فرد قد فقد صورة الموقف فى الشرق

الاوسط لدى فقط مشاكله الذاتيه " وهو يقدم نموذجا لهذه الحقيقه بخصوص عملية تغيير الحدود كما عرفها العالم منذ اعقاب الحرب العالمية الثانية . فان اى المانى فى هذه اللحظه " تختار بالنسبه له تغيير الحدود القائمة حاليا فى اوربا لابد وان يثيره الفزع . ولابد وان يتساءل هل هذا ممكن ان يحدث بالنسبه لى ؟ وهى مشكلة ليست قاصرة على المانيا الشرقية بل تتعداها الى منطقه الالزاس واللورين ، ومنطقه البترول ، منطقه تريستا . بعبارة اخرى على اسرائيل ان تطلع منطقها وان تطلع اثارة مشاكلها بحيث لا يرى فيها اى اتجاه من اتجاهات الرأى العام سابقه تستطيع ان تكون اساسا لحركة مقبلة ضد ما يوجهه ويتضمنه ذلك الرأى العام .

وهو يستطرد بهذا الخصوص ليحلل على ضوء هذه القاعدة العلاقة بين مشكلة الشرق الاوسط والصراع الهندى الباكستانى . فالهندى او الباكستانى لا تعنيه من هذه المشكلة الا ان يرى مشكلته الذاتية : فالهند ترى فى اسرائيل دولة مصطنعه دفعت الى اقامتها اقليه يهوديه واستطاعت ان تقتطع ارضها الطبيعيه اقليما تستند اليه فى خلق تلك الدولة المصطنعه . وهذا امر لا يجوز التسليم به . لان هذا يعنى بالنسبه للمنطق الهندى التسليم بشرعيه باكستان الدولة المصطنعه . الباكستان ايضا ترى الموقف من خلال مرآتها الذاتيه : ان اسرائيل دولة قوية غير مسلمه تعتدى لسحق جيرانها المسلمين تماما كما يحدث من جانب الهند . وهذا امر لا يجوز ان يصح بسبب بغض النظر عما فى كلا الحالتين الحاليتين من التناقض وان ليمكن يشرح لنا كيف ان الرأى العام الخارجى اليوم اضحى يرى مشكله الشرق الاوسط من خلال مشاكله . وان على الدعاية الاسرائيليه ان تصور اسرائيل على انها تعكس مشكله كل دولة وعلى ان العرب هم الذين يمثلون الطرف الاخر . يقول تعليقا على هذا التصور " على اسرائيل ان تحاول ان تقنع اهل الباكستان بأن اسرائيل فى الواقع تشبه الباكستان وان العرب هم الذين يشبهون موقف الهنود . وان لم تستطع دعايتها ان تحقق ذلك بدقه وعناية فان التصريحات الاسرائيليه لن تقابل من جانب اهل الباكستان الا بعدم الثقه — ولن تؤدى الا الى ان تتقبل من جانب اليهود لتقوى من موقفهم فى تأييد العرب " .

١٥ — فقط هذا المفهوم السابق تحليله والذى درجت الصحافه الاسرائيليه على تسميته بقانون ليكين وهو الذى يسمح لنا بفهم ما وصفناه بأنه فكرة الجوقه الدعائية . ونقصد بذلك ان تصدر فى نفس اللحظة العديد من التصريحات المختلفه من حيث دلالتها والمختلفه من حيث عناصرها ومقوماتها ولكنها الصادرة فى نفس الوقت وفى نفس اللحظة بحيث كل مستقبل اجنبى يستطيع ان يأخذ منها تلك الصوت الذى يمكن ان يصفه بأنه الصوت الصواب بالنسبه له :

The Voice that is right for him.

قد يبدو هذا المفهوم غير واضح ولكنه في الواقع ليس إلا تطبيقا لاحدى القواعد المتداولة والمعروفه في العلاقات العامه وفي العمل الدعائي . فمن المعروف لدى خبراء الدعاية فكرة اختلاق الموقف الذي يسمح بخلق شحنه انفعاليه اساسها التعاطف نتيجة للاشعاع الذاتي من شخصية الفرد المستقبل للدعاية نحو شخصيه مرسل الدعاية . عند ذلك ومن خلال هذه العملية التي تتم في العاده عقب دراسة رد الفعل المتوقع والتخطيط على اساسه حيث تكون قد خلقنا نقطه التعاطف نستطيع ان نطلق المنطلق الدعائي الذي نريده . فكرة الجوقه تطبيق لهذا المفهوم وهي تعني بخصوص موضوع واحد تصدر مفاهيم مختلفه واراء متنوعه . بل ومتناقضة في نفس اللحظه . كل من هذه الاراء يخدم وجهة نظر مختلفه ومن المستقبل لابد وان يتعاطف مع احد هذه الاراء . وهكذا فان القوى صاحبة المصلحة او ذات الاهتمام لابد وان تجد في احد هذه التصريحات ما يخلق عامل الجذب . في لحظه اولى يحدث التعاطف ولكن في اللحظه الثانيه وقد حدث الارتباط ولو اللاشعوري يبدأ المنطق الاصل الذي تريد اسرائيل ان تجعله ينساب في المستقبل بتسرب ولو بطريق التلصص ولو ببطء ودون اثاره .

فلنتصور نموذج يوضح هذا المفهوم :

الصراع او الخلاف الفكري حول مستقبل الدولة الاسرائيليه . هل تظل دولة يهودية حيث لا يوجد بداخلها سوى قومية واحدة تعبيرا عن الاصل الواحد المشترك ومن ثم تصير استمرار للتقاليد الصهيونيه السابقه على وجود اسرائيل ام انها تتحول الى دولة ضخمه تضم العديد من القوميات؟ اسحاق بن هارون يقدم تصريحاته العديده واحاديثه المتنوعه تأكيدا للمفهوم الاول . موشي ديان في نفس اللحظه وفي نفس الوقت وعلى صفحات نفسه الجريده يعلن عن اراء ومفاهيم مختلفه ليعبر عن المفهوم الثاني . على ان الجوقه لا تقتصر عليهما : جولدا مائيره ، ابا ايبان ، سيمون بيرز ، وغيرهم الكل يتحدث في وقت واحد . ان كل منهم يقدم حديثا سوف يختلف عن الآخر بحيث ان كل مستمع او مستقبل يجد الحديث الذي يشعر بأنه اكثر تعبيرا عن تصوره من خلال ادراكه الذاتي . وهكذا يحدث الاثر الاول : التعاطف والاستعداد للاستقبال . الاثر الثاني والذي تريده الدعايه الاسرائيليه هو ان تقتنع الجميع ان اسرائيل دولة تنتمي الى منطقه الشرق الاوسط وان وجودها في المنطقه لم يعد موضع مناقشه . وهكذا فمن خلال الجوقه تخلق التعاطف الذي يمهد لانسياب الاثر الحقيقي صاحب الفاعلية العميقه والمقصودة من التخطيط الدعائي .

ويصل الامر الى حد ان ليمكين يقترح بهذا الخصوص على ادارة الاعلام الاسرائيلي ان تقوم بتسجيل اسطوانات تتضمن احاديث لجميع افراد الجوقه كل منهم يعبر عن وجهه النظر المختلفه

بحيث عندما يستمع اليها المستقبل يقف ليتأثر وليتدابع فقط بذلك الصوت الذى يجد له صدى فى ذاته .

١٦ - تكمل هذه الخصائص ناحية اخرى تبرز واضحه من خلال متابعة الدعاية الاسرائيليه فى اعقاب حرب عام ١٩٦٧ . نقد بذلك التمييز بين الدعاية والدعوة . لقد سبق ورأينا ان هذه العملية تعود بنا الى التقاليد السابقه على عام ١٩٤٨ . فمنذ ان خطط سيلفر للحركة الصهيونية اثناء الحرب العالميه الثانيه وضعت فى التقاليد الصهيونيه عملية التمييز بين الدعاية التى تتجه الى غير اليهودى للحصول على تأييده والدعوة التى تتجه الى اليهودى للحصول على ايمانه . هذه الناحية ضعفت خلال مراحل التعامل النفسى التى اعقبت انشاء الدولة الاسرائيليه بحيث ان الدعاية والدعوة اختلطت كل منهما بالاخرى حتى حرب عام ١٩٦٧ . فى اعقاب ذلك التاريخ بدأت تظهر من جديد فكرة الدعوة لتتميز عن مفهوم الدعاية . ولنستطيع ان نفهم هذه الظاهره علينا ان نعود مره اخرى الى حوادث حرب الايام الستة .

لاحظ اثناء حوادث عام ١٩٦٧ روح عامة من التعاطف مع القضية اليهوديه من جانب اى يهودى بغض النظر عن تعاطفه او شعوره بالانتماء الى الوطن الاسرائيلى . ظهر ذلك واضحا فى فرنسا حيث درجه اندماج اليهودى بالمجتمع الفرنسى معروفه موضع لا للشك فى عمقها . ايضا نفس الظاهرة لوحظت فى بريطانيا وفى اكثر من مجتمع واحد من المجتمعات الاوربيه .

فما هى اسباب ذلك التعاطف العام ؟

تعرض احد العلماء اليهود المعاصرين المؤرخ موشيه دافيس رئيس معهد اليهوديه المعاصره بالجامعة العبريه لهذه الناحيه فى مقال نشر فى جريدة الجيروالزم بوست فى نهايه عام ١٩٦٧ . وهو يحدد اسباب ثلاثه لروح التعاطف العامه التى عبرت عن نفسها خلال تلك الفتره ، امكانيه تكرار حوادث الافناء النازى ، والمرتبطه بذلك ثم من جانب آخر فهم عام للاخوة اليهوديه حتى بين الاعداء التقليدين فى غرب اوربا ، واخيرا وضح معنى اختفاء اسرائيل بالنسبه لاى يهودى يقيم فى اى بقعه اخرى من بقاع العالم .

ما ان انتهت تلك الحوادث حتى عاد اليهودى الى وضعه السابق من النظرة الى اسرائيل بفخر وامتنان ولكن دون الاستعداد للتضحية والعوده الى الارض الاسرائيليه . واسرائيل لم تعد تستطيع ان تخطط لنفسها دون تشجيع الهجرة اليها واسباب ذلك معروفة . وقانون ليكيون السابق ذكره لايمكن ان يطبق بالنسبه لليهودى لانه يخالف منطق التأليه الصهيونى للذاتيه اليهوديه .

اضف الى ذلك عامل آخر أكده عليه العالم السابق ذكره وهى ان الجمهور اليهودى المستقبل للدعاية لم يعد كما كان فى الماضى ينتمى الى مجتمع محدد من المجتمعات السياسية ، وهو يقصد بذلك مجتمع الولايات المتحدة وانما اضحى يتجه الى اليهود فى المهجر اى اليهود المشتتون فى جميع انحاء العالم . ان الجمهور المستقبل لم يعد مجتمعات الجيتو التقليدية التى تمثل مجتمعات كاملة او جزئيه او فرعيه وانما اضحى المواطن اليهودى والعادى يكاد يكون مندمجى فى المجتمع الذى يعيش فيه ازاء ذلك لابد من تغيير اسلوب الدعاية لليهود وهو اسلوب يصير اقرب الى الدعوة ويبعد التقاليد السابقه للدعوة على عام ١٩٤٨ ولكن بأسلوب آخر اكثر صلاحية للموقف الجديد .

الاسلوب الجديد يرتكز على منطلقات ثلاث :

أولا : ينظر الى اليهودى على انه جهاز للاستقبال والارسال فى آن واحد . هو يستقبل دعوة وينشرها فى البيئه التى يعيش فيها ليخلق قوى جاذبه للمفهوم الذى يغلف المنطق الدعائى .

ثانيا : لن يكون اساس الدعوة المنطق السابق والذى اساسه " اسرائيل فى حاجه اليك .. ما الذى تستطيع ان تفعله لاجل اسرائيل .. " وانما سوف يأخذ صياغة جديدة تختلف كليا .. " انت فى حاجة الى اسرائيل .. ما الذى تستطيع ان تفعله لك اسرائيل .. "؟

ثالثا : ورغم ذلك فهو دعوة وليس دعاية لان ينطلق من الايمان بالتكامل الروحى من خلال العودة الى الاوض المقدسة .

ليس هدفنا التحليل العمقى لجميع هذه النواحى . ولكن الذى يعنينا اساسا هو اكتشاف الخلفيات العقليه للسياسة الخارجية الاسرائيليه كما نستطيع ان نتوقعها من خلال هذا المنطق الجديد الذى يسيطر على الاعلام الخارجى الاسرائيلى .

— ٣ —

أبعاد الحركة السياسية الاسرائيلية

١٧ — الانتقال من الجزء الى الكل هو احد المسالك كما ابرزنا في ظهور هذا الموضع تسمح لنا بعملية تحليل الدعاية الخارجية وتسلط الضوء على الدعاية المضادة باكتشاف ابعاد الحركة السياسية ومواضع سيطرة الاطار الحركي سواء من حيث علاقة السياسة الخارجية بالسياسة الداخلية او من حيث علاقة الاعلام الخارجي بالاعلام الداخلي . ابرزنا في ظهور هذا الموضع كيف ان الدعاية الخارجية هي جزء من كل وهو السياسة الخارجية . وحيث ان السياسة الخارجية الاسرائيلية تقوم على اساس من الهيكلة معينة تتبادل بين العمل الدبلوماسي والعمل الدعائي والعمل العسكري بعلاقة تكامل حركية فان تحليل الدعاية يسمح باكتشافها من خلال عملية التصور الذهني لخصائص السياسة الخارجية الكلية . وهذه بدورها لابد وان تعكس بدرجة او بأخرى حقيقة علاقة القوة التي تتحكم في عملية صنع القرار السياسي يأتي الاعلام الداخلي ليصير اداة من ادوات الضبط لهذه النتائج بحيث يسمح بتحديد ابعاد الاطلاقات او بتقييد المنطلقات الكلية .

لاتمنينا في هذه الدراسة الموجزة عملية التحليل المنهاجي وقد سبق وان طبق هذه الاساليب علماء آخرون كما حدث من جانب العالم الامريكي " جون " الذي انتقدنا بنماذجه في التحليل الخاص بدراسة العلاقة بين الدعاية النازية والتنبؤ بالحركة السياسية اثناء فترة الحرب العالمية الثانية والتي قام بها لحساب مؤسسة راند كوربوريشن .

١٨ — المنطلق الاساسي يدور حول رابحة اعتداء عام ١٩٦٧ وهو انه جزء من تحليل عام ومرحلة من مراحل الاستراتيجية الصهيونية . هذا المحلل يعود من حيث اصوله الفريية الى عام ١٩٥٦ . ففي اليوم الذي اكره فيه بن جوريون على اتخاذ قراره بالانسحاب من سيناء قامت القوى السياسية المهيمنة على الوجود الاسرائيلي بوضع تخطيطها الحركي للاستعداد للعودة الى نفس المنطقة على اساس تغيير الاطار العام للحركة بحيث لا تصير الدولة العبرية امام مثل ذلك الضغط الذي اخضعت له القيادة واضطرت معه الى الانحناء . هذا الافتراض يسلم به جميع المحللين وهو ليس في حاجة الى اثبات . ولكن لو قبلنا مدلول هذا التصور فان هذا يعني ان اسرائيل عقب عام ~~١٩٥٦~~ ١٩٦٧ اضحت في مواجهة حقائق جديدة :

أولا : احتلال لأجزاء واسعة من دول مستقلة تنتمي الى هيئة الامم المتحدة .

ثانيا : اتساع الارض الاسرائيلية بحيث اضحت تضم جزء ضخم من العرب في داخل الدولة الاسرائيلية .

ثالثا : حاجة اسرائيل الى عودة جديدة من قبل يهود العالم لخلق توازن ديموجرافي الذي اختل بعملية الانفتاح في الحدود والاستيعاب في العناصر العربية .

كل هذا كان لابد وان يقود الى نتائج واضحة من حيث المنطق الدعائي ه اقل ونوعا من حيث ابعاد الحركة ولكن الربط بينها يسمح بصياغة توقعات المستقبل .

(ب) احتلال اجزاء واسعة من دول مستقلة لابد وان يؤدي الى بروز منطق جديد في الدعاية وهو منطق العلاقات الدولية . ولو تتبعنا تطور المطالب الاسرائيليه لبرزت هذه الحقيقه لا مجال للشك بخصوص دلالتها .

(١) هي تبدأ بالحديث عن المفاوضات المباشره وهذا مفهوم منطقي ومتداول في نطاق العلاقات الدولية حيث ان كل قتال لابد وان ينتهي بالجلوس على مائدة المفاوضات .

(٢) وعقب عام ١٩٧٠ تبدأ تتركز حول فكرة الحدود الآمنه منتفعة في هذا بموقف العرب من رفض فكرة المفاوضات . وفكرة الحدود الآمنه ليست جديدة في تاريخ العلاقات الدولية . اثبوت قبل ذلك في اكثر من مناسبة كما ارتبطت على وجه الخصوص بما سبق والحق العرب الهزيمه الثانيه .

(٣) وعقب ان اضحت هذه النغمة مستقرة في الاذهان بدأت تظهر اسطوانة جديدة حول مفهوم السلام وفرضها تسميه بالسلام العبري . ورغم ان هذا المفهوم اي مفهوم السلام هو منطلق بطبيعته لسياسة القوة لا تتحدث عنه الا الدول المسيطرة الا ان جعل هذا المفهوم يتدرج في منطلقات متتابعة ابتداءا من فكرة المفاوضات المباشرة ومرورا بمفهوم الحدود الآمنه لابد وان يعطي فكرة السلام دلالة تختلف عن حقيقتها .

(ب) فاذا انتقلنا الى الحقيقة الثانية وهي احتواء اسرائيل لاول مرة على جزء ضخم من السكان العرب يمثلون كثافة معينة ذات وزن واضح في المجتمع الاسرائيلي الكلي لفهمنا لماذا بدأت اسرائيل تتحدث بلغات مختلفه بحيث تخاطب سكان كل منطقة على حدة . ان المنطق واللغة التي تحدث بها الضفه الغربية يختلف عن منطق ولغة اهالي غزة . ورغم انها تجعل من هذا الحديث وسيلة وقناة لمخاطبة الرأي العام العربي الا انها تركز على ابعاد مختلفة تبعا لكل منطقة : فعدم المساواة بين الفلسطينيين واهالي الاردن ووضع الفقر والتخلف بالنسبه لاهالي الضفه الغربية لو قورنوا بأبناء الاردن تسير منطلقا لحديث تختلف نبراته عندما ننتقل الى اهالي غزة حيث نجد الضغط على وتيرة

آخر وهو الارتباب المصرى والمنجهيـة الفرعونيـة .

على ان الناحية التى تدعو الى الاعجاب بهذا الخصوص والتى تدعونا الى ان نتساءل : اين الاعلام العربى من الدعاية الاسرائيليه ومن عمق هذه الدعاية ، تدور حول ما نسميه الدعايـة الصهيونية من خلال الاعلام العربى . ونقصد بذلك ان الدعاية الصهيونية تلجأ الى تقديم حقائق عربية وتنقلها بصورة محايدة ودون اى اضافة او تشويه ولكنها فى حقيقتها انما تؤكد ضعف العالم العربى وتفقد فقدان الثقه فى ذلك المجتمع وتلك الحضارة . تبرز هذه العملية واضحة على سبيل المثال ، من ذلك التعليق الاسبوعى الذى يذاع لتحليل احد ابرز الكتب العربية هذا التحليل الذى ينقل فى جميع الاحيان وجهة نظر عربية يتضمن نقدا لنواحى الضعف فى المجتمع العربى وذلك يقصد تأكيد هدف دعائى اسرائيلى . من امثلة ذلك الكتب التى صدرت فى الفترة الاخيرة عن هجرة الادمغه الفرعيه حيث جعلت الدعاية الاسرائيليه هدفها من تحليل تلك المؤلفات على ان اى عالم عربى لا يستطيع ان يقوم برسالته العلمية فى ظل تلك النظم القائمة المتفسخـة وانه مضطر الى الهجرة الى مجتمعات اخرى بعضها اقل مستوى حضارى من المجتمع العربى كما هو بالنسبه لوسط افريقيا وصغر بلاد امريكا اللاتينيه . ولتأكيد هذا المنطق تقدم الاوضاع الذاتية لاسرائيل كنموذج عكسى لذلك الوضع الذى يعرفه العالم العربى . بينما علماء العرب يهاجـرون من بلادهم واوطانهم ، هاهم العلماء اليهود يسعون الى العودة الى اسرائيل بالحاح وتصميم

حـ) حاجة اسرائيل ~~خلق الدعوة~~ او بعبارة اخرى خلق يهود العالم يعنى فرض منطـق الدعوة او بعبارة اخرى خلق نموذج جديد للحركة السياسية فى نطاق العلاقات الدوليـة .

المنطق اليهودى بهذا الخصوص لم يتغير من حيث جوهره ولا يزال يعكس نفس التقاليد التى عرفها منذ المؤتمر الصهيونى الاول ، ولكنه اخذ صورة اخرى اكثر تلائما وانسجاما مع طبيعة الوضع الـذى فرضتـه نتائج حرب عام ١٩٦٧ . ان اسرائيل فى حاجة الى موجات متتابعة من الاتصال والارتباط العقيدى بتلك المناطق التى تضم عدد كبير من اليهود وخاصة فى الاتحاد السوفيتى . ورغم ان الملاحظة العامة التى تسود هذه الناحية هو الربط بين عملية الاستقبال ومنطق الانتصار ، الا ان الخلفية العامة للتعامل النفسى سوف تعكس الفارق الواضح بين الدعاية والدعوة . منطلق المفاهيم الاسرائيلية هو ان الانتصار العبرى فرض على العرب الاعتراف بها والتعاون معها ، وهو امـر لابد وان يحدث ان آجلا او عاجلا لانه منطق التاريخ .

فما معنى ذلك ؟

اول النتائج الواضحة تدور حول تأكيد نجاح الدولة الصغيرة فى تحدى القوى الكبرى ، الدولة الصغيرة ، العمل ازاء الوحوش المحيطة به ، وازاء تلك الدولة العظمى التى تركتها تدافع عن نفسها ضد الهمجية ، دون معونة ، استطاعت ان تقف على اقدامها وتقبل التحدى . وما حدث فى عام ١٩٥٦ لن يتكرر فى عام ١٩٦٧ .

ما هى دلالة ذلك بالنسبة لليهودى ؟

اسرائيل القديمة تعود الى الوجود . وهنا تبرز علاقه الاستمراريه مع اختلاف التطبيق ؛ الاستمراريه هى طرح الوجود اليهودى ومشكلته فى العالم المعاصر ولكن اليوم عقب ١٩٦٧ لا تقتصر هذه الدلالة على فكرة البحث عن مأوى اى ايواء اليهودى الذى لا مأوى له وانما الاعتراف باليهودى كرائد للشرق الاوسط . وهنا يجب ان نلحظ الخطوات المتلاحقه فى تطور المنطق اليهودى ابتداءا من الدعوة الصهيونية حتى اليوم : قبل انشاء الدولة الاسرائيليه يدور حول ايواء اليهودى الذى لا مأوى له والذى لم يجد سوى الرفض فى جميع المجتمعات الاوربيه . خلال العشرين عاما التاليه فان تصور الحركة يدور حول فكرة تحقيق خلاص اليهود من اللعنة بتجميعه فى ارض اسرائيل . عقب ١٩٦٧ تصير وظيفته الدولة الاسرائيليه هى تحقيق الرسالة التاريخية الحضارية بقيادة تلك الانسانية المعذبة المتمركزة فى منطقة شرق البحر الابيض المتوسط .

١٩ — قبل ان تنتقل الى ربط هذا المنطق الدعائى بمنطق الحركة السياسية علينا ان نلاحظ ملاحظة جانبية بخصوص وسائل الاعلام وأدوات الاتصال . اذ نلاحظ عقب ١٩٦٧ تطبيق مبدأ التعدد الى جوار مبدأ الجوقة والذى سبق ورأيناه . يبرز هذا واضحا عندما نعود الى تحليل أدوات الاعلام بشىء من التفصيل . فرغم ان الاعلام الاسرائيلى ظل تسيطر عليه فكرة الاعلام الرسمى الذى تسيطر عليه الدولة ، الا انه عقب ١٩٦٧ بدأ يبرز فى صورة أكثر اتساعا من هذه الناحية :

١) فالى جانب الاعلام الرسمى الذى ينبع من جهاز الاعلام وعلى وجه الخصوص من المكاتب الاعلامية الاسرائيليه المنتشرة فى اهم العواصم العالمية والتابعة لوزارة الخارجية هناك الاعلام الصهيونى المنظم والذى تقوم به فروع المنظمه الصهيونيه بتعاون تام مع وزارة الخارجية الاسرائيليه .

٢) كذلك نجد ان المنظمات السياسية الاسرائيليه تتولى من جانبها القيام باعلام آخر يبدو لاول وهلة على انه نوع من انواع التعبير عن الوجود الذاتى دون اى هدف آخر ولكنه فى الواقع يتم بتخطيط كامل مع ما يفرضه ذلك من مرونه معينه مع وزارة الخارجية . اهم نماذج هذا الاعلام نجده فى نشاط الهستدروت من جانب والاحزاب السياسية سواء الحاكمة ام غير الحاكمة من جانب آخر .

٣) على ان تعدد أدوات الاعلام يبرز بشكل واضح عندما نضيف الى ذلك المعلومات المضللة وما تقوم به من اعلام مباشر يبرز لاول وهلة على انه لاينبع من الاطار العام للخطه الدعائيه رغم انه فى الواقع انما يعكس فكرة الجوقة كما سبق مابرزنا دلالتها • اهم الادوات بهذا الخصوص من جانب رابطة الدفاع اليهودى ومن جانب آخر بما يسمى بحركة اسرائيل الكبرى •

كذلك جدير بنا ان نتذكر فى هذه المجالة السريعة التى لابد وان يحيطها عدم توفر المعلومات الكافية ان نلاحظ تلك الاستراتيجية الجديدة التى لم تكن واضحة قبل ذلك • وهى تدور فى بعدين :

اولا) عملية خلق التوتر ولكن بكياسة •

ثانيا) عملية التقدم بخطوات فى سبيل ابتلاع الاخرين برزت الناحية الاولى بشكل واضح اثناء زيارة جولدا مائير الى فرنسا ثم ايطاليا فى الصيف الماضى • اما الناحية الثانية فقد كانت اكثر وضوحا فى طبيعة الخطاب الذى استخدمه اسرائيل فى علاقتها بروسيا • فمنذ ان كانت اسرائيل تتساءل : لماذا هذا الخلاف بين الاشقاء الذى ينتمون الى ايديولوجيه سياسيه واحدة؟ نجد ان ابا ايبان لم يتردد فى ان يصرح خلال الشهر الماضى (فبراير ١٩٧٣) بأنه يجب على روسيا ان تسعى جاهدة الى اعادة العلاقات مع اسرائيل •

٢٠ـ ما هى الاهداف التى تسعى الى تحقيقها اسرائيل بحركتها السياسيه من خلال دعايتها الخارجية كما سبق وحددناها ؟

(اولا) : تثبيت الاقدام حيث وصلت •

(ثانيا) : تأكيد أن اسرائيل تمثل حلقه الوصل بين العالم العربى والعالم الغربى •

(ثالثا) : ابراز اسرائيل على انها وحدها تستطيع حماية الشرعية فى المنطقة •

(رابعا) : تقديم اسرائيل على انهـا حرسة متقدمة لحماية المصالح الامريكيـة •

١) الهدف الاول يدور حول ضرورة اقناع العالم بأن ما وصلت اليه يمثل الوضع القائم الذى يجب حمايته • وليس ذلك فقط مرده فقط بأن هذه هى الحدود التاريخية وانما ان تغيير الوضع القائم يمثل خطوة خطرة على جميع الشعوب بصفة خاصة فى مختلف اجزاء اوربا الوسطى والشرقية • لقد سبق ان رأينا ان احد قنوات الدعاية الاسرائيليه هو تقديم مشكله الشرق الاوسط من خلال مشكلة كل دولة او بعبارة اخرى جعل الحديث يدور من خلال قنوات المصالح الذاتية • ويبدو هذا واضحا من خلال المنطق الذى تتقدم به اسرائيل الى العالم الشيوعى فى اوربا الشرقية • فأوربـا

الشرقية عرفت تغيرات ضخمة في الحدود في اعقاب الحرب العالمية الثانية ولم يعد من مصلحة الطبقات الحاكمة القيام في تلك المنطقة اثارة هذا الموضوع. بل وقد وصل الامر الى ان القائم الحياسية اينما في غرب اوربا تتفق مع نظرية النتيجة. بيد وهذا واضحا في المانيا الغربية عقب وصول الحزب الاشتراكي الى الحكم. اسرائيل تدق بوضوح في دعايتها على هذه الناحية مذكرة ان تغيير الوضع القائم يعني فتح باب موحد لايمكن ان يؤدي الا الى خلق سوابق خطيرة بالنسبة للدول الاخرى.

ب) على ان اسرائيل رغم سبق ان رأينا انها تسعى الى خلق قنوات الخطاب مع غرب أوربا، تجعل منطقها بهذا الخصوص يتأسس على سياسة تدور حول استبعاد الاتصال المباشر بين العالم العربي والعالم الغربي. فاوربا لم تفهم العرب ولن تستطيع ان تفهمهم. اسرائيل وحدها هي التي فهمت هذا العالم وهذه النتائج خير دليل على صحة هذه الدعوى. ما الذي يريد العالم الاوربي من هذا العالم غير المتحضر؟ شواطئه؟ البترول؟ ان اسرائيل تستطيع ان تحقق ذلك وهي التي تنتمي الى العالم الغربي حضاريا وفكريا وتكنولوجيا. حتى قناة السويس هي قادرة على ان تعنيهم عنها بل وهي صاحبة الارادة الاولى والاخيرة في امكانية اعادة استخدامها. فلماذا لاتستغني اوربا المتحدة عن الاتصال المباشر بهذا العالم وقد اثبتت اسرائيل فاعليتها في تحقيق هذه الغاية؟ هذا المنطق هو الذي استخدمته الدعاية الاسرائيليه في خلق التجاذب الذي نعلمه مع القوى اليساريه في فرنسا وايطاليا وايضا في بريطانيا العظمى ان حديث ويلسون الذي اعقب زيارته لتل ابيب خير معبر عن هذه المفاهيم.

جـ) يرتبط بهذا المفهوم الثاني ويدعمه مفهوم آخر يدور حول تأكيد ان اسرائيل اضحت الارادة المتحاكمة والمسيطرة في المنطقة. وينطلق من هذا المنطق ان اسرائيل هي التي تمثل الدفاع عن الشرعية: فهي التي تستطيع وضع حد للاضطرابات وخلق حالة سلام في المنطقه. ثانيا وهي التي تتولى تأديب الارهابيين الذين يتحدثون عن الحرية وهم يمثلون الفوضائية والخروج عن ابسط قواعد الانسانية، ونقصد بذلك رجال فتح وما يتبعها من ملحقات. ثالثا وهي تهجم على معسكرات اللاجئين في شمال لبنان وتعلن ان هدفها هو تعقب الثوار وحركات الرفض من جانب اعداء النظم السياسية القائمة في ايران وتركيا وقبرص.

د) على ان اسرائيل في الواقع من خلال المفهوم الثالث السابق ذكره تخاطب السياسة الخارجية الامريكيه بأسلوب مغلف اساسه القدرة على خلق حالة سلام في منطقة الشرق الاوسط

والتي تؤكد هذا المعدل من خلال مقدار آخر يدور حول وصفها بأنها حرية مقدسة لحماية المصالح الامريكية . ان المصالح الامريكية في المنطقة لا حد لها واسرائيل وحدها قد اثبتت قدرتها على تحقيق ذلك ! فهي تستطيع ان تضرب اي قوة محلية تسعى لخلق اي اضطراب بالنسبة لتأمين المصادر البترولية ، وهي من جانب آخر قادرة على ان تحمي المحيط الهندي من خلال التحكم في البحر الاحمر ، ليس لمجرد التحكم في ثرواته بل وفي موانئه ومواصلاته ابتداءا من الجنوب الى اقصى الشمال . وهكذا هي تخدم جميع المصالح الاستراتيجية المتعلقة بالامن الغربي الامريكي : مشكلة الطاقة من جانب ثم مشكلة المحيط الهندي من جانب آخر . ورغم ان الناحية الاخيرة لم تردد ها الصحافة الغربية الا منذ فترة قصيرة . الا ان الواقع ان المتتبع للنشاط الاسرائيلي يعلم ان هذه الناحية بدورها تعود الى ما قبل عام ١٩٦٧ منذ بدء ارتباطاتها الاقتصادية والعسكرية المعروفة بالجميع .

٢١ـ اهداف اربعة تمثل المستوى الثاني من مستويات الانتقال من الجزء الى الكل . هي اهداف دعائية ولكنها تستر حركة سياسية . فما هي تلك الحركة ؟ وما هو الهدف النهائي الذي تسعى اليه اسرائيل بالنسبة للمنطقة .

ان متابعة هذه الموجات المتتالية من المنطق الكلي لابد وان تؤدي الى نتيجة واحدة : وهي ان اسرائيل سوف تسعى خلال الاعوام العشرة القادمة الى العمل بجميع وسائلها وامكانياتها الى تجزئة المنطقة وتحويل القارة العربية الى عدد لا حصر له من الكيانات الصغيرة . انها تعزل المنطقة عن العالم الكبير ، العالم الدولي ثم تفتتها من الداخل في حركة مزدوجة : من طريق الاختراق من جانب الاسهم الاسرائيلية ومن طريق التمزق من جانب القوى الذاتية .

وهي لذلك :

اولا : تشجع الاقليات وتحدثها بلغة مصالحها الذاتية .

ثانيا : تردد بمناسبة وبغير مناسبة التأكيد على اهمية التنمية الذاتية كوسيلة لتفعيل وتوجيه عملية التطور الذاتي للمنطقة .

ثالثا : تشجع النعرات الجغرافية بالنسبة للدول المصطنعة بصفة خاصة الاردن ولبنان .

رابعا : تضرب على وتر مصالح الطبقات المنتفعة من خلال اعادة ترتيب القوى السياسية بما يتفق مع مصالح النعرات الاقليمية .

او بعبارة اخرى تخلق عناصر الجذب نحو التفاعل معها من جانب وعناصر الجذب نحو الانفصام والقوقعة الذاتية من جانب آخر .

٢٢ - هذه الابعاد المختلفة للسياسة الخارجية الاسرائيلية كان لابد وان تؤكد الصفات العامة للاعلام والدعاية كما يبرز من خلال التطور العام الذى اعقب عام ١٩٦٧ . انه يسير فى مسالك ثلاثة كل منها له خصائصه المستقلة :

أولا : هو يتجه اول ما يتجه الى اليهودى فى الخارج فى صيغة الدعوة الساعية الى خلق وتأكيد عملية تعميق الايمان بقصد الارتباط العقيدى فى سبيل خلق اسرائيل الكبرى .

ثانيا : ثم هو يتجه الى العرب داخل اسرائيل من خلال الاتصال الشخصى المباشر بحيث يجعل من هؤلاء قناة الاتصال الجاذبة والمؤيدة للسياسة الاسرائيلية فى العالم العربى .

ثالثا : ثم هو يتجه الى المؤيدين فى الخارج بقصد ربط عملية التأييد بالمصالح المباشرة .

وهنا نلحظ كيف ان الدعاية الاسرائيلية تعود الى تقاليدها السابقة على عام ١٩٤٧ : ليس فقط بخصوص التمييز الواضح بين الدعاية والدعوة وانما ايضا فيما يتعلق بما نستطيع ان نسميه الفيضان الاتصالى من خلال مرحلتين متعاقبتين .

هذا الاسلوب اتبعه سيلفر فى الولايات المتحدة بأن جعل مراحل حركته الاعلامية تتخذ خطوتين متتاليتين : الاولى من خلال التأثير فى صانع القرار والثانية بعملية خلق موجات للرأى العام تساند صانع القرار فى مواقفه . كذلك عقب عام ١٩٦٧ فان نفس الظاهرة تتكرر ولكن بأسلوب آخر : ففيما يتعلق بعملية اسرائيل بالعالم العربى تبدأ فى مرحلة اولى بأن تتجه الى العرب المقيمين فى اسرائيل لتخلق من كل عربى فى تلك المنطقة جرثومة ناقلة العدوى او بعبارة ادق جهاز ارسال وجهاز استقبال فى آن واحد . المرحلة الثانية سوف تتلو هذه الخطوة الاولى عندما تستطيع ان تجعل من كل عربى يقيم فى هذه المنطقة حلقة اتصال تعبر الاراضى الاسرائيلية لتنتشر بطريق مباشر او غير مباشر فى مختلف اجزاء العالم العربى .

الصهيونية السياسية والدعوة العقيدية

حول تطور العمل الدعائي اليهودي قبل انشاء الدولة العبرية

لم توجد دعوة سياسية ارتبطت منذ وجودها بالعمل الدعائي والحرب الاعلامية كما حدث بالنسبة للصهيونية السياسية. يذكر عن "هرتزل" انه في احدى خطبه الاولى قال كلمته المشهورة: "علينا ان نخلق اكبر قسط من الضوضاء حول المشكلة اليهودية". وعندما اراد بنى الصهيونية ان يؤكد دعوته، لم يقتصر على كتابه بعنوان "الدولة اليهودية" وانما نشر قصة مشهورة نفس الادب الغبرى بعنوان "الارض القديمة الجديدة" "كل محاولة لفهم الواقع اليهودي المعاصر وتطورات الدولة العبرية التي نعيشها لا تبدأ من تلك القصة هي محاولة قاصرة، فالغاية الحقيقية التي دفعت بهرتزل لوضع هذه القصة هو انه اراد ان يقدم تصورا للفكرة الصهيونية من خلال الاسلوب السائد في تلك الفترة وهو اسلوب الرومانية السياسية، ويعترف بذلك ناشر القصة "نويمان" اذ يقول: "الغاية من هذه القصة هي الدعاية، هي ان نبعث في الشعب اليهودي الثقة والايمان بالفكرة الصهيونية". هي اذن مصدر الاسطورة ومحور الشعار.

وتتجلى هذه الحقيقة بشكل واضح لو قارنا بين الصهيونية السياسية والمذاهب الاخرى التي غمرت القرن التاسع عشر. ولو اقتصرنا على المذهبين اللذين قدر لهما التكامل من حيث النجاح في الوصول الى السلطة وتحقيق البرنامج السياسي المرتبط بذلك المذهب في اي القومية من جانب، والماركسية من جانب آخر لها لنا الفارق الذي تتميز به الصهيونية السياسية. فالقومية لم تقدر لها اي دعاية منظمة. والماركسية عندما حاولت ان تخلق اداة اتصال مع الجماهير لم تجد سوى الحزب الشيوعي والجمعيات السرية لها لنشر الدعوة اليسارية. ودعاية بالمعنى الحقيقي اي كخطاب يتجه الى المجتمع الكلي مستندا الى اساليب الاتصال الجماهيري لم يقدر لها ان توجد في شكل متكامل الا ابتداء من الصهيونية السياسية.

هذه الملاحظة تفسر لماذا يجب علينا ان نحلل حقيقة العلاقة بين الدعاية من جانب والعقيدة من جانب كمظهر من مظاهر الحركة السياسية التي تستتر خلف الصهيونية السياسية.

- ١ -

الصهيونيـة بين الدعايـة والحركـة

٢ - الدعاية الصهيونية قديمة قدم الحركة الصهيونية . اعترف بهذه الحقيقة ايضا المؤرخون المحايدون . فالكاتب " هاليون " عندما ارخ الحركة الصهيونية في المجتمع الامريكي وجد من جانبه ليكون عرضه كاملا ان يفرد فقط للحركة الدعائية فصلين كاملين : والمؤرخ الامريكي " ستيفنسون " هذا اكثر من خمسة عشر عاما عندما تعرض لتحليل العلاقة بين الصهيونية والسياسة الخارجية للولايات المتحدة الامريكية انتهى الى التسليم بهذه الحقيقة .

هذا الطابع للدعاية الصهيونية يفرض علينا اكثر من ملاحظة واحدة . اولها ان العلاقة بين الدعاية والحركة في نطاق المذهب الصهيوني ليست مجرد علاقة ارتباط وانما هي علاقة عضوية . ان الدعاية هي الوجه الاخر للحركة . وكما انه لا يمكن فهم الدعاية الصهيونية دون فهم الحركة الصهيونية ، فمن العبث محاولة فهم الحركة الصهيونية دون التغلغل في جوهر الدعاية الصهيونية .

كذلك فان لهذه الرابطة الوثيقة بين العمل الدعائي والعمل السياسي تسمح بفهم لماذا يجب ان نؤكد على ضرورة التعمق في تحليل المنطق الدعائي الصهيوني السابق على نشأة الدولة الاسرائيلية . الهدف من هذه العملية لا يقتصر على مجرد الرغبة في الوصول الى الفهم الحقيقي للمنطق المتكامل الذي يسيطر على الدعاية الاسرائيلية بل ولان هذا التعمق هو وحده الذي يسمح بادراك حقيقة ابعاد الحركة الصهيونية ايضا عقب وجود الدولة الاسرائيلية الامتداد العضوي للمذهب الصهيوني .

٣ - الحديث عن الدعاية الصهيونية قبل وجود الدولة الاسرائيلية يعني ان متابعة تلك الدعاية تفترض حتى التمييز بين مراحل متعددة تبعا لتطور الحركة الصهيونية . واذا سلمنا ، كما سوف نرى فيما بعد ، ان الادب اليهودي خلال القرن التاسع عشر يمثل الصهيونية السابقة على الصهيونية السياسية وبصفة خاصة في محاولة تثقيف الطابع القومي اليهودي ، فاننا نستطيع ان نميز بين اربعة مراحل لتطور الدعاية الصهيونية :

١ - المرحلة الاولى والتي نستطيع ان نسميها بمرحلة الدفاع اليهودي حيث استخدم الادب وكتابة التاريخ كوسيلة من وسائل الدعاية والدفاع عن الطابع القومي اليهودي . هي دعاية يهودية ولكنها اعدت للصهيونية كدعاية سياسية .

جـ — ثم ابتداء من نشأة المذهب الصهيوني حتى انتقال مركز الثقل للصهيونية السياسية الى الولايات المتحدة الامريكية وعلى وجه التحديد مدينة نيويورك • خلال هذه المرحلة التي تستغرق اجمالا اربعين عاما وحتى الحرب العالمية الثانية كانت الحركة الصهيونية تتمركز فيما جوهره الذي كان يحتمها هو ان تتجه الى الرأي العام الاوربي لاكتساب تلك الشرعية التي هي في حاجة اليها ازاء مراكز القوى السياسية في الرأي العام الاوربي •

د — المرحلة الثالثة تبدأ منذ بداية الحرب العالمية الثانية وتنتهي بالاعتراف الصريح الدولي بانشاء اسرائيل • الحركة الصهيونية خلال هذه الفترة تنتقل الى الولايات المتحدة الامريكية ويصير هدفها خلق تيار قوي من الرأي العام يقود من خلال مسالك معينة الى ان تتبنى السياسة الامريكية الدفاع عن شرعية اقامة دولة عبرية •

هـ — ثم تأتي مرحلة رابعة تعقب الاعتراف بالوجود السياسي للاداة التنظيمية المعترف بها في الاسرة الدولية في ارض الميعاد • هذه المرحلة هي تلك التي عاصرت وجود الدولة العبرية •

٤ — الدعاية الصهيونية هي اذن جزء من معركة قديمة وسابقة على معارك يونيو — بل هي ايضا معركة مستقلة عن الصراع المرتبط بأزمة الشرق الاوسط • واذا اردنا ان نبحث عن مصادرها الفكرية الحقيقية لوجدنا انها ترتبط بالمحاولات الادبية التي نمت القرن التاسع عشر بقصد ازالة الصورة المشوهة لليهودي والتي سيطرت على تقاليد الفكر الغربي •

من التقاليد التي نجد اصولها البعيدة في ثنايا الفكر السياسي الاوربي منذ العصور الوسطى نجد صورة واضحة لليهودي على انه يتسم بصفات معينة ليست مما يشرف اي مجتمع سياسي • ولو اردنا ان نتابع هذه الاسطورة المتعلقة بتشويه الطابع القومي اليهودي لوجدنا مصادر لها عديدة تبدأ منذ ظهور نقض الديانة الكاثوليكية • الخطاب الشهير للقديس بول واضحة الدلالة • ولكن اذا انتقلنا الى فترة العصور الوسطى ثم بصفة خاصة الى فترة عصر النهضة لوجدنا نماذج عديدة لاحصر لها •

خطاب لوتر الى زوجته بتاريخ اول فبراير عام ١٥٤٦ جدير بالتسجيل • هو يعلن انه من الخطورة ايجاد اي صلات او احتكاك بالعنصر اليهودي • يقول لزوجته في خطابه المذكور انه اضطر ان يجتاز احدى القرى التي يقيم بها اليهود وعندما مرت عربته بتلك القرية اذا بريح باردة تجتاز العربة وتصفق من حوله لتحيل رأسه الى قطعة من الثلج الامر الذي اصابه بالمرض والذي كان سببا في معاناة استغرقت فترة ليست بالقصيرة • وما كان يمكن ، يقول لوتر لزوجته، لن يكون هناك مصدر لتلك الريح سوى الوجود اليهودي • ويعلق على ذلك بقوله بثقة واقتناع :

• بجرد انتهائي من تحليل امور الاثارة كان على ان اتابع كل يهودي في سهل طرد اليهود •.
ولو انتقلنا الى فترة الثورة الفرنسية لوجدنا وثيقة لا تقل دلالة من تلك السابقة • " نهضت "
يهود فيدعو النهضة الالمانية يعلن انه في جميع البلاد الاوربية توجد دولة داخل الدولة
تسيطر عليها مشاعر العداوة وتسعى لاذلال المواطنين وهي المجتمع اليهودي • يضيف بدوره
• ان خطورة تلك الدولة الخفية • يقصد بذلك المجتمع اليهودي • ليست تكمن في انها تكون
دولة منفصلة متجانسة • وانما لانها تؤسس وجودها على كراهية الجنس البشري •.

في مواجهة هذه الاثارة العامة بالاختصار او على الاقل بالتميز ضد اليهودي • ظهرت
حركة ادبية واسعة النطاق بقصد القضاء على اسطورة اليهودي الشهود • بدأت بفكرة عديدة انطلقت
من اوربا الوسطى وكذلك من اوربا الغربية في محاولات جادة بقصد تخليف صورة الطابع القومي
اليهودي •

لنستطيع ان نفهم الدعوة الصهيونية يجب ان نعود الى تلك الاصول التاريخية السابقة
ايضا على وجود المذهب الصهيوني •

٥ـ متابعة الادب الصهيوني كأداة من أدوات الدعوة العقيدية في حاجة الى دراسة على حدة
على اننا لنستطيع ان نفهم الصهيونية السياسية وصفة خاصة العقيدة السياسية في ابعادها
الدعائية يتعين علينا ان نعود ولو بايجاز لمتابعة بعض مظاهر الادب اليهودي السابق على نشأة
الصهيونية لنرى كيف كان هذا الادب هو المصدر الاول لتأصيل الدعوة العقيدية الصهيونية •
وهنا نلحظ الفارق الواضح بين المذهب الصهيوني والمذاهب السياسية الاخرى • ان الادب
الشيوعي على سبيل المثال كان لاحقا للعقيدة الشيوعية ولم يكن سابقا عليها • ثبت يؤكد
دفاعه عن تلك العقيدة المتكاملة السابقة على وجوده على عكس الادب الصهيوني الذي قدم
للصهيونية السياسية بحيث يمكن القول بأنه صهيوني سابقة على الصهيونية اسباب ذلك عديدة :

أولا : المجتمع اليهودي لم يكن يملك لغته القومية بل كان يستخدم اما اللغات الاجنبية للمجتمع
الذي يعيش فيه • واما خليط من تلك اللغة مع بعض الكلمات العبرية • احياء الوعي القومي اليهودي
كان يجب ان يسير في مسلكين : رفض الاندماج من جانب والتمسك باللغة العبرية من جانب آخر •
وهكذا كان من الطبيعي ان تبرز حركة ضخمة خلال القرن التاسع عشر وقبل ان تتجه الحركة
الصهيونية نحو فلسطين في مؤتمر بال عام ١٨٩٧ بأكثر من قرن نحو احياء ادب قومي يوفر
حقيقته اعادة للذات القومية وتمسك بالهوية اليهودية من النصف الثاني من القرن السابع عشر

هذا الادب العبري يحمل الطابع السياسي : المذاهب في سهل المساواة والقضاء بالسلطة الطوق محروان للفكر الادبي لايمكن ان يقودا الا الى العقيدة السياسية .

• بابني " يكتب في عام ١٨٥٤ : " انني اري الان ان الافريق كانوا مجرد فصيلة يعملون بالوسامة ، بينما كان اليهود دائما رجالا اقوياء لا يقهرون . " على اننا لنصل الى تلك العبارة علينا ان نتابع تطورات عديدة تعكس المراحل المتتابعة خلال قرن كامل في عملية الدفاع عن الطابع القومي اليهودي .

ثانيا : كذلك عامل اخر ادى الى ايقاع تلك الحركة الادبية وهو حركة العبرية الادبية التي عاشتها اوربا عقب الثورة الفرنسية . والواقع ان الانتاج الفكري اليهودي لم يوضع الا خلال تلك الفترات التي امتازت بالحرية الفكرية . فأولا خلال الحكم العربي في الاندلس ثم عندما تعرف الاسلام في المشرق بالدين اليهودي سجل الشعب اليهودي لعالم انتاجاته الدينية والفلسفية . الظاهرة تكررت في القسطنطينية في اواخر القرن الخامس عشر حيث ازدهر مركز ثقافي يهودي كان قبلة جميع الحكماء من جانب تلك الجماعة . نفس الظاهرة تعود فتتكرر في نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر . خلال النصف الاول من ذلك القرن ظهرت في شرق اوربا حركة " الهاسكال " التي كانت نوعا من انواع عصر النهضة بالنسبة للمجتمع اليهودي .

فترات الابداع الفكري في التاريخ اليهودي ارتبطت دائما بتأكيد دعوى الشعب المختار الذي تحسده جميع الشعوب الاخرى لان المسيح انبعث من بينهم ولان هذا المجتمع هو وحده الذي يمثل القيادة الفكرية .

٦ــ لو اقتصرنا على القرن التاسع عشر وحاولنا ان نجد بعض النماذج المعبرة لهذا الادب المعد للصهيونية لوجدنا من بين النماذج الواضحة القصة المشهورة باسم " هاريتجتون " للمؤلفة الانجليزية " ماريا اوجسورف " . هذه القصة نشرت عام ١٨١٧ باللغة الانجليزية تحاول ان تقدم فيها كاتبتها صورة جديدة للشخصية اليهودية . ورغم انها تسعى لتظليف اليهودي الا انها تقدم هذا الاخير على انه شخص متسامح يؤمن بالقيم ويحترم التقاليد . عقب ذلك بأقل من عشرين عاما يقدم لنا د زرائيلي ، وقبل ان يصير رئيسا لمجلس الوزراء البريطاني ، في قصته " دانيد الروي " نموذجا آخر لليهودي : انه الرجل المتعصب ، المؤمن بأصله ، الذي يرفض الاندماج ويأبى الا تأكيد حقه في قيادة الانسانية . ونستطيع ان نضيف الى ذلك رواية " جورج اليوت " بعنوان " دانييل ديروندا " التي تحاول ان تصحح فيها من تعصب د زرائيلي ولكنها تخطو خطوة اكثر

الحوال وتواجه الضعف بل ولا امكانية التنبؤ بالنسبة للمستقبل . فعلم التنبؤ السياسي يستطيع ولا في ابعاد معينة ، عندما يحدد الشيء الى اصوله فيحدد مقوماته وعناصره اي الذرات التي يتكون منها ذلك الشيء ان يتصور حركات تلك الذرات في المستقبل القريب او البعيد وبالتالي يستطيع ان يتصور ما سوف تؤول اليه العلاقة بين تلك المقومات بعد فترة معينة من الزمن ، وقد يبني تصورات اساسية .

بالتركيز جانب المستقبل وما يرتبط به من تنبؤات ولنقف ازاء الماضي والحاضر .

١٠ — نستطيع ان نعرف الصهيونية بأنها تلك العقيدة السياسية التي تقوم على اساس دعوة جميع اليهود للعودة الى الارض المقدسة لتكوين الدولة الا سرائيلية استجابة الى الامر الالهي الذي يفرض على تلك الجماعة اداء وظيفة حضارية في قيادة الانسانية المعذبة نحو الكمال الروحي .

من هذا التعريف نستطيع ان نحدد الخصائص العامة التي تميز الصهيونية كعقيدة وكمذهب لايقتصر على مجرد تفسير القائم او تبريره وانما يسعى الى ذلك التغيير الذي هو جوهر المذهب السياسي بحيث ان الاوضاع القائمة لابد ابتداء من تصور معين للحركة السياسية ان تعود الى بناء مجتمع جديد :

اولا : هو عقيدة سياسية

ثانيا : وهي عقيدة ترتبط باقليم معين

ثالثا : وهي عقيدة ذات جوهر ديني

رابعا : وهي تعبير عن مبدأ القومية السياسية .

خامسا : وهي مدعوة لاداء وظيفة حضارية .

سادسا : وهي تعبير عن مفهوم الدولة .

سابعا : وهي تملك تصورها للتاريخ .

ثامنا : وهي تملك ادراتها الحركية .

فلنتابع هذه العناصر بالتفصيل .

١٢ — الصهيونية اولا هي عقيدة سياسية . والعقيدة السياسية تعني نظام كامل للقيم وتفسير شامل للوجود الانساني فضلا عن تصور معين للسلطة ولممارسة السلطة في داخل المجتمع المنظم . فالعنصرية على سبيل المثال تقوم على اساس السيادة التي مردها الصفات العضوية . ومن ثم فالشعب المختار هو الذي يحكم الشعوب الاخرى ، والطبقة هي التي تسيطر على الشعب المختار ،

تأكيدا من الاقتراب من الصهيونية السياسية ، هي دفاعها عن ان فلسطين هي المكان الوحيد الذي يستطيع ان يتجمع فيه اليهود لانهاء حياة المنفى .

٧ـ لو تركنا جانبا هذه الفترة السابقة على الدعوة الصهيونية ثم الفترة اللاحقة لها وحتى انتقال الحركة الصهيونية الى القارة الجديدة ، اى حتى عام ١٩٣٩ لكان علينا ان نثير اكثر من تساؤل واحد . تتبع جميع هذه التساؤلات من محور اصيل : لماذا هذا الاهتمام بالحركة الدعائية للصهيونية السياسية واساليبها في الخطاب خلال هذه الفترة بوغم انها لا تتجاوز ثمانية اعوام ؟ ولماذا الفترة بالذات رغم انها لم تهتم سوى بالرأى العام الامريكى ؟ .

الواقع ان هذه الفترة هى التى انتهت بخلق تيار من الرأى العام الامريكى ليس فقط بين اليهود انصار العقيدة الصهيونية بل وبين غير اليهود من المجتمع الامريكى كموجة دافقة حملت مراكز القوة في المجتمع السياسى الامريكى الى اتخاذ موقف الدفاع عن قضية انشاء الدولة العبرية . تبدأ هذه الفترة فى اعقاب الازمة الاقتصادية العالمية ، حيث لاسباب عديدة الحركة الصهيونية تعانى جزرا مخيفا وامواجهة حقيقية ايضا من بين اليهود غير الصهيونيين . السياسة البريطانية تتخلى عن القضية اليهودية . وحركة خفية تارة واضحة صريحة تارة اخرى تعلن عن تعصب حقيقى ضد السامية وتدعو الى اتخاذ مواقف عنيفة فى مواجهة الاصل اليهودى . تنتهى هذه الفترة وعقب تعظيم وتخطيط استغرق اقل من خمسة اعوام اى ابتداء من عام ١٩٤٣ بنجاح ساحق : جميع الاحزاب الامريكية تعلن عن تبنى القضية وجميع القوى السياسية تتهارى فى الدفاع عن القضية ، وهذا الدفاع يتبلور فى شكل وثيقة دولية تؤكد شرعية الوجود الاسرائيلى فى ارض فلسطين .

هذا النجاح يكفى للاهتمام بهذه الفترة .

ولكن ما هى اهمية دراسة هذه الفترة بالنسبة للقضية العربية فى هذه اللحظة التى نعيشها ؟

٨ـ الواقع ان النواحى التى تفرض علينا الاهتمام بالدراسة العميقة للحركة الصهيونية فى ابعادها الدعائية خلال تلك الفترة تعدو مجرد الفضول العلمى .

فهم وتحليل كيف نجحت ولماذا نجحت الدعاية الصهيونية يقدم لنا نموذجا لحركتنا الدعائية فى الاعوام القادمة . الوقائع التى نعيشها ابتداء من ايقاف اطلاق النار اثبتت ان الوجود الاسرائيلى لم يعد من الممكن ولفترة غير قصيرة منازلته عسكريا . والبديل للصراع الجسدى هو

الصراع النفسي . هذا الصراع الاخير يرتبط في جوهره بعملية اقتناع دفينه في مراكز القوى الحساسة في العالم الغربي . ومواجهة هذا الوضع لن يقدر له الفاعلية الا اذا كانت الحركة منبعثة من داخل المجتمع الاوربي والامريكي وفي شكل رأي عام محلي يقف مؤيداً للقضية العربية موقف المساند .

كيف يمكن ذلك ؟

النماذج الوحيدة التي قد تفيدنا في هذا الشأن لاتعدو ثلاثة :

حركة الطلبة الخامس الثانية ، حركات الحزب الشيوعي المحلية ، ثم الحركة الصهيونية . الاولى بعيدة عن الواقع المعاصر للقضية العربية لانها تفترض افتراضات تدين بالولاء لحزب اجنبي وتتحمل الدفاع عن وجهة النظر التي يدافع عنها ذلك الحزب دون ان يترتب على ذلك ان تفقد تلك الاقلية او تتعرض لان تفقد وجودها العضوي في تلك الجماعة على ان العنصر الاساسي الذي يجب ان نضيفه الى ذلك الافتراض هو حالة التمزق النفسية لذلك المجتمع اذاة الدعوة العقيدية .

حركات الحزب الشيوعي المحلية وتعود بصورة او اخرى لنفس المفهوم مع خلاف في بعض الابعاد النفسية .

على العكس من ذلك الحركة الصهيونية هي أقرب النماذج الى واقعنا المعاصر . هي تنبعث من قوى دخيلة على المجتمع الاصلي تتصف بصفات التناقض في علاقتها بالمجتمع العام الكلي فضلا عن عدم الثقة ان لم يكن الابتعاد . وهذا هو واقع الاقليات العربية التي توجد في المجتمعات الاوربية او الامريكية والتي يمكن ان تتخذ نقطة انطلاق في نشر الدعاية العربية عقب اجتذابها الى الدعوة العربية .

٩ـ كذلك فان متابعة الحركة الصهيونية خلال تلك الفترة تثير ناحية اخرى وهي المتعلقة باستخدام كتابة التاريخ وصفة عامة التعبيرات الادبية كأداة من أدوات الدعوة العقيدية والدعاية السياسية . الحركة الصهيونية لم تكتب حتى الان بما يعكس وجهة النظر العربية . تاريخ الوجود اليهودي ، بعبارة اخرى ، وتحليل الوثائق والمصادر من خلال منظار القضية العربية لم يقدر له بعد الوجود . كل كتاباتنا تدور في جزئيات دون اي محاولة جادة للانطلاق في استخدام كتابة التاريخ كأداة من ادوات الدعوة العقيدية . ويبدو هذا بشكل واضح في الكتابات باللغات الاجنبية حتى ان العالم الانجليزي المشهور " بومبر " في مقدمة كتاب " كوهن " بعنوان " اسرائيل والعالم العربي " لم يتردد في ان يتساءل : الى متى لن يقدر لنا ان نستمع الى

لصة التاريخ تروى بلسان احد العرب؟ يضيف تاكلا " فلنترك انفسنا نأمل انه قد يحدث فى
ن من الايام ان مثل ذلك الكاتب العربى قد يأخذ على عاتقه هذه المهمة ويحقق ذلك الذى
لم نجده حتى الآن ". على العكس من ذلك فان الادب اليهودى وابتداء من اوائل القرن
التاسع عشر وتحديدا فى ذلك تغير المنهاجية التى سهته اليها الادب الالمانى بقيادة " موسن "
وزملائه راح يعيد كتابة التاريخ دون ان يقف عند مجرد تسجيل الوقائع من وجهة نظره بل
وصل به الامر الى القيام بعملية تشويه منظمة للتاريخ العربى . ولم تقتصر حركة التأليف اليهودى
على الدفاع من جانب والتشويه من جانب آخر بل واتجهت فى بعد ثالث ونوعا اسماه الكاتب
الانجليزى "جنز" اليهود والكنيسة الكاثوليكية فى محاولة خلق عملية ربط وتتابع بين الحضارة
اليهودية والحضارة المسيحية . الذى يجب ان نلاحظه هو ان هذه الحركة لا تعود الى الماضى
القريب حتى ان المؤرخ السابق ذكره "جنز" خصص لها فصلا كاملا فى كتابة عن " التاريخ
والمؤرخون فى القرن التاسع عشر " والذى صدر فى عام ١٩١٣ .

— ٢ —

الصهيونية السياسية والتعريف بمقوماتها العقيدية

١٠ — يندر ان نجد تعريفا علميا واضحا ومحددا للصهيونية . جميع المحاولات بخصوص هذا
المفهوم لا تعدو ان تكون متابعة تاريخية او دراسة فكرية للمثل الصهيونية . ورغم ذلك فان التحديد
بمقومات هذا المفهوم كحقيقة سياسية او كمذهب يفترض تصورا معينا للوجود ضرورة بالنسبة للفكر
العربى وهو يواجهه خصما لا يعرف من حقيقته سوى فقط تلك الشعارات التى تنطلق من نفسية
العدو بحيث لا تعبر الا عن ذلك القسط الذى يريد العدوان يفهم عنه . الصهيونية مذهب
سياسى . وهى بهذا المعنى احد المذاهب الثلاثة التى غمرت القرن التاسع عشر والتى سيطرت
ولا تزال تسيطر على الاحداث السياسية التى نعاصرها ابتداء من الثورة الفرنسية حتى اليوم :
القومية ، الشيوعية ، ثم الصهيونية . واذا كانت هنالك مذاهب اخرى قد لها ان توجد او تتفرع
من هذه المذاهب الثلاثة فانها محدودة الاهمية او على الاقل لم يقدر لها التطبيق الواقعى .
فلنذكر على سبيل المثال : النقابية والفوضوية . والسؤال الذى يتحتم علينا ان نثيره هو : ايمن
الصهيونية من هذه المذاهب السياسية ؟ بعبارة اخرى ما هو جوهرها وما هى مقوماتها وكيف
نصفها كمذهب سياسى فى خريطة الايديولوجيات السياسية المعاصرة ؟ اهمية الاجابة على هذا

السؤال وواضح الضعف بل ولا امكانية التنبؤ بالنسبة للمستقبل . فعلم التنبؤ السياسي يستطيع ولو في ابعاد معينة ، عندما يحيد الشيء الى اصوله فيحدد مقوماته وعناصره اي الذرات التي يتكون منها ذلك الشيء ان يتصور حركات تلك الذرات في المستقبل القريب او البعيد وبالتالي يستطيع ان يتصور ما سوف تؤول اليه العلاقة بين تلك المقومات عقب فترة معينة من الزمن ، وقد تبنت منظورات اساسية .

فلنترك جانب المستقبل وما يرتهن به من تنبؤات ولنقف ازاء الماضي والحاضر .

١١ — نستطيع ان نعرف الصهيونية بأنها تلك العقيدة السياسية التي تقوم على اساس دعوة جميع اليهود للعودة الى الارض المقدسة لتكوين الدولة الاسرائيلية استجابة الى الامر الالهي الذي فرض على تلك الجماعة اداء وظيفة حضارية في قيادة الانسانية المعذبة نحو الكمال الروحي .

من هذا التعريف نستطيع ان نحدد الخصائص العامة التي تميز الصهيونية كعقيدة وكمذهب لا يقتصر على مجرد تفسير القائم او تبريره وانما يسعى الى ذلك التغيير الذي هو جوهر المذهب السياسي بحيث ان الاوضاع القائمة لابد ابتداء من تصور معين للحركة السياسية ان تعود الى بناء مجتمع جديد :

أولا : هو عقيدة سياسية

ثانيا : وهي عقيدة ترتهن باقليم معين

ثالثا : وهي عقيدة ذات جوهر ديني

رابعا : وهي تعبير عن مبدأ القومية السياسية .

خامسا : وهي مدعوة لاداء وظيفة حضارية .

سادسا : وهي تعبير عن مفهوم الدولة .

سابعا : وهي تملك تصورها للتاريخ .

ثامنا : وهي تملك ادراتها الحركية .

فلنتابع هذه العناصر بالتفصيل .

١٢ — الصهيونية اولا هي عقيدة سياسية . والعقيدة السياسية تعني نظام كامل للقيم وتفسير متكامل للوجود الانساني فضلا عن تصور معين للسلطة ولممارسة السلطة في داخل المجتمع المنظم . فالنصرية على سبيل المثال تقوم على اساس السيادة التي مردها الصفات العضوية . ومن ثم فالشعب المختار هو الذي يحكم الشعوب الاخرى ، والطبقة هي التي تسيطر على الشعب المختار ،

والوهم الاله هو الذى يقود الدابة المختارة من خلالها يقود الشعب المختار لاداء الوظيفة التاريخية التى فرضتها عليه الارادة الالهية لخدمة الانسانية • اين الصهيونية كعقيدة سياسية من هذه الدعوة ؟ على ان هذه الدعوة ترتبط باقليم معين وارض معينة بحيث لا يمكن فصل كلمة صهيونية من ارض اسرائيل • وهنا أول ما يجب ان نلاحظه هو ان الصهيونية السياسية تبدأ خارج الارض التى بها تلتصق وجودا وحدما من الناحية الفكرية • وهى بهذا المعنى تكاد تحاكى ما الماركسية : فكارل ماركس صاغ فلسفته بين فرنسا وبريطانيا ولكنها عندما طبقت استوحتها الحضارة الروسية ، ارضا اخرى غير تلك التى نبتت فيها المبادىء الاشتراكية • ورغم ذلك فلا يزال هناك فارق اذا قارنا بين الماركسية والصهيونية : فالصهيونية نشأت قبل وجود الدولة الاسرائيلية على عكس الماركسية وأى مذهب سياسى آخر نهج من داخل المجتمع السياسى الذى اليه ينتمى • أو بعبارة اخرى ان المجتمع الاسرائيلى امتداد للمذهب السياسى وليس العكس كما هو فى جميع المذاهب السياسية المتداولة • ولعل هذا يفسر ايضا لماذا نجد ان هذه العقيدة السياسية ذات جوهر ومضمون دينى : انها استجابة لدعوة الهية وهى لا تملك سوى ان تصاغ لتلك الدعوة • وهنا نلحظ الفارق الجوهرى بين القومية والماركسية من جانب والصهيونية من جانب آخر • المذاهب السياسية بصفة عامة لم تنشأ الا خلال القرن التاسع عشر كرد فعل ونتيجة لظهور الدولة القومية وتكاملها كظاهرة سياسية • المذاهب السياسية بهذا المعنى هى وليدة عصر النهضة وتعبير سياسى عن حقيقة ذلك التصور : عصر النهضة يقوم على اساس الغاء اى علاقة وسيطة بين المواطن والدولة من جانب ، ومن جانب آخر التسليم بأن الفرد يستطيع بعقله فقط ان يصل الى السعادة الدنيوية • وهكذا تقوم فلسفة عصر النهضة على اساس الغاء تقاليد العصور الوسطى ورفض التراث الدينى كأحد مقومات العالم السياسى • واذا كانت القومية لا ترفض الحضارة الكاثوليكية الا انها تفقد وجودها بل وتلغى ذلك الوجود فى النطاق السياسى • الماركسية تخطو خطوة اكثر صرامة انها تلغى الدين من عالم القيم الفكرية • الصهيونية تأتى فتربط الماضى بالحاضر ومن خلال قنوات العقيدة اليهودية وهى بذلك تتميز عن جميع المذاهب السياسية الاخرى من حيث جوهرها ومضمونها •

١٣ — على ان الصهيونية ورغم ذلك المضمون الدينى فانها لا تنكر انها استمرار ومتابعة لمبدأ القومية السياسية كما عرفته الجماعات الغربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر • ما معنى القومية السياسية ؟ مذهب قد يبدو واضحا لاول وهلة ولكن محاولة تحليل مقوماته يثير الكثير من

القانونا ومع ذلك فمستدايج ان نعترف بانه يعني ان كل امة او كل شعب يملك حقه في تقرير مصيره .
الحق في تقرير المصير له ابعاد عديدة : من حيث علاقة الجماعة بالجماعات الاخرى فهي علاقة
استقلال وعدم تبعية . ومن حيث علاقة الامة بمقوماتها فهي علاقة مساواة وعدم تمييز . ولكن هذا
التحديد لا يكفي : القومية تقود الى نتائج محددة اساسها ان كل شعب يملك اقليمه التاريخي
لا يعبر عن وجوده الا بتنظيم سياسي واحد وان التنظيم السياسي لا يعبر ولا يتحدث الا باسم شعب
واحد يحدد مكانا وزمانا فضلا عن علاقة الاستمرارية التاريخية التي تتبلور في شكل وعي جماعي يستند
الى اصول مشتركة ويعبر عن ذاته بلغة واحدة وآمال واحدة ونماذج سلوكية واحدة . لو تركنا جانبا
ما تتضمنه هذه العبارات من مفاهيم معقدة يغلب عليها الطابع الفلسفي ووقفنا امام الجوهر الحقيقي
لوجدنا ان القومية تتركز في كليات ثلاث : شعب ، اقليم تاريخي ، دولة واحدة . الصهيونية تحاسن
مراحة من انها لا تحد وان تكون بالنسبة للوجود اليهودي استمرارا ومتابعة وتأكيد لهذه المفاهيم
التي هي جوهر مذهب القومية السياسية .

على ان الصهيونية تختلف عن القومية . لقد سبق ان رأينا انها ذات طابع ديني او على الاقل
احد مقوماتها مضمون ديني على عكس مبدأ القومية السياسية . على ان الواقع ان الصهيونية
حلا كما للقومية لا تخاطب فقط انصارها او من ينتمون اليها . وظيفتها لا تقف عند حد مواجهة الشعب
اليهودي . ان الصهيونية مدعوة لان تؤدي وظيفة حضارية وان تقود الانسانية في ابعادها الفكرية
والثقافية خلال مراحل معينة من مراحل التقدم الانساني . وهنا نجد الصهيونية تقترب من احد
تجليات القومية السياسية وهو النازية الجرمانية . فكرة الوظيفة الالهية التي هو شعب معين لان
يؤديها في لحظة معينة والتي هي جوهر فلسفة هيجل لم يقدر لها ان تتبلور كمذهب سياسي واضح
الا على يد آباء الجرمانية الجديدة وبصفة خاصة روزنبرج وزملائه .

١٢ — كذلك الصهيونية تربط نفسها وجودا وعدما بفكرة الدولة . وهنا نلحظ بشكل واضح الفوارق
بين الصهيونية والمذاهب الاخرى وبصفة خاصة كلا من مذهبي الفوضية والفوضية . الصهيونية لم تنشأ
من الدولة كما هو بالنسبة للماركسية والفوضية . ولم تنشأ لاجل تطوير الدولة كما هو بالنسبة للنقابية
والفوضية . ولم تنشأ لتكامل الدولة من حيث الاستقلال وعدم التبعية كما هو بالنسبة للقومية . ولكنها
نشأت لتبرير خلق الدولة اي الدولة العبرية .

وهي بهذا المعنى اي من حيث علاقة المذهب الصهيوني بالمواطن اليهودي تتضمن شورة
خفية ، ثورة على الوضع القائم الذي ميز القرن التاسع عشر والذي اساسه الاستسلام وتقبل حكم القدر

وجود لها. تقديم جديد للعلاقات الاجتماعية والسياسية التي تربط المواطن اليهودي بالتعبيرات الثقافية من وجوده الحضاري. اساس هذا التنظيم الجديد هو العودة الى ارض الميعاد وخلق نظام خيز للوجود والحياة ونموذج مختلف لليهودي تعبيرا عن هذا الدعوة الاصيلة.

جوهر الوجود وحقيقة التاريخ يتحدد بن ثم في حقيقة واحدة: العذاب والالم. الانسان وجد ليقاوم ويكافح لكي يكون اكثر صلاحية لاداء الوظيفة المختارة. الالم هو الذي يميز الانسان عن غيره من الكائنات الحية، كما يميز الانسان في علاقته بالاخرين. هذا العذاب والالم هو الذي يخلق الحركة في المجتمعات الى الامام وهو الذي يضفي على الحقيقة البشرية فردا كان او جماعة صفة النبل والكرامة الخلاقة. الشعب اليهودي في صراعه مع الاجناس الاخرى وهو وحده الذي استطاع ان يدفع بالانسانية بهذا المعنى ولذلك فمن حقه وواجبه ان يقوم بهذه الوظيفة القيادية.

١٥ـ الصهيونية مذهب سياسي والمذهب السياسي يعني حركة والحركة تفرض اكتشاف ادوات للانتقال من الواقع بما فيه من عيوب الى الصورة المثالية بما تعنيه من تحقيق الاهداف التي تسعى اليها الحركة. الاشتراكية جعلت اداتها الحزب الشيوعي على سبيل المثال. فما هي ادوات الصهيونية السياسية؟ الوكالة اليهودية؟ الدعاية الصهيونية؟ الدولة العبرية؟ اسئلة جميعها في حاجة الى اجابة.

١٦ـ الصهيونية هي اولا وقبل كل شيء اخر عقيدة او بعبارة اكثر دقة مذهب سياسي. وكل محاولة لفهم القرن التاسع عشر وصفه خاصة العشرين دون جعل نقطة البداية والمحور الرئيسي للتحليل هو الصراع الفكري والصدام المذهبي فيه تلك الفترة هو محاولة فاشلة اهم العقائد التي سيطرت على تلك الحقبة من تاريخ الانسانية والتي يمكن ان توصف بأنها تنطلق من احداث الثورة الفرنسية ثلاثة: الديمقراطية، القومية، الماركسية. الصهيونية تأتي فتصير امتدادا لكلا المبدأين الثاني والثالث. ثم انها سوف تصل الى ان تثبت اصالة تهدد عن احداث القرن التاسع عشر، وسوف تزعم وهذه حقيقة يؤيدها التاريخ انها اقدم من الثورة الفرنسية، وان مبادئها الحقيقة تستمد جذورها من حضارة العصور الوسطى، الا ان القومية السياسية هي التي قدمت للصهيونية لغة التخاطب ومفاهيم الاتصال الفكري.

الثورة الفرنسية وما انتهت هي التي خلقت ذلك الاطار العام للتطور السياسي الذي سمح لمثل هذه العقيدة بأن تنساب في الوعي الجماعي والاوربي بحيث تجد قبولا ولو من بعض فئات القوى المثقفة وطالما كان من حق كل مجتمع سياسي يملك مقومات الشعب او الامة المتميزة عن غيرها من

جميع صفاتها المضمونة والحضارية والتاريخية ان يكون ذا وحدة وكيان سياسي مستقل لا يخضع لاى سيطرة اخرى بحيث يملك تقرير مصيره فلماذا لانسلم بنفس هذه الحقوق للمجتمع اليهودى ؟ وأليس هذا التسليم هو النتيجة المنطقية لرفضنا بأن نسمح لذلك المجتمع من ان يندمج وينصهر فى المجتمع الاوربى ؟ وكما ان هذا المنطق ، منطق القوميات لابد وان يقود الى التسليم بالقومية اليهودية . فكذلك منطق الحرية والعدالة والمساواة لابد وان يقود الى رفع اليهود الى مستوى الاخرين . لقد قامت الثورة الفرنسية على اساس الغاء جميع انواع التفرقة والتمييز . فكيف يصل بنسا الأمر الى الغاء التفرقة حتى بين الاسود والابيض وبين سكان المستعمرات وابناء القارة الاوربية ثم نرفض ذلك على اليهودى الذى وقم خيانته المشهورة الا انه انما ينتمى الى نفس التقاليد — ولو جزئيات — الكاثوليكية ؟

ورغم ان هذا يتضمن نوعا من التلاعب بالمنطق السياسى ، حيث ان مبدأ القومية يقوم على اساس الارتباط الدائم المتصل باقليم معين بحيث يصير فى ذاته وسيلة وجبرا لرفع سيطرة شعب اجنبى على شعب تفاعل مع ذلك الاقليم فى مواجهة تلك السيطرة ، وهو أمر لم يتحقق بالنسبة للقومية اليهودية خلال القرن التاسع عشر الا انه مجرد هذا التصوير للصهيونية السياسية يفترض نتائج معينه اساسها ان معنى كون الصهيونية مذهب سياسى ، انها تتضمن جميع مقومات المذهب السياسى ، وبصفه خاصة :

ا) انها تفترض تصورا معينا للسلطة ولممارسة السلطة .

ب) انها حقيقة حركية ، فهى تسعى لتحقيق اهداف معينة قد حددتها مقدما واعلنت عنها كمحور للنشاط المنبعث من ذلك المذهب .

جـ) وهى قد حددت ادوات تحقيق ذلك المذهب اى الانتقال من الخيال والمثالية والتصور الى الواقع والتنفيذ .

د) وهى بصفة خاصة جماهيرية فهى تخاطب المجموع وتتجه الى الجماعة وتسعى لتحقيق اهدافها من طريق التكتل الجماهيرى والوحدة الحركية .

١٢ — واذا كان المجتمع اليهودى خلال القرن التاسع عشر يملك جميع مقومات الشعب او الامة دون الاقليم فكيف يمكن تصور الصهيونية كمذهب سياسى ينبع من مبدأ القومية ؟

الواقع لو سلمنا مقدما بصحة عناصر هذا السؤال لكان معنى تطبيق مبدأ القومية الذى نبعت منه الفلسفة الصهيونية هو التسليم بحق اليهود بالمطالبة بالانفصال عن المجتمع السياسى الذى ينتمون اليه . فمثلا اليهود فى روسيا الذين كانوا يكونون مناطق كاملة حيث لا يقطنها سوى اليهود او اغلبية يهودية ، فى مثل هذا المنطق السياسى ، يصير من حقها الاستقلال والانفصام عن المجتمع

حيث صفاتها المذهبية والحضارية والتاريخية ان يكون ذا وحدة وكيان سياسى مستقل لا يخضع لاى سيطرة اخرى بحيث يملك تقرير مصيره فلماذا لا نسلم بنفس هذه الحقوق للمجتمع اليهودى ؟ وأليس هذا التسليم هو النتيجة المنطقية لرفضنا بأن نسمح لذلك المجتمع من ان يندمج وينصهر فى المجتمع الاوربى ؟ وكما ان هذا المنطق ، منطق القوميات لابد وان يقود الى التسليم بالقومية اليهودية ، فكذلك منطق الحرية والعدالة والمساواة لابد وان يقود الى رفع اليهود الى مستوى الاخرين . لقد قامت الثورة الفرنسية على اساس الغاء جميع انواع التفرقة والتمييز ، فكيف يصل بنا الأمر الى الغاء التفرقة حتى بين الاسود والابيض وبين سكان المستعمرات وابناء القارة الاوربية ثم نرفض ذلك على اليهودى الذى رغم خيانته المشهورة الا انه انما ينتمى الى نفس التقاليد — ولو جزئيات — الكاثوليكية ؟

ورغم ان هذا يتضمن نوعا من التلاعب بالمنطق السياسى ، حيث ان مبدأ القومية يقوم على اساس الارتباط الدائم المتصل باقليم معين بحيث يصير فى ذاته وسيلة وسببا لرفع سيطرة شعب اجنبى على شعب تفاعل مع ذلك الاقليم فى مواجهة تلك السيطرة ، وهو أمر لم يتحقق بالنسبة للقومية اليهودية خلال القرن التاسع عشر الا انه مجرد هذا التصوير للصهيونية السياسية يفترض نتائج معينة اساسها ان معنى كون الصهيونية مذهب سياسى ، انها تتضمن جميع مقومات المذهب السياسى ، وبصفة خاصة :

ا) انها تفترض تصورا معينا للسلطة ولممارسة السلطة .

ب) انها حقيقة حركية ، فهى تسعى لتحقيق اهداف معينة قد حددتها مقدما واعلنت عنها كمحور للنشاط المنبعث من ذلك المذهب .

حـ) وهى قد حددت ادوات تحقيق ذلك المذهب اى الانتقال من الخيال والمثالية والتصور الى الواقع والتنفيذ .

د) وهى بصفة خاصة جماهيرية فهى تخاطب المجموع وتتجه الى الجماعة وتسعى لتحقيق اهدافها عن طريق التكتل الجماهيرى والوحدة الحركية .

١٧ — واذا كان المجتمع اليهودى خلال القرن التاسع عشر يملك جميع مقومات الشعب او الامة دون الاقليم فكيف يمكن تصور الصهيونية كمذهب سياسى ينبع من مبدأ القومية ؟

الواقع لو سلمنا مقدما بصحة عناصر هذا السؤال لكان معنى تطبيق مبدأ القومية الذى نبعت منه الفلسفة الصهيونية هو التسليم بحق اليهود بالمطالبة بالانفصال عن المجتمع السياسى الذى ينتمون اليه . فمثلا اليهود فى روسيا الذين كانوا يكونون مناطق كاملة حيث لا يقطنها سوى اليهود او اغلبية يهودية ، فى مثل هذا المنطق السياسى ، يصير من حقها الاستقلال والانفصام عن المجتمع

اليهود وتكوين مجتمع آخر مستقل يحكمه تقاليد وحضارة " اليهود الروسيون " كما حدث مثلا بالنسبة لتلك الدويلات العديدة التي تمخضت على طول بحر البلطيق والتي لا تزال حتى اليوم بمشكلاتها

ولكن الصهيونية على العكس من ذلك كان مدلول عقيدتها حقها في ان تغادر تلك المناطق لتبني وجودها السياسي الجديد في اسرائيل . من هنا يبدو التناقض الواضح بين مبدأ القومية والعقيدة الصهيونية ، وهو تناقض حرص دعاة الصهيونية على اخفائه ولم يحاول احد من تعرضوا لتحليل المذهب الفكري اليهودي على ابرازه . ويبدو حرص دعاة الصهيونية على اخفائه من ذلك التحوير والتبديل في عناصر المنطق السياسي .

فالصهيونية تجعل من عنصر الاقليم عنصرا ثانويا في التحليل الفكري للظاهرة القومية . يقول " هيلمير " وهو يتصدى للتعريف بمفهوم الصهيونية : " رغم ان الحركة السياسية هي احد العناصر الرئيسية في البرنامج الصهيوني ، الا انه لا يمكن تقييم الفكرة الصهيونية تقييما حقيقيا اذا نظر اليها فقط من الناحية السياسية . كذلك لا يجوز ان ينظر اليها على انها لحظة محددة من تاريخ التطور الاقليمي وقد تأسست — اي تلك اللحظة — على اعتبارات عملية مردها الى ان فلسطين في تلك اللحظة هي اكثر الاقاليم ملائمة للشعب اليهودي " . لو سلمنا بهذا القول لكان معنى ذلك انتفاء مبدأ القومية السياسية . لان القومية هي لحظة من لحظات التطور المرتبط بعلاقة شعب باقليم يعيش عليه . هو يشعر بأنه بحكم هذه العلاقة المرتبطة المستمرة المتكاملة اضحى من حقه ان يلقى عن جسده اي تدخل اجنبي .

— ٣ —

بين الدعاية والدعوة

١٨ — الدعاية ليست هي الدعوة .

الاولى تخلق شحنة انفعالية ، الثانية تسعى الى المنطق الذاتي تخاطبه الاولى لا تتردد في الكذبة الثانية تسعى الى الحقيقة . الاولى تريد ان تأسر غير المهتم او تقوى من صداقة الصديق والثانية فلا تخاطب الا من تريد ان تحيله الى مؤمن متعصب في ايمانه . الدعوة تسعى الى الالتزام ولكن الدعاية تفرض متابعة موضع التوجيه النفسي باصرار واصطراد خوفا من اكتشاف التلاعب والافلات من دائرة الحصار الفكري .

التمييز بين الدعاية والدعوة ليس بهذه السهولة . وليس ادل على صحة هذه الملاحظة من اننا لو تابعنا الثقافة المتخصصة في فن العمل الدعائي لما وجدنا اي تأصيل لهذه التفرقة . وذلك رغم

ان ... الفترة قديمة تاريخيا يمكن القول اجمالا انها تعود الى الحضارة الاسلامية احد الاركان
الحولة لظاهرة انتقال السلطة في تاريخ تلك الحضارة • ورغم ان هذه الظاهرة قد تهدو واضحة
في عملية انتقال السلطة من الخلفاء الراشدين الى العصر الاموى الا انها تصور احد الخصائص
الاساسية للدعوة العباسية وبالتالى في عملية انتقال السلطة والتحول عنها من جانب الدولة الامية •
فكرة الحكم التي ارتبطت بانتهاء علاقة على رغم انها تعني تصورا معينا لمصدر السلطة يمكن
انه يجب ان يكون مستقلا من القوى المتنازعة في الخلاف حول السلطة الا انها تقودنا بعمدا عن
فهم الدعوة العباسية • ولكن لو انتقلنا الى الثورة العباسية لوجدنا ان نقطة البداية في
استراتيجية الانقلاب هي ارسال الدعاة الذين قاموا من خلال المنابر وخطب الجمعة واستنادا الى
اسلوب الاتصال الشخصي لتصوير عملية انتقال السلطة على انها عودة الى التعاليم الاسلامية
الصحيحة والى تقاليد بيت الرسول +

١٩ — الدعوة بهذا المعنى تتصف بصفات معينة تميزها عن الدعاية رغم ان كلاهما نوع من انواع
الاتصالات للقوى المتنوعة :

اولا : الدعوة تفترض علاقة روحية معينة وانتماء عقيدى معين : بعبارة اخرى الدعوة لاتتجه الا الى
شخص يؤمن او على استعداد لان يؤمن على خلاف الدعاية التي تتجه الى شخص يقتنع او على
استعداد لان يقتنع • والفارق بين الايمان والاقتناع اساسى : الايمان هو انتماء هو استجابة
كلية شاملة يفنى فيها الفرد لا تقبل كمنطلق او كمفاهيم بل كوجود حركى • الاقتناع هو نوع من المناقشة
المجردة يتقبل وجهة نظر معينة • وكذا الدعوة تفترض عقيدة وهى نظام متكامل من القيم اما الدعاية
فانها لاتفصل سوى ان تحاول الانسياب في المنطق الفردى او الذاتى بصورة او بأخرى •

ثانيا : هذا الانتماء العقيدى في الدعوة يفسر ويفرض تقبل الرسالة في كمالها وكلياتها وابتداء
من هذا القبول يتم الايمان بالجزئيات • ان المؤمن بالاسلام لايمكن ان يناقش لماذا يتجه
بصلاته نحو الكعبة • ان هذه الجزئية تنبع من ايمانه بالعقيدة ومن ثم يرتبط بها روحيا في كلياتها
الامر الذى يفرض عليه احترام الجزئيات دون مناقشة • اما الدعاية فهى تبدأ من الاقتناع بالجزئيات
ان الدعاية منطق مفترض لذلك فهو لا يمدو ان يكون مجموعة من الحجج الجزئية الفرعية التي من
خلال الاقتناع بها لابد وان ينتهى الفرد بتقبل وجهة نظر معينة • وهكذا فان الالتحاق في المنطق
الدعائى يبدأ من الجزئيات وينتهى بالكليات على عكس الالتحام في منطق الدعوة اذ يبدأ من
الكليات ويفرض الجزئيات •

ثالثا : الدعوة رغم ذلك هى عاطفة تفسر الولاء وتفرضه ولعل هذا العنصر هو الذى قد يؤدى الى
الخلط بين الدعوة والدعاية ولكنه خلط لامبرر له • ذلك ان الدعاية لاتفترض اى علاقة ولاء ولا تفترض
اى علاقة روحية مسبقة • ان من تتجه اليه بالدعاية لاترتبط بمصدر الدعاية اى رابطة تفرض عليه
الاستماع او التجاهل •

رابعا : وهذا يقودنا الى تلك الناحية الاساسية التى تميز الدعاية من الدعوة من حيث لس الاتصال وهى عنصر الكذب. فالدعوة تقوم على الصراحة وتسعى الى الحقيقة. ورغم انها تفترض علاقة عاطفية الا انها لا تتدخل تلك العلاقة بل ترى فيها مبررا لان تكون صريحة وواضحة لا تتدالق الا من الحقيقة ولاجل الحقيقة. اما الدعاية فحتى عندما لا تلجأ الى الكذب فهى تقوم على اساس التلاعب بالحقيقة. انها تفترض حصارا فكريا لموضع الهجوم بحيث تقوده الى ذلك الذى ما كان يمكن ان يقبله لولا عملية الهجوم النفسى.

٢٠ - من متابعة الحركة الصهيونية قبل انشاء الدولة الاسرائيلية نلحظ الخلط بين الدعاية والدعوة. وقد كان هذا الخلط طبيعيا ففى خلال تلك الفترة لم تكن للدعاية اليهودية سوى غاية واحدة وهى تحلق جمهورها المتعصب. وهى لذلك لا تتجه الا الى ابناء المجتمع اليهودى او من ذلك المجتمع اوحتى هو على استعداد لمساعدة ذلك المجتمع للاستيطان فى ارض الميعاد او بصفة عامة للتخلص من ذلك الوضع غير الانسانى الذى ارتبط تاريخيا بالوجود اليهودى والذى جاءت حوادث النظام النازى واوضحت مدى تناقضه مع تقاليد القرن التاسع عشر وابرزت مدى بشاعته ازاء جميع القيم المتداولة فى تراث الحضارة الانسانية.

على اننا ونحن بصدد تقييم العمل الدعائى الصهيونى يجب ان نلحظ امرين :

اولا : ان الدعاية الصهيونية كانت تتجه اساسا خلال الفترة الى المجتمع الامريكى. والمواطن اليهودى فى المجتمع الامريكى على خلاف المجتمعات الاخرى فى التقاليد الاوربية كان يتمتع بموقف اجتماعى معين يجعله من جانب مستقل ومن جانب اكثر اختلاطا بالمجتمع الاصيل. فالمجتمع الامريكى فى تلك الفترة لم يكن سوى مجتمع الاقليات، وهكذا كان من الطبيعى ان يختلط الامريكى اليهودى بالامريكى غير اليهودى، خصوصا وان اللغة التى استخدمت فى عملية الاتصال كانت اساسا اللغة الانجليزية.

ثانيا : كذلك يجب ان نلاحظ انه ابتداء من انشاء مجلس الطوارئ للصهيونية الامريكية بل وقبل ذلك بفترة معينة كما سيرد ذكره فيما بعد يمكن القول بأنه ابتداء من عام ١٩٢٩ عندما وصل توسان الى الاشراف على اللجنة المختصة للعمل الاعلامى فان التمييز بين الدعاية والدعوة كان قد اضحى فى ذهن القائمين على الحركة الصهيونية.

لو عدنا الى الكتابات التى صدرت عن الدعاة اليهود فى خلال تلك الفترة او الخطب والتصريحات التى تعكس المفاهيم العامة المستترة خلف الدعوة اليهودية وبصفة خاصة المؤلفات غير اليهودية ولكن الصادرة بناء على المساعدة المالية للحركة الصهيونية نستطيع ان نكشف خصائص المنطق الدعائى اليهودى. من امثلة المؤلفات التى تسمح لنا بهذه العملية نذكر على سبيل المثال : ويلز " المصير الشرعى الفلسطينى " - " فيليبس " : امام محكمة التاريخ " زيلندمان " : " الاختبار الفلسطينى

للديمقراطية " — " ماكلون " : سينه القاطع الوحيد " — " فردريك " : " السياسة الامريكية تجاه فلسطين " — " جورنامن " : " لمن فلسطين ؟ كذلك نستطيع ان نسوق الكثير من المؤلفات التي تعكس هذا المنطق الدعائي وعلى سبيل المثال نذكر " اسرائيل كوهن " في مؤلفه المشهور عن الحركة الصهيونية والذي صدر عام ١٩١٢ حيث يقول في احدى صفحاته : " ان هذا الكتاب يمثل ناحية واحدة من نواحي النشاط الصهيوني أما الناحية الاخرى فتتألف من الدعاية الحاذقة المستمرة التي تقوم بها جمعيات لا تخص في كافة انحاء العالم ".

٢١ — ما هي مقومات ذلك المنطق الدعائي اليهودي ؟

رغم انه سابق لاوانه ان نقدم تلك الخريطة العامة التي من جزئياتها تتكون الفلسفة الدعائية الاسرائيلية بصفة خاصة والصهيونية بصفة عامة ، وكما انه كما سوف نرى في غير هذا الوضع يتعين علينا في فهم الدعاية الاسرائيلية ان نميز بين المداخل الفكرية ، الاساطير الدعائية ثم عناصر المنطلق الدعائي ، الا اننا لو عدنا الى تلك الكتابات السابق ذكرها فنستطيع ان نحصر تلك المفاهيم العامة التي تدور حولها فلسفة التعامل النفسي للصهيونية السياسية خلال تلك الفترة في عشرة رؤوس مواضيع لو تابعناها بتحليل عمقي لوجدنا انها تدور في دائرتين : دائرة ترتبط بالدعوة وأخرى ترتبط بالدعاية .

فأما عن الدائرة الاولى فنستطيع ان ندخل في نطاقها سبعة على الاقل من تلك المفاهيم وهذه نعرضها في متابعة منطقية :

أولا : الدولة اليهودية حتمية تاريخية ، انها امر لابد منه لانها نبوءة منزلة اعلنت عنها الثورة وردتها النصوص المقدسة وايدتها المنجزات المذهلة التي استطاعت ان تحققها اليهودية في فلسطين . جميعها تفرض حلا لا يمكن ان يكون الا بانشاء الدولة اليهودية .

ثانيا : الصهيونية هي استمرار لليهودية وهي التي تمكن من بقاء المجتمع اليهودي كجماعة مستقلة . انشاء الدولة الاسرائيلية سوف يمكن تلك الثقافة لا فقط من ان تفنى بل وان يغنى الحياة اليهودية الامريكية . ان اليهودي لن يستطيع ان يكتشف ذاته وان يعلن عن ذاته بأسلوبه المتميز الا اذا وجد في دولته المستقلة .

ثالثا : ان اليهود اينما وجدوا يكونون شعبا واحدا . وما يمكن ان يحدث لاي يهودي في اي ارض لابد وان يعكس آثاره على الاخرين . وأولئك الذين قدر لهم ان يخضعوا لتلك المصائب المفروضة في أوربا يجب ان تأتيهم المساعدة من المجتمع الامريكي ، هذه المساعدة التي سوف تمكن اليهودي من ان يقيم بوجدانه الاصيل فلسطين هي وحدها التي تعلن عن السلوك الصهيوني .

— ٤ —

الدعاية وتقاليد الحركة الصهيونية

٢٢ — لنستطيع ان نفهم موضع الدعاية من الصهيونية السياسية يتعين علينا ان نقف قليلا فى محاولة ابراز الخصائص العامة التى استطاعت الصهيونية ان تقيم من خلالها تقاليد واضحة للعمل الدعائى • وهذه الخصائص تؤكد على دلالة هذا التأصيل الفكرى فيما يتعلق بعملية المواجهة التى يتعين على العالم العربى ان يخطط لها منذ الآن بحزم ودقة •

نستطيع ان نركز على الخصائص الست الاتية :

أولا — الربط بين تقاليد الحركة الصهيونية وتقاليد الثورة الفرنسية •

ثانيا — النظرة الى العمل الدعائى على انه ليس مجرد عملية توجيه وايهام وانما هو عناق حضارى ومن ثم فهو حقيقة ثقافية ذات ابعاد ونماذج سلوكية •

ثالثا — وبرتبط بتلك الظاهرة السابقة ويتفرع عنها ان الفكر الصهيونى يجعل من الادب ومن كتابة التاريخ وسيلة وأداة من أدوات العمل الدعائى •

رابعا — ثم ولعل هذه هى الناحية التى يجدر بنا ان نبرزها على وجه الخصوص وان نجعلها موضوعا للتأمل ، ان العقيدة الصهيونية نظرت الى التعامل النفسى على انه الوجه الاخر للحركة السياسية •

خامسا — كذلك فالتقاليد الصهيونية ، وجاءت فيما بعد التقاليد الاسرائيلية امتدادا لها وتأكيدا لمدلولها ، تقوم على اساس التمييز بين مستويات خمس من التعامل النفسى :
دعوة ، دعاية ، حرب نفسية ، حرب اعلامية ، تخزين للمعلومات •

سادسا — على انها فى نفس الوقت لم تقبل ان تجعل تلك التفرقة وذلك التمييز اساسا جامدا للحركة الدعائية • على العكس من ذلك افترضت بل وخلقت ديالكتيكية معينة بمعنى ضرورة المرونة فى خلق نوع من الصناق والتزاوج بين الكليات المرتبطة بالعمل الدعائى • هذه النواحى المختلفة فى حاجة الى شىء من التحليل •

٢٣ — سبق ان رأينا كيف انتفعت الدعاية الصهيونية منذ نهاية القرن التاسع عشر بالخبرة الفرنسية ، ورأينا ان الثورة الفرنسية هى التى نقلت الدعاية من نطاق الخطاب الشخصى ليصير خطابا حضاريا • على ان العلاقة بين الصهيونية السياسية والحضارة الفرنسية ابعد ان تحدد فقط بهذه الناحية فالثورة الفرنسية ظلت خلال طيلة القرن التاسع عشر ينظر اليها فى الادب العبرى على انها تعنى احد الوقائع الحاسمة فى تاريخ الحضارة اليهودية • تالمون يخبرنا بأن اليهود خلال تلك الفترة نظروا اليها على انها تماثل خروج اليهود من مصر او نزول القوانين المقدسة على جبل سيناء •

وتصف " ان فرنسا الثورة اصبحت بالنسبة لهم هي الوطن الثاني بل واصبحت بالنسبة للمتعصبين الوطنيين بتقديسهم الروح على المادة ه ارض الاباء الروحية الوحيدة ان الثورة الفرنسية هي التي اخرجت اليهود من عالم الجيتو الى العالم المنطلق " بعبارة اخرى لم تقتصر ابعادها على تقديم حلول للخبرة وانما تعدت ذلك الى اعطاء اليهودي الثقة في نفسه .

وكان من الطبيعي ان يؤدي هذا الى صدام بين الطابع القومي الفرنسي والطابع القومي اليهودي . بدأ في شكل نقاعات فردية في اثناء مناقشات الجمعية الوطنية حول تحرير اليهود في عام ١٧٨٩ . يذكرنا بعض المؤرخين بتلك العبارة التي وردت على لسان ممثل منطقة الالزاس ؛ واه اعطاء اليهود حق الملكية : " خلال شهر واحد سوف يملكون نصف ارض المنطقة وفي خلال ستة اعوام سوف يملكون كل المنطقة " . ولكن هذا الصدام لم يبلغ اقصاه الا عندما بدأت افكار موراس في نهاية القرن التاسع عشر تهاجم اليهود بعنف على انهم يخططون لتحطيم الدولة الكاثوليكية . هذا الصراع لم يكن مجرد عدم اتفاق في المصالح وانما كانت تستتر خلف حركة اخرى باطنه تدور حول الصدام بين مفهومين او اسلوبين من اساليب الحياة ه أو بعبارة اخرى بين حضارتين كل منهما تسعى لتأكيد استيعابها للاخرى .

كذلك يقدر الصدام الذي عمر القرن التاسع والذي انتهى بقضية دريفوس المشهورة بين المفاهيم اليهودية والمفاهيم الفرنسية كحقائق حضارية فان اليهود في شرق اوربا نظروا الى تلك التقاليد الفرنسية على انها نموذج للتطور . بعض الوثائق تحدثنا عن محاولات عديدة من هذا النوع وتعوق بهذا الخصوص اكثر من اسم واحد : " برتنسز " والذي اشترك في انتفاضات عام ١٨٢٥ ثم " فينين " الذي نفى فغ سيبريا حيث مات عام ١٨٦٠ ثم برتوجالوف " واعقبه " زيلينسكي " في منتصف القرن التاسع عشر .

وهكذا نستطيع ان نحدد اثر الثورة الفرنسية في الحركة الصهيونية في ابعاد ثلاث:

أولا — تقديم نماذج حركية للتصور في تقاليد اوربا الشرقية .
ثانيا — اعادة الثقة بالذات بين يهود اوربا الغربية .
ثالثا — ربط الحركة الدعائية بالحركة السياسية .

٢٤ — الصفة الثانية التي تميز تقاليد العمل الدعائي في الحركة الصهيونية هي الربط بين العمل الدعائي والتطور الحضاري . ورغم ان الثورة الفرنسية وضعت البذور الاولى لهذه العملية الا ان التقاليد الصهيونية طورت هذه العلاقة لتجعل من العمل الدعائي لغة خطاب بين الحضارات وليست مجرد السعي للاقناع بوجهة نظر محددة من حيث الزمان او المكان والموضوع ولهذا فهي تخلف عملها الدعائي بستار كثيف من العمق الحضاري تجعل مسالكه مزدوجة :

التقارب ان لم يكن الوحدة في التصورات التاريخية المرتبطة بالماضي البعيد.

خلق نوع من
والبعيد.
القيام بعملية صهر بابعاد الوظيفة الحضارية من حيث المستقبل في اطار واحد مشترك
به يدور حول مفهوم عام للوجود الانساني.

ونحن نلاحظ كيف ان الصهيونية السياسية كانت بهذا الخصوص اكثر تقدما من النازية الالمانية،
رغم ان كلا المذهبين السياسيين يقوم على اساس من العنصرية والتفوق العرقي الا ان العمل
الدعائي من حيث تحليله وفلسفته اختلف اختلافا واضحا وبينا بحيث اصبح يستحيل ان نخلق
اوجه للتشابه بين الدعاية الصهيونية والدعاية النازية.

٢٥ - وقد ترتب على فهم الدعاية على انها حقيقة وعناق حضاري ان اهتم مخططو الدعاية
الصهيونية بالنواحي الادبية والتاريخية. فالادب هو وسيلة لخلق الشحنة العاطفية والفن بصفة
عامة نتاج من قنوات الربط بين الشعوب من خلال الاعجاب بالصور الجمالية. كذلك التاريخ هو لغة
مجردة لا تنتصر على محاولة بث الاعجاب او تشويه الخصم بل تتعدى ذلك الى ان تبرز الحاضر بملامسة
الماضي. عندما قال "مسون" كلمته المشهورة: التاريخ لن يقدر له ان يسجل نهائيا. سوف
يكتب ثم تعاد كتابته دائما من جديد" انما اراد بذلك ان يقرر بان كتابة التاريخ هي نقطة التقاء
بين الماضي والحاضر. وحيث ان الحاضر دائما يتغير فان هذه النقطة لابد وان تتنقل. ومن خلال
كتابة الماضي يستطيع الباحث ان ينسب الى العقل الفردي والجماعي مقدما نماذج الحركة ايضا
بالنسبة للمستقبل.

ترى هل نفهم لماذا عكف الكتاب اليهود على اعادة كتابة التاريخ لا فقط اليهودي بل ونفس كتابة
التاريخ الاسلامي والعربي بمختلف جزئياته وفي مختلف فترات تطوره.

٢٦ - على ان الناحية الاكثر خطورة التي يجب ان يدعونا الى الاهتمام هو ما استقرت عليه
التقاليد الصهيونية من جعل التعامل النفسي احد اسلحة الحركة السياسية. ورغم ان الحركة
الصهيونية لم تأتي بجديد في هذا الخصوص فهي تتابع التقاليد الكاثوليكية وبصفة خاصة حركات
التنوير ابتداء من عام ١٦٣٣ عندما انشأ البابا ادارته المشهورة من كبار الاساقفة لتعظيم وتخطيط
المهام الخارجية للكنيسة الكاثوليكية، الا انها رفعت من اهمية العمل الدعائي ورفضت ان تنظر
اليه على انه مقدمة للحركة السياسية. ان التعامل النفسي يصاحب دائما العمل السياسي ولا ينفصل
عنه في اي مرحلة من مراحل الوجود: بعبارة اخرى هو ليس فقط خط الهجوم الاول وخط الدفاع
الاخير للحركة السياسية، بل هو ايضا الشطر الثاني المرافق للحركة السياسية ذاتها في جميع
مراحل التنفيذ.

ورغم ذلك فان الدعاية كسلاح سياسى وكما فهمتها الحركة الصهيونية تفرض علينا بعض ملاحظات:

أولا : سبق ان رأينا ان الصهيونية لجأت الى الدعاية على انها مناخ حضارى وهى بهذا سبقت العالم المعاصر باكثر من قرن من الزمان • مجتمع الربع الاخير من القرن العشرين يفترض فى النشاط الدعائى ارتباطه بالعمل الاقناعى والعمل الاعلامى ومن ثم بتهيئته للتعايش الحضارى الا انها رغم ذلك من جانب اخر عالجت العمل الدعائى على انه سلاح سياسى • التميز السياسى يتناقض مع الطبيعة الحضارية او على الاقل لا يتفق مع مثل هذه الفلسفة • وهنا تبرز براعة القدرة الصهيونية فى تمييزها بين الدعاية والدعوة: الاولى يسيطر عليها العمل السياسى والمنطق السياسى اما الثانية فهى تتصف بطبيعة الاتصال الحضارى • الاولى اى الدعاية كانت أداة الحركة الصهيونية للوصول الى مراكز القوة فى اتخاذ القرار السياسى • اما الدعوة فهى اداتها ووسيلتها لخلق الانتماء وتأكيد رابطة الولاء •

ثانيا : على ان هذا لم يمنع الحركة الصهيونية من ان تبحث عن اسلحة اخرى للصراع تقف الى جوار الدعاية • فالتنظيمات — ابتداءا من التنظيمات النسائية او الاجتماعية الى التنظيمات ذات الطابع المطلق السياسى — والتأثير الشخصى الذى قد يصل الى حد العنف دون الحديث عن وسائل الترغيب والارهاب ليست سوى بعض النماذج •

ثالثا : اداة سياسية ولكنها أداة من بين أدوات اخرى • هذه الطبيعة وهذه الصفة فى التخطيط الصهيونى فرضت على الدعاية ان تخضع لعامل التنظيم • فهى سلاح وكل سلاح لابد لفاعليته من ظروف معينة • وهى وليست سلاح مستقل بمعنى انها لا تستطيع ان تزاول وايفتها بفاعلية كاملة مستقلة عن القدرات السياسية الاخرى • فكيف يتم كل ذلك ان لم تخضع هذه العملية لتنظيم مطلق وتخطيط شامل ؟

التعامل النفسى امتداد للحركة الصهيونية بحيث ان متابعة تاريخ الدعاية الصهيونية هو دراسة للوجه الحركى للنشاط الصهيونى وبحيث نستطيع القول ان فصل اى منهما عن الاخر لابد وان يؤدى الى تشويه فى فهم الحقيقة التاريخية •

٢٧ — على ان الناحية الهامة التى تعنينا بصفة خاصة والتى يجب ان نقف امامها قليلا لانها ترتبط بوضعنا المعاصر حيث جاءت التقاليد الاسرائيليه لتكمل من دلالتها : نقصد التمييز بين مستويات التعامل النفسى •

حتى هذه اللحظة استخدمنا كلمة الدعاية كمفهوم مطلق عام شامل يكاد يكون مرادفا لفكرة مخاطبة القوى المعنوية للذات الفردية • كذلك فى بعض الاحيان برزت ضمنيه آنية واضحة ومحددة آونة اخرى فكرة الدعوة كمفهوم مختلف ومستقل عن ظاهرة الدعاية •

ورغم ذلك فان الدعاية كسلاح سياسى وكما فهمتها الحركة الصهيونية تفرض علينا بعض ملاحظات:

أولا : سبق ان رأينا ان الصهيونية لجأت الى الدعاية على انها مناقض حضارى وهى بهذا سبقت العالم المعاصر باكثر من قرن من الزمان • مجتمع الربع الاخير من القرن العشرين يفترض فى النشاط الدعائى ارتباطه بالعمل الاقناعى والعمل الاعلامى ومن ثم يتجهيته للتعانق الحضارى الا انها رغم ذلك من جانب اخر عالجت العمل الدعائى على انه سلاح سياسى • التميز السياسى يتناقض مع الطبيعة الحضارية او على الاقل لا يتفق مع مثل هذه الفلسفة • وهنا تبرز براعة القدرة الصهيونية فى تمييزها بين الدعاية والدعوة: الاولى يسيطر عليها العمل السياسى والمنطلق السياسى اما الثانية فهى تتصف بطبيعة الاتصال الحضارى • الاولى اى الدعاية كانت أداة الحركة الصهيونية للوصول الى مراكز القوة فى اتخاذ القرار السياسى • اما الدعوة فهى اداتها ووسيلتها لخلق الانتماء وتأكيد رابطة الولاء •

ثانيا : على ان هذا لم يمنع الحركة الصهيونية من ان تبحث عن اسلحة اخرى للصراع تقف الى جوار الدعاية • فالتنظيمات — ابتداءا من التنظيمات النصائية او الاجتماعية الى التنظيمات ذات الطابع المطلق السياسى — والتأثير الشخصى الذى قد يصل الى حد العنف دون الحديث عن وسائل الترغيب والارهاب ليست سوى بعض النماذج •

ثالثا : اداة سياسية ولكنها أداة من بين أدوات اخرى • هذه الطبيعة وهذه الصفة فى التخطيط الصهيونى تفرض على الدعاية ان تخضع لعامل التنظيم • فهى سلاح وكل سلاح لابد لفاعليته من ظروف معينة • وهى وليست سلاح مستقل بمعنى انها لا تستطيع ان تزاول وايفتها بفاعلية كاملة مستقلة عن القدرات السياسية الاخرى • فكيف يتم كل ذلك ان لم تخضع هذه العملية لتنظيم مطلق وتخطيط شامل ؟

التحامل النفسى امتداد للحركة الصهيونية بحيث ان متابعة تاريخ الدعاية الصهيونية هو دراسة للوجه الحركى للنشاط الصهيونى وبحيث نستطيع القول ان فصل اى منهما عن الاخر لابد وان يؤدى الى تشويه فى فهم الحقيقة التاريخية •

٢٢ — على ان الناحية الهامة التى تحتنينا بصفة خاصة والتى يجب ان نقف امامها قليلا لانها ترتبط بوضعنا المعاصر حيث جاءت التقاليد الاسرائيلية لتكمل من دلالتها : نقصد التمييز بين سنوات التحامل النفسى •

حتى هذه اللحظة استخدمنا كلمة الدعاية كمفهوم مطلق عام شامل يكاد يكون مرادفا لفكرة مخاطبة القوى المعنوية للذات الفردية • كذلك فى بعض الاحيان برزت ضمنيه آنية واضحة ومحددة آونة اخرى فكرة الدعوة كمفهوم مختلف ومستقل عن ظاهرة الدعاية •

آن لنا ان نحدد بدقة التطبيقات المختلفة لعملية التعامل النفسي • والواقع ان التقاليد الصهيونية هي وحدها التي سمحت بهذا التمييز • رغم انها لم تصل الى هذا التمييز الا عقب مراحل من الخلط وعدم الوضوح الا انها اليوم بصفه خاصة في اعقاب عام ١٩٦٧ تجعل من التفرقة بين هذه الابعاد المختلفة اساسا لسياستها الاعلامية •

لنستطيع ان نميز في الواقع في عملية التعامل النفسي بين مستويات خمسه كل منها يختلف عن الاخر من حيث الطبيعة والوظيفة وشخص المستقبل وان كانت كل منها ترتبط بالاخرى • جميعها مظاهر لعملية الاتصال بين مرسل ومستقبل ولكن كل منها يختلف من حيث جوهر عملية الاتصال •

اولا : الدعوة سبق ان رأينا مدلولها بوضوح فهي خطاب يتجه الى المؤمن او من في حكمه وغايته خلق او تعميق علاقة الولاء ما المقصود بكلمة الولاء ؟

الولاء في اوسع معانيه هو الشعور بالانتماء أو بعبارة ادق هو الرابطة العاطفية والعقيدية والمعرفية التي تفرض نفسها على المواطن بحيث يشعر ان كل ما يأتي من مصدر تلك العقيدة او من ممثليها او من المحرك الذي يعبر عنها يجب ان تصحبه مباشرة علامات الرضا والتأييد • واذ كنا لانستطيع ان نبحث في تاريخ الحركة الصهيونية عن مظاهر التعبير عن علاقة الولاء هذه من حيث متغيراتها الوظيفيه ، الا اننا نستطيع ان نلحظ بوضوح من متابعة ابحاث الرأي العام التي اجريت على اليهود الامريكيين مدى عمق هذه المظاهر بصفه خاصة في الفئات غير الشابة : انضباط وانصياع يبرزان كمتغيرات واضحه للسلوك السياسي الصهيوني •

ثانيا : الدعاية تمثل الدرجة الثانية من درجات التعامل النفسي • هذه ايضا سبق ان رأيناها تقوم على اساس التلاعب بالعواطف بحيث تخلق حالة من حالات التوتر الفكري التي تؤدي الى تشويه التتابع المنطقي للذات الفردية وبالتالي للوصول الى موقف ما كان من الممكن ان يصل اليه الفرد بمنطقه العادي • الدعوة بعبارة اخرى تساعد على الكشف على الحقيقة ، اما الدعاية فهي تقود الى تشويه الحقيقة • الدعاية لاتسعى الى الولاء وانما يكفيها التأييد ، بطبيعة الحال يمكن ان تكون الدعاية خطوة اولى في سبيل تحقيق الدعوة ، ولكن كل منهما يجب ان يظل متميزا • ولعل هذا يفسر لماذا ترتبط الدعاية بالرموز والشعارات المهيجة والخالقة لحالات الاثارة ، حيث لا موضع لها بالنسبة للدعوة •

ثالثا : الحرب النفسية معالجة اخرى ذات طابع متميز هي محاولة لتحطيم الخصم لقوته المعنوية وبهذا المعنى رغم انها قد تقوم على اثارة العواطف الا انها من جانب تتجه الى العدو وليس الى الصديق ومن جانب آخر ليس هدفها الاقناع وانما افقاد الثقة في الذات • ايضا الحرب النفسية ترتبط بالدعاية حيث ان الدعاية قد تكون احد ادوات الحرب النفسية ولكنها قد تستقل عنها حيث انهما

يختلف من حيث هدفها فضلا عن انها قد تلجأ الى وسائل اخرى لا تعرفها الدعاية : قتل الزعماء
التخريب الاقتصادى اثارة الفتن نشر الاشاعات . جميعها ادوات لا تعرفها فى نطاق العمل
الدعائى ولكن الحرب النفسية قد تستخدمها كوسائل مكملة بحيث تخلق حالة الذعر المعدة للقضاء
على الثقة فى الذات وبالتالى لتحطيم الروح المعنوية فى الخصم موضع الهجوم .

رابعا : الحرب الاعلامية . صورة جديدة من صور المعاملة النفسية : الاصطلاح اى الحرب الاعلامية
لم يستخدم الا خلال حرب فيتنام ولكن المفهوم عرفته اسلحة الدعاية الصهيونية ابتداءا من الحرب
العالمية الثانية . يقصد بهذه الكلمة ذلك التعارض بين التقارير والبيانات الرسمية المرتبطة
بالوقائع ودلالات تلك الوقائع . فاعلان ضحايا معركة على انه لا يتجاوز عدد معين ثم الرد على ذلك
بما يثبت ان العدو يتجاوز هذا القدر او يقل عنه بمسافة كبيرة هو بمثابة حرب اعلامية بين طرفين
كل منهما يسعى الى خلق عدم الثقة فى المصدر الاعلامى الذى منه نبعت تلك البيانات . الحرب الاعلامية
بهذا المعنى تتجه الى هدفين : الهدف الصريح الواضح هو تصحيح الخبر واعطاء صورة اكثر دقة
للحقيقة . الهدف الخفى المستتر هو خلق عدم الثقة واقامة حائط ضد المصدر الاعلامى الذى منه
نبعت تلك البيانات موضع التشكيك . هذه الحرب الاعلامية استخدمها السلاح الصهيونى على نطاق
واسع اثناء الصراع النازى وبصفة خاصة فى اعقابه بخصوص البيانات المتعلقة بضحايا معسكرات
الاعتقال بل ولجأ فى ذلك الى اسلوب الجرعة بتخطيط مدروس تجلى ذلك بشكل واضح عندما
اثيرت واقعة اكتشاف مجموعة ضخمة من الجثث اليهودية التى اخضعت للتجارب الطبية فى احد
معسكرات بولندة — تسرب الخبر أولا من خلال الصحافة الامريكية غير المتحيزة " وسرعان ما اتخذته
الدعاية الصهيونية اداة لحرب اعلامية منظمة تتابعت فيها الوقائع حتى كانت آخر نشرة تحدثنا عن
عشرة الآف جثة عثر عليها فى ذلك المعسكر . نفس الاسلوب ايضا اتبع بخصوص الامكانيات الاقتصادية
لفلسطين . على انه آخذ شكلا متكاملا اثناء عملية الهجرة خلال الاشهر السابقة مباشرة ثم اللاحقة
على اعلان قرار التقسيم .

خامسا : عملية تخزين المعلومات . هذه العملية يقصد بها خلق جهاز وظيفته جمع جميع البيانات
المرتبطة بالخصم او الصديق موضع التعامل النفسى ثم تخزينها وتبويبها دون استخدام انتظار
اللحظة المناسبة . قد يبدو لاول وهلة ان هذه العملية لا صلة لها بالعمل الدعائى ولكن الواقع
ان هذا غير صحيح . فالدعاية بمختلف معانيها تعنى معالجة للناحية النفسية . وليس هناك اقوى
من النموذج والمواقعه فى هذه المعالجة من ثم فجمع المعلومات واعدادها انتظار اللحظة
المناسبة يسمح بتحقيق هدف مزدوج :

وتختلف من حيث الهدف فضلا عن انها قد تلجأ الى وسائل اخرى لا تعرفها الدعاية : قتل الزعماء التخريب الاقتصادى اثارة الفتن نشر الاشاعات . جميعها ادوات لا تعرفها فى دقائق العمل الدعائى ولكن الحرب النفسية قد تستخدمها كوسائل مكملة بحيث تخلق حالة الذعر المعدة للقضاء على الثقة فى الذات وبالتالى لتحطيم الروح المعنوية فى الخصم موضع الهجوم .

رابعا : الحرب الاعلامية . صورة جديدة من صور المعاملة النفسية : الاصطلاح اى الحرب الاعلامية لم يستخدم الا خلال حرب فيتنام ولكن المفهوم عرفته اسلحة الدعاية الصهيونية ابتداءا من اعقاب الحرب العالمية الثانية . يقصد بهذه الكلمة ذلك التعارض بين التقارير والبيانات الرسمية المرتبطة بالوقائع ودلالات تلك الوقائع . فاعلان ضحايا معركة على انه لا يتجاوز عدد معين ثم الرد على ذلك بما يثبت ان العدو يتجاوز هذا القدر او يقل عنه بمسافة كبيرة هو بمثابة حرب اعلامية بين طرفين كل منهما يسعى الى خلق عدم الثقة فى المصدر الاعلامى الذى منه نبعت تلك البيانات . الحرب الاعلامية بهذا المعنى تتجه الى هدفين : الهدف الصريح الواضح هو تصحيح الخبر واعطاء صورة اكثر دقة للحقيقة . الهدف الخفى المستتر هو خلق عدم الثقه واقامة حائط ضد المصدر الاعلامى الذى منه نبعت تلك البيانات موضع التشكيك . هذه الحرب الاعلامية استخدمها السلاح الصهيونى على نطاق واسع اثناء الصراع النازى وبصفة خاصة فى اعقابه بخصوص البيانات المتعلقة بضحايا معسكرات الاعتقال بل ولجأ فى ذلك الى اسلوب الجرعة بتخطيط مدروس تجلى ذلك بشكل واضح عندما اثيرت واقعة اكتشاف مجموعة ضخمة من الجثث اليهودية التى اخضعت للتجارب الطبية فى احد معسكرات بولندة — تسرب الخبر أولا من خلال الصحافة الامريكية غير المتحيزة " وسرعان ما اتخذته الدعاية الصهيونية اداة لحرب اعلامية منظمة تتابعت فيها الوقائع حتى كانت آخر نشرة تحدثنا عن عشرة الآف جثة عثر عليها فى ذلك المعسكر . نفس الاسلوب ايضا اتبع بخصوص الامكانيات الاقتصادية لفلسطين . على انه آخذ شكلا متكاملا اثناء عملية الهجرة خلال الاشهر السابقة مباشرة ثم اللاحقة على اعلان قرار التقسيم .

خامسا : عملية تخزين المعلومات . هذه العملية يقصد بها خلق جهاز وظيفته جمع جميع البيانات المرتبطة بالخصم او الصديق موضع التعامل النفسى ثم تخزينها وتبويبها دون استخدام انتظار اللحظة المناسبة . قد يبدو لاول وهلة ان هذه العملية لا صلة لها بالعمل الدعائى ولكن الواقع ان هذا غير صحيح . فالدعاية بمختلف معانيها تعنى معالجة للناحية النفسية . وليس هناك اقوى من النموذج والمواقف فى هذه المعالجة من ثم فجمع المعلومات واعدادها انتظار اللحظة المناسبة يسمح بتحقيق هدف مزدوج :

(أ) تقديم النموذج الصالح لتأكيد الحجة او المنطلق الدعائى او الاعلامى .

(ب) الصرعة فى الرد فى الدعاية المضادة او فى توجيه حركة عكسية ضد اعلام فى حالة الهجوم مركز .

عملية التخزين المعلومات ليست جديدة فى تاريخ الدعاية الصهيونية اتبعتها الاجهزة الصهيونية منذ ان قدر لسيلفران يمسك بقيادة التوجيه المعنوى للصهيونية السياسية . ولكن هذا الصالح لم يقدر له ان يتكامل الا عقب ذلك وعقب انشاء الدولة الاسرائيليه وبفضل التنظيم المتكامل لاجهزة المخابرات الاسرائيلية بأن السلطات الحكومية جعلت نقطة بدايتها ذلك الجهاز الذى اطلق عليه اسم " سهاى " والذى لم يكن يتكون سوى من مجموعة من المعلومات الضخمة عن كل ما يخص حركة المهاجرين المحليين وغير المحليين .

٢٨ — رغم التميز السابق ذكره ورغم وضوحه بصفه خاصة فى التنظيم الدعائى الاسرائيلى المعاصر الا ان احد تقاليد الدعاية الصهيونية هو خلق ديالكتيكية مرتبطة ومتتابعة بين هذه المستويات المختلفة لعملية التعامل النفسى وقد سبق ان رأينا ان الدعاية مقدمة للدعوة وان هذه الاخيرة احد ادوات الحرب النفسية . وان عملية تخزين المعلومات تخدم جميع هذه المستويات . الحرب الاعلامية بدورها يمكن ان توصف بأنها مقدمة لحرب نفسية او على الاقل نوع من انواع الدعاية المقنعة .

على ان ديالكتيكية هذا التعانق لا تقتصر على هذه الناحية بل هى تتعداها فى ابعاد كثيره . وذلك الى طبيعة الاطار العام للمجتمع اليهودى فى علاقته بموضع التعامل النفسى . فالدعاية الصهيونية تتجه لليهودى والى غير اليهودى . وهى فى اتجاهها الى كلا اليهودى وغير اليهودى لا تقتصر على المجتمع المحلى بل تسعى الى الوصول الى الرأى العام الخارجى . وهى فى جميع الاحيان لا تقدم فقط منطقا ايجابيا للدفاع عن القضية اليهودية بل تقدم ايضا منطقا سلبيا لابد وان ينتهى الى رفض المنطق العكسى او الرافض للقضية الصهيونية .

تعدد موضع التعامل لابد وان يؤدى الى اختلاط فى المفاهيم الدعائية وبالتالى يفرض درجة مثقوه من الحساسية فى عملية التخطيط الدعائى .

اولا : فالدعاية هى داخلية وخارجية فى آن واحد . الدعاية الصهيونية التى تتجه الى اليهودى الامريكى لا يمكن ان تنسى انها لابد وان تعبر الحدود لتتجه ايضا الى اليهودى غير الامريكى .

ثانيا : كذلك لابد وان يتشابك منطق الدوائر القومى بمنطق الصورة القومية .

الاول اساسه الحقائق السلوكية المرتبطة بالفرد . الثانى يدور حول كيفيه تصورنا لنموذج معين من نماذج الوجود السياسى . كون اليهود اقليه وكون الدعاية الصهيونية تتجه ايضا الى الاغلبية اى الى

المجتمع الكلى، اى المجتمع الامريكى يفرض عليها ان تستخدم مداخل يدور حول الجمع بين الطابع النوعى والصورة القومية • الطابع النوعى يرتبط بالخصائص السلوكية لليهودى فى المجتمع الامريكى • اما الصورة القومية فكونية تصور الامريكى غير اليهودى لليهودى •

هذه الديالكتيكية تفسر ملاحظات معينة • احداها ان المنطلق الدعائى الصهيونى لم يستخدم فى اى لحظة من لحظاته فكرة الصراع الطبقى بل على العكس مفهوم التعاون والسلام بين الطبقات هو الذى يبرز دائما من خلال صياغته لمفاهيمه السياسية • وذلك رغم ان اتجاها هاما من الفكر الصهيونى قام على اساس النظرة اليسارية للتطور السياسى • بل ان احد الاتهامات التى وجهت الى المجتمع اليهودى انه لا يعدو ان يكون طبقه اجتماعيه وبالتالى فالدولة الاسرائيليه ليست الا امتدادا طبقيا للمجتمع اليهودى • رغم ذلك فالملاحظه العامه للمشتغل بالعمل الدعائى الصهيونى هى ان المنطلق الاطلسى خلال تلك الفترة تجنب بثبات اثارة هذا الموضوع •

الواقع ان الفكرة الرئيسية التى سيطرت على مخططى الدعاية الصهيونية هى ان اليهودى عامل الدعوة هو بمثابة السمك الذى يسبح فى الماء • لا تكفى توته بل يجب ان يجد فى المجتمع الكلى الذى هو بمثابة الماء التساند الاجتماعى والمساندة العاطفية • وكلاهما يفرض ديالكتيكية معينه فى العمل الدعائى اساسها لا فقط الربط بين مختلف مستويات التعامل النفسى بل وايضا تجنب ذلك للمنطلق الذى من الممكن ان يثير النفور والابتعاد •

٢٩ — علمى اننا نحن بصدد هذه النظرة العامة الشاملة التى اثارت من علامات الاستفهام اكثر من ان تجيب على نواحى الغموض فان الامر الذى يجب ان نوضحه ونركز عليه لا يعدو ان يكون ذو جانبين :

(أولا) ضرورة الربط بين الحركة السياسية ، والدعوة العقيدية ، والتعامل النفسى •

ان هذه صور ثلاث لحقيقه واحدة بحيث ان فصل ايا منها عن الاخرى لا يمكن الا ان يمنع من فهم اى من هذه النواحى الثلاث •

(ثانيا) ان تعامل الدولة الصهيونية لم يمنع ولن يمنع من استمرار الدعوة العقيدية • بل ان حرب ١٩٦٧ اثبتت مدى خطورة الابعاد الدعائية للدعوة العقيدية • وكل من يتتبع الصحافة الاسرائيليه يلحظ كيف ان الموضوع الذى يسيطر على اذهان المسئولين هو كيف يجب ان تخضع العمل الاتصالى الصهيونى من حيث اتجاهه لليهودى المقيم فى خارج اسرائيل الى فلسفة جديدة والى اساليب جديدة فاليهودى الذى كان يذهب الى اسرائيل فى الماضى كان يهوديا منبوذا • اما اليهودى اليوم فى مجتمع الدياسبورا لم يعد منبوذا • فكيف اللغه الجديدة

التى تحمله على ترك ما هو فيه من يسر واستقرار الى مجتمع جديد يمثل بالنسبة له اكثر من نقلة واحدة من نواحى الشك؟ وكما يقول "موشى دافيس" رئيس معهد اليهودية المعاصرة فى حديث له نشر على صفحات الجيروسالم بوست الاسبوعيه • فى اعقاب حرب الايام الستة : ان الجمهور اليهودى الذى يجب ان نتوجه اليه لن يذهن كما كان فى الماضى من المتطوعين بحيث تصير اساس الدعوة اليه "اسرائيل فى حاجة اليك" : ما الذى نستطيع ان تفعله لاسرائيل ؟ "وانما سوف يصير " انت فى حاجة الى اسرائيل : ما الذى تستطيع ان تفعله لك اسرائيل؟ " ومن ثم فلابد وان يحدث تغيير كامل وكلى فى برنامج الدعوة وفى لغة الاتصال واسلوب التخاطب•

كل هذا فى حاجة الى تحليل من جانبنا ودراسة عميقة هى وحدها التى تسمح بالمواجهة والمجابهة ازاء عدو لم يحد خافيا انه يسعى لخلق جيل كبرى تستوعب نصف ابنائها من اولئك الذين قد يقدر لهم ان يقتنعوا بتلك الدعوة •

١٠١ — كلمة الرقابة تفهم لاول وهلة على انها مرتبطة بصورة معينة من صور الظلم السياسية حيث يصور اداة من ادوات الضبط او التدخل في تنظيم العملية الاعلامية . على ان الواقع ان المفهوم اكثر من هذا اتساعا واشد تعقيدا . وفضلا عن ان الكلمة العربية لا تعكس حقيقة المدلول الذي يقصد بها في التقاليد الغربية فان التطور العلمي لتحليل الظاهرة السلوكية بصفة عامة والابعاد النفسية لتفسير عملية التفاعل الاجتماعي بصفة خاصة فرضت على تحليل ظاهرة الرقابة أبعادا جديدة ومتغيرة .

فلنحاول ان نبدأ بتأصيل المفهوم وان نبرز مختلف أبعاده النفسيه والسلوكية قبل ان نتناول نظام الرقابة الاعلامية وهي الصورة التي ترتبط عادة في المفاهيم المتداولة بتلك الكلمة .

— ١ —

التأصيل الفكري لظاهرة الرقابة

١٠٢ — الرقابة في اوسع معانيها اسلوب من اساليب الضبط للسلوك الفردي او الجماعي . هي بعبارة اخرى اداة من ادوات التدخل في العلاقة بين المواطن والسلطة خلال مرحلة معينة من مراحل مزاولة الحق سواء من جانب الحاكم او المحكوم . الرقابة لهذا المعنى ليست مجرد أداة ضد الحرية وانما هي عملية (ضبط) للسلوك ووسيلة من وسائل التوفيق بين رد الفعل ازاء الضبه والتقبل الجماعي او الفردي لذلك التعبير الحركي عن اصطدام الضبة بالجسد . بعبارة اخرى لا يجوز ان ننظر الى الرقابة على انها مجرد اجراء تلجأ اليه الدولة في علاقتها بالمواطن من حيث التعبير عن افكاره بمعنى انها مجرد اداة لضبط السلوك الانساني ، وانما علينا ان نعالجها على انها عملية نفسية وسلوكية .

هذه الحقيقة تبرز واضحة لو عدنا الى تحليل ظاهرة التفاعل الاجتماعي .

ظاهرة التفاعل الاجتماعي تعني الصدام او التناقض بين نشاط اكثر من شخص واحد في نفس اللحظة بخصوص موضوع معين او مشكلة معينة واحدة . لقد سبق ان رأينا في غير هذا الموضع ان النظرية السلوكية استقرت على ان ترى في السلوك عملية ترتبط بمقومات ثلاث : ضبه ، جسد ، رد فعل . الضبه هو المحرك للطاقة . الجسد هو الحقيقه البشرية التي تخضع لذلك المحرك سواء كان ذاتيا ام خارجيا . رد الفعل هو الحركة وقد تبلورت في شكل واقعة مستقلة عن الجسد . هذه الصورة النهائية ورغم محاولات لوين باسم المجال الحيوي لم يستطع ان يربط بشكل واضح بين النماذج السلوكية والحقيقه الاجتماعيه . ومهما قيل من ان الاطار الاجتماعي هو احد عناصر السلوك الا انه عندما ننتقل الى تحليل ديناميات السلوك نجد ان هذا العنصر يختفي في النموذج التقليدي ايضا في

الدراسة السلوكية المعاصرة. السبب في ذلك يعود اساسا الى اغفال عملية الرقابة او بعبارة ادق ان اغفال جميع مظاهر السلوك باستثناء السلوك الذاتي يجب في اندفاعها ان تتأقلم بالاطـــار الاجتماعي كمرحلة رابعة مستقرة عن المراحل الثلاث السابق ذكرها. بهذا المعنى يتعين علينا ان نتحدث عن عملية التفاعل الاجتماعي كأحد مقومات العملية السلوكية. هنا تبرز واضحة فكرة الرقابة وصفة خاصة عندما يفهم هذا المفهوم على انه يبدأ من الرقابة الذاتية ويتطرق تدريجيا حتى يصل الى ما نسميه بالرقابة القانونية او النظامية التي هي في الواقع اقل صور الرقابة فعالية.

مفهوم التفاعل نقطة البداية. فما الذي يقصد بكلمة التفاعل الاجتماعي؟ نستطيع ان نعرف التفاعل بأنه عملية الاندماج او التحلل التي تستند الى محاولة اقامة السلوك الفردي بالاطـــار الاجتماعي والتوفيق بين مقتضيات الحركة الفردية وابعاد الوجود الاجتماعي وقد تحدد هذا الاخير زمانا ومكانا في هذا المفهوم نلحظ ذلك الانسياق من جانب الفرد ازاء المقل الجماعي وللرغبة فـــي عدم التميز او الاختلاف مع السلوك العام المتداول. وهي ظاهرة تبرز ايضا واضحة في تطبيق آخـــر ولكن بشكل مختلف من حيث ابعاده: نقصد بذلك السلوك السياسي وصفة خاصة عندما يأخذ صورة الاتجاه العام وعلى وجه التحديد في المجتمعات المتخلفة.

ما هي ادوات التفاعـل؟

أداة ايجابية السلوك الاتصالي تقابلها اداة سلبية نظام الرقابة. الاولى تسمح بنقل المفاهيم وخلق عملية الارتباط بين الحركة الفردية والحركية الجماعية او العكس والثانية تفرض على الحركة الفردية ان تنكمش او ان تتأقلم بالاطار الجماعي او الحركة الجماعية.

هكذا تبدو واضحة حقيقة ابعاد الظاهرة من حيث المتغيرات المرتبطة بالمفهوم في ابعاده النفسية والسلوكيـــة.

٢٠٣ـ والخلاصة ان ظاهرة الرقابة ظاهرة متعددة الابعاد. وانه من الخطأ تحليل استنـــادا فقط الى احد نواحيها والاقتصار على تلك الجزئية من حقيقة الظاهرة التي بحكم طبيعتها ترفض ان تكـــون حقيقـــة ميكروكـــوزميـــة.

ولنحدد هذه الابعـــاد:

أولا: الرقابة في معناها المتداول كما سبق ورأينا ترتبط بمفهوم الحرية، فالرقابة الاعلامية تعـــني اجراء تتخذ ضد الحرية الاعلامية او بعبارة اعم حريـــة الاتصال وهكذا استقرت في المفاهيم التقليدية صورة واضحة اساسها ان كل نظام سياسي يقف من الرقابة الاعلامية موقف التأييد هو نظام ديكتاتـــوري. وان مظهر من مظاهر الديمقراطية هو اختفاء فكرة الرقابة الاعلامية. وهكذا نجد أول اجراء تتخـــذه النظم الثورية التي تزعم بالاسلوب الديمقراطي هو الغاء الرقابة او التقييد من حدودهـــا.

الرقابة بهذا المعنى تعبير اداة من ادوات ضبط الحرية الاعلامية تستخدمها الجماعة ضد المواطن وتأخذ صورة منظمة تتم عادة عند منبع او مصدر السلوك الاتصالي .

ثانيا : على ان الرقابة ايضا وبسبب فقر اللغة العربية قد تعبر عن مفهوم آخر حيث يصير اداة في يد السلطة ووسيلة لضبط من يمارس السلطة . فكلمة رقابة هي مرادف لاصطلاحين : اولهما Censorship وثانيهما كلمة Control . الاصطلاح الاول يمكن ترجمته بالرقابة الاعلامية . اما الاصطلاح الثاني فيجب الا يفهم الا على انه رقابة سياسية ، او بعبارة ادق رقابة على السلطة الحاكمة .

الرقابة السياسية بهذا المعنى هي احدى المكتسبات التي استطاعت النظم السياسية المعاصرة ان تمكن شعبها المواطن وفقط في اعقاب الثورة الفرنسية . منذ تلك اللحظة اجمالا بدأت تبرز فكرة ضبط السلطة الحاكمة بمعنى ان النظم الديمقراطية او النيابية او البرلمانية ليست وظيفتها مجرد تفويض فرد معين في ان يزاول السلطة باسم الشعب وانما يجب ان تصل الى ذلك المستوى الذي يصبح للشعب في حقيقته ، في صورته الواقعية . اي الفرد والمواطن العادي ان يراقب ويضبط اعمال السلطة ومن يمارس السلطة ، سواء كانت السلطة تشريعية ام تنفيذية ، ام قضائية عندما تخرج تلك السلطة عن حدود النظام الذي يجب ان يسري على الحكم قبل ان يسري على المحكوم .

لا نريد ان نتطرق في التفصيلات التاريخية المتعلقة بالرقابة السياسية او ما يمكن ان يعبر عنه في بعض الاحيان باسم الرقابة الشعبية . ولكن لنكتفي بأن نتذكر بعض الملاحظات :

ا) الرقابة السياسية لم تبرز وتتأكد الا ابتداءا من القرن التاسع عشر ولم تتكامل الا في اعقاب الحرب العالمية الثانية .

ب) الرقابة السياسية تستخدم ضد من يمارس السلطة اي ضد الطبقة الحاكمة .

ج) الرقابة السياسية يستخدمها الشعب في واقعة حقيقية اي تستخدمها الجماهير ومن ثم فهي بطبيعتها غير منظمة او على الاقل صورتها الواضحة هي الرأي العام .

رغم ذلك فهناك مفاهيم تجعل الرقابة السياسية تتقابل وتقترب من الرقابة الاعلامية :

(ا) في كلا النموذجين هناك نظام System يحدد قواعد سلوكية سواء بالنسبة للفرد او بالنسبة للسلطة العامة .

(٢) وفي كلا الحالين هناك جزاء يترتب على الاخلال بهذه القواعد بمعنى ان عدم احترام تلك القواعد السلوكية يعني رد فعل Sanction يأخذ شكل اجراء محدد من حيث معالمه .

(٣) كذلك فى كلا التعليقين فهناك اداة او جهاز يقوم بعملية مواجهة الاخلال باتخاذ
جزاء وتحديده ثم توقيعه او بعبارة اخرى هناك احدى المؤسسات التى تأخذ طابع التنظيم الثابت
لتفهم الموقف والحكم على ذلك الموقف فى شكل جزاء يعلن عن ذلك التقييم .

ثالثا : على ان عملية الرقابة قد تعبر ايضا حقيقة نفسية وسلوكية : فالفرد الذى يقف من
الخمر موقف معينا فى سلوكه او الذى يندفع فى سلوكه بشكل معين نتيجة لعملية ضبط ذاتيه عقلية
او حضارية او اجتماعية انما يخضع لصورة من صور الضبط النفسية او السلوكية .
وهذه هى التى تعنينا مؤقتا .

ان عملية الضبط كظاهرة متكاملة يجب ان نتصورها على انها تفترض طبقات ست متتابعة من الضبط
التتالى للسلوك الفردى . تبدأ اولا بضبط ذاتى يدور فى النطق الفردى ويتحكم فى تصور الموقف
وتحديد رد الفعل وبالتالى صورة السلوك وابعاده . مفهوم الضبط بهذا المعنى حلله فرويد على اساس
نوع من انواع الوعى الشعورى او بعبارة اخرى على انه عملية نفسية تتضمن نقلا للضبطات فى بعض
ابعادها او فى كل ابعادها من الشعور الى اللاشعور بحيث قد تعنى اما تهربا من السلوك واما
تحويرا للسلوك فاذا بهو سلوك مرضى وغير معتاد . وفى بعض الاحيان فقد تؤدى هذه العملية التى
قد تدفع بالوعى الى حالة اللاشعور لتضع الضبط فى حالة عدم يقظه او حالة ركود انتظار للفرصة
الملائمة لينحرك فيعبر عن نفسه بأسلوب آخر . وهكذا تبرز فكرة الاحلام كنموذج من نماذج التعبير عن
تلك الحالة . الذى يعنينا هو ان نلاحظ ان الجهاز المتلقى من حيث خصائصه لابد وان يخلق مرتبه
اولى من مراتب الضبط الذاتى . وهى حالة يواجهها الفرد فى كل مرحلة من مراحل حياته اليومية
وقد تؤدى فى بعض الاحيان الى خلق حالة التأزم التى قد تقود الى الاختلال فى الشخصية .

ولكن تأتى المرتبه الثانيه من مراتب الضبط السلوكى لتخفف من حدة الضبط الذاتى ولتتمركز
حول القواعد والقيم الحضارية . ففى كل مجتمع كما سبق ورأينا بخصوص تحليل ظاهرة الضبط الاجتماعى
هناك مجموعه من الافكار والتصورات التى تحكم على سلوك معين بأنه يسىء فترفضه او بأنه طيب فتشجع
عليه . هذه القيم من مجموعها يتكون ما نستطيع ان نسميه بالرقابة الحضارية التى تشكل اطارا يقود الفرد
فى تفكيره وتصوراته لان يتحكم فى سلوكه فيقيده باطار التقنينات الاخلاقيه المتداولة . وهكذا نجد
الى جوار ما نستطيع ان نسميه بالرقابة غير الشكلية وهى التى تشكل المرتبة الاولى السابق ذكرها
رقابة اخرى شكلية تساعد الاولى وتخفف من حدتها فى نفس اللحظة التى تضع فيها عوائق ومسالك ازاء
السلوك وتشكيل السلوك . مما لاشك فيه ان الرقابة الذاتيه التى مردها العقل الواعى او الوجود
اللاشعورى اكثر فاعلية من الرقابة الشكلية . ولكن الامر الذى لاشك فيه ايضا ان كلاهما يتفاعلان الواحد
مع الاخر ليقدم نموذجا سلوكيا معينا مرتبطا بكل واقع اجتماعى .

وهذا يقودنا الى مرتبة ثالثة من مراتب الضبط للسلوك: والسلوك هنا يجب ان يفهم باوسع معانيه، لا فقط بمعنى السلوك الفعلي بل اينما يعني السلوك القولي. نقصد بذلك ما يسمى بالرقابة غير المنظمة للجماعات النوعية. ونقصد بذلك ان كل جماعة صغيرة داخل المجتمع الكلي لها اطارها الخاص من القيم التي تحدد وتضبط من خلالها السلوك بالمظاهر السلوكية في مختلف انواعها. هذه القيم تكون مرتبة ثالثة من مراتب الضبط وبالتالي لابد وان تتفاعل مع المراتب السابق ذكرها في خلق الاطار السلوكي والتقدم لذلك نموذجا الى الطبقة الوسطى الامريكي من واقع مجتمعات القارة الجديدة. اذ يلاحظ على الرجل الذي ينتمي بحرفه النفسي انه في تعبيراته المرتبطة بالسلوك الجنسي وفي نفس خصائص سلوكه الجنسي يلجأ الى مظاهر سلوكية قولية وفعلية تختلف مع زوجته عنها مع غير زوجته وقد يحدث ذلك في نفس الفترة الزمنية وبالنسبة لنفس الموقف حيث يلاحظ عليه في علاقته بزوجته عدم التحرج والبعد عن المباطحة والتلقائية حتى انه في كثير من الاحيان يلجأ الى اقامة علاقات اخرى غير شرعية ليستطيع ان يستعيد تلقائية سواء اللفظية او الفعلية. وهذا يرتبط بطبيعة الحال بعملية القهر الدرعية للجماعات: فصفة الزوجة تختلف من حيث الجماعة المرجعية عن صفة غير الزوجة وغالبا انهما قد يكون كلاهما ينتميان الى نفس المجتمع. بل وتحدثنا بعض الابحاث الميدانية عن هذه الحقيقة في نماذج كانت فيها العلاقة غير الشرعية مع شقيقة نفس الزوجة.

المرتبة الرابعة والتي تعكس بدورها صورة من صور الضبط الاجتماعي هي ما نستطيع ان نسميه بالمناخ الاجتماعي العام المرتبط بالاراء والاحساسات والافكار السائدة في الاغلبية الجماهيرية. رأينا في المرتبة السابقة كيف ان القيم الفرعية تكون بدورها مستوى معين من مستويات التهديد السلوكي. في المجتمعات الديمقراطية او الجماهيرية حيث تصير الشوفائية او المصالح الجماعية قوة محركة لتأييد النواحي العاطفية او على الاقل لتركيز ظاهرة الخوف من مخالفة الاخرين او تنمية عقدة الذنب من التميز تبرز واضحة صورة اخرى من صور الضبط ولو بطريق غير مباشر. فحيث يصير الرأي مرتبط بالاغلبية، فان احتمال خطئه لا يمكن تقبله وبالتالي يصير لا مونع للمنطق او حريته في صراع الافكار. وتأتي هنا القيادة الديماجوجية او المصالح الجماعية فتستغل ذلك الموقف لصالحها ولتأكيد علاقة الولاء المرتبطة بها. ولنتذكر على سبيل المثال النازية او الحركة الماركلوثية وكيف استطاعت ان تفرض نوعا من الرقابة غير المنظمة بل وفي بعض الاحيان غير الشرعية على كلا السلوكين القولي والفعلي. هنا نجد ظاهرة الخوف او التهديد وقد اضحت بدورها احد عناصر ضبط السلوك. والواقع انه في هذا المستوى على وجه الخصوص يبرز بشكل واضح كيف ان الرقابة هي عملية صراع، وان اي رقابة او اي مصدر من مصادر الضبط والتهديد سرعان ما

الاستجابة الداخلية للفرد ليكون احد عناصر ومقومات الحركة والتفاعل بجميع مستوياتها .
يأتي المستوى الاخير وهو الذى يأخذ صورة رقابة منظمة وقانونية : حيث توجد الاداة التى
تتولى وضع القواعد واستخدام السلطات فى توقيع الجزاء ازاء السلوك المخالف لتلك القواعد .
هذه الاخيرة هى التى تعنينا على وجه الخصوص .

— ٢ —

الرقابة الاعلامية واصولها التاريخية

٠٠ كلمة رقابة اعلامية تثير فى الذهن افكارا عديدة متناقضة لاول وهلة هى تؤكد مفهوما غامضا يدور حول الرفض وعدم تقبله . ان سلوكا ترفضه الرقابة يعنى انه سلوك محكوم عليه . بهذا المعنى نتحدث عن الرقابة الكنسية حيث تصير كلمة الرقابة مرادف لكلمة جزاء او عقوبة يوقع على سلوك مخالف للنظام الاخلاقى المملى ان الكلمة قد تستخدم فى بعض الاحيان كتعبير عن اجراء معين الهدف منه المناقشة المسبقة لبعض مظاهر التعبير عن الافكار قبل تداولها وقبل ان تتوفر موضع الاتصال بالجماهير . بهذا المعنى تصير كلمة الرقابة مرادف لمجموعة من العمليات تنتهى باجراء ادارى يأخذ صورة التصريح او الرفض لتداول الافكار . بهذا المعنى يتحدث مثلا شاتو بريانـد عن تاريخ عصره فيقول : " منذ اكتشاف الطباعة حتى يومنا هذا عرفنا حرية الصحافة خلال اثنى عشر عاما وعرفنا الرقابة خلال الفترة الباقية " .

الرقابة على وسائل الاعلام بهذا المعنى لا تعبر عن جديد بل وفى الاستخدام يستمد اصوله التاريخية من احدى الوظائف القضائية التى عرفتها الحضارات القديمة وبصفة خاصة المجتمع الرومانى حيث وجد ما يسمى Scenus وهو يرتبط بوظيفة معنية اساسها ان كل مواطن يجب ان يسجل اسمه فى سجل معين . هذا التسجيل هو وحده الذى يترتب عليه اعتبار المواطن صاحب جنسية رومانية . يشرف على هذا السجل وبمناسبة قاضى يسمى Seasor وهو وحده الذى يملك لا فقط التسجيل بل ويملك ايضا ان يرفع اسم اى مواطن من ذلك السجل والذى يعنى ويترتب عليه فقدان للجنسية ولا اى وسيلة من وسائل الحماية الجماعية . حركة هذا القاضى اساسها ان كل من يخالف التقاليد المتداولة التى اصطلح على تسميتها بعادات الاباء ليس جديرا بالحماية ولا بالانتماء الى المجتمع الرومانى . ومن ثم فان هذا القاضى هو بمثابة رقيب على احترام العادات وعدم الخروج على التقاليد وبعبارة اخرى هو اداة لضبط السلوك الفردى من حيث الاحترام الحضارى . وتقدم لنا النصوص تطبيقات كثيرة استخدم فيها هذا الحق حتى ضد القناصل رغم ما تعنيه وظيفة القنصل من امتيازات .

من هذا المصدر التاريخي وابتداء من هذا المفهوم نبعت وترعرعت فكرة الرقابة على وسائل الاعلام . وهي بهذا الخصوص تطورت في مراحل متتابعة : في العصر الوسطى ارتبطت بالنواحي الدينية على العكس من ذلك خلال القرن التاسع عشر ارتبطت بالنواحي السياسية .

فلنحاول ان نتابع المفهوم تاريخيا لنستطيع ان نحدد ابعاده الوظيفية .

اولا : الرقابة الاعلامية يجب ان نعرفها بأنها تصريح خاص يعطى من احدى الجهات الحكومية لمحتوى سابق للموضوع الاعلامي الذي تناوله ذلك التصريح من ابعاد معينة من حيث المضمون او الشكل او كلاهما .

وهكذا تتضح خصائص الرقابة الاعلامية في اوسع معانيها :

اولا : ان الرقابة الاعلامية ليست هي التصريح الشكلي الذي يشترطه القانون للنشاط الاعلامي . بالسماح باصدار جريدة او بتنظيم محطة ارسال اذاعة او باستخدام قناة تليفزيونية لا يدخل في نطاق هذا المفهوم . الرقابة الاعلامية ليست اجراء متعلق بالنشاط الاعلامي في ابعاده العامة بينما تتناول الاتصال الاعلامي في ذاته وقد تحدد موضوعا من حيث الزمان والمكان .

ثانيا : الرقابة ليست هي الاستيلاء . فالاستيلاء هو اجراء من اجراءات الامن والضبط الاداري الذي قد يتناول وعاء كامل من النشاط الاعلامي . كأن يحدث مثلا ان تقرر الادارة قفل احدى الصحف والاستيلاء على ما فيها من اعداد معنية . الرقابة تتناول التعبير عن الرأي في احدى صورة من الوجهة الكمية والكيفية .

ثالثا : الرقابة الاعلامية بهذا المعنى هي وسيلة من وسائل الضبط الاحتياطي . بعبارة اخرى الضبط الاداري من الممكن تصوره في صورتين او تطبيقين : احدهما يزاول عند المنع والآخر يزاول عند الصبب . الاول عقب صياغة الرسالة وقبل ارسالها . والثاني عقب صياغتها وارسالها . سواء تم ذلك قبل استقبالها او بعد استقبالها فانه دائما صورة من صور الضبط عند الصبب . في الحالة الاولى فان الضبط بمعنى اجراء تحفظي القصد منه تجنب الفرد من العقاب او بعبارة اخرى منع الاتصال المخالف للنظام الذي تحميه الرقابة من وقوعه . في الحالة الثانية تترك للفرد حرية الاتصال ولكن ان كان ذلك الاتصال يتضمن مخالفة للنظام فان الفرد يحاسب بأن توقع عليه عقوبة تختلف في مداها ولكنها تصير دائما جزاء للاخلال بالنظام دون ان تتضمن رقابة على استخدام الحق .

الصورة الاولى اى عملية الضبط الاحتياطي للاتصال الاعلامي هي وحدها التي يجب ان نفهم من كلمة الرقابة الاعلامية .

رابعا : كذلك الرقابة لا تتجه الى شخص معين من حيث الارسال او الاستقبال وانما تتجه الى رسالة معينة تناقشها وتقيمها شكلا او موضوعا او كلاهما .

٢ — نظام الرقابة بالمعنى السابق ذكره يعود فى التقاليد التاريخية • ولكن اول صور الرقابة فى مضمونها الحقيقى المنظم المحدد بالدلالة السابق تحديدها تعود الى القرن الثالث عشر عندما تقدمت جامعة باريس الى ملك فرنسا تطالب منه حقها فى الاشراف على اى كتاب او اى منشور قبل وضعه تحت يد الجمهور • وكانت الغاية من هذا الاجراء هو عملية ضبط للناشرين حماية لاحترام قواعد معينة من حيث الشكل المتعلق باستخدام اللغة اللاتينية والموضوع المرتبط بالمفاهيم الدينية • منذ ذلك التاريخ تطورت الرقابة خلال مراحل متعددة بحيث نستطيع بصفة عامة ان نميز بين خمسة مراحل كل منها تعبر عن مفهوم معين لوظيفة الرقابة وكل منها تعكس مرحلة معينة من مراحل التطور لا فقط النظم الاعلامية بل وكذلك وظيفته الدولة من حيث الاتصال الجماعى •

١) المرحلة الاولى وتمتد اجمالا حتى القرن الثالث عشر • فى خلال هذه المرحلة لم تعرف الرقابة الا بالنسبة للمسرح • عرفت الرقابة بالنسبة للمسرح فى الحضارة الرومانية حيث اشترط الحصول على اذن مسبق من جانب خمسة قضاة قبل تقديم اى مسرحية للجمهور • على العكس من ذلك بالنسبة للاعلام المكتوب بل تكن هناك رقابة بالمعنى السابق تحديده وانما كان يخضع النشاط الاعلامى لنوع من الضبط اللاحق لصياغته وانتشاره فى صوره الحكم القضائى • فعندما يحدث ان مؤلف معين يعرف عنه انه يتضمن افكار مخالفة للنظام القائم او التقاليد الثابتة فقد كان القضاء يأمر باحراقه • هكذا نعلم بخصوص مؤلفات • بروتسوجراس فى اثينا ومؤلفات لا بونيوس فى روما والواقع ان تقييم هذه الفترة يجب ان ينبع ايضا من تصور الاوضاع الاجتماعية حيث ان الكتابة لم تكن متداولة وحيث على وجه الخصوص ان النشر وتداول المؤلفات كان يعكس اسلوبا بدائيا وظريفا فضلا عن انه كان يفترض فترة زمنية معينة بين الصياغة والتداول • نشر وجدوى وتداول مقيده • كل هذا يحدد مدلول الفاعلية •

ب) المرحلة الثانية تبدأ اجمالا فى نهاية القرن الثالث عشر عندما صدر القرار المشهور من ملك فرنسا فيليب يخضع فيه جميع المكتبات ودور النشر الى اشراف الجامعة لمنع تداول المؤلفات السيئة • وابتداء من ذلك التاريخ يتعين على كل صاحب مكتبة او دار للنشر ان يقسم امام الجامعة على احترام تلك القواعد • فى عام ١٣٢٣ بدأ نظام الرقابة يتكامل تدريجيا حتى يصل الى صورته النهائية • فى عام ١٤٠٥ الرقابة خلال تلك الفترة كانت تعنى حق الجامعة فى ان تراجع اى مؤلف قبل تداوله تعنى حق الجامعة فى ان تراجع اى مؤلف قبل تداوله للتأكد من توفر شروط معينة فى مضمون الرسالة الاعلامية • وقد استمر هذا النظام قائما حتى الثورة الفرنسية • وصمم خلاف فى بعض التفاصيل وفى بعض الابعاد فان المدلول ظل واحدا وهو تنقية مضمون الرسالة

من اى جوانب متعلقه بأبعاد معينه • صبغت هذه الابعاد النواحى الدينيه فى احدى مراحل التطور
والتحولات السلطات المتعلقة بمزاولة الرقابة من الجامعة الى رجال الكنيسة ، فى النصف الثانى من
القرن السابع عشر بدأت تبرز علاقه ارتباط واضحة بين مفهوم الرقابة الاعلامية ووظيفة الكنيسة
الكاثوليكية حتى ان ميلتون فى مؤلفه المشهور حول حرية الصحافة يحدثنا عن ان الرقابة نظام
لا يصلح ان تقبله اى جماعة تؤمن بالديانه البروتستنتية وكان من الطبيعى نتيجة للافكار الثوريه
التى صبغت الثورة الفرنسيه مع انتشار الطباعة والكتابة وتطورها ان يسعى النظام القائم الى احكام
عملية الرقابة حتى انه عند انفجار الثورة الفرنسية كان القائمين على هذا العمل يزيد على مائة
فى باريس وحدها • ويندر ان نجد مفكرا ذا اهمية معينة لم تتناوله الرقابة بأسلوب أو بآخر :
فلنذكر على سبيل المثال ، ديكارت ، ومونتسكيو ، حتى ان احد الكتاب المشهورين فى تلك الفترة
يعلق على ذلك بقوله : " ان الانسان المولود فرنسيا وكاثوليكيا يجد نفسه امام استحالة فعليه
للكتابة ، لان اهم الموضوعات ممنوعة عليه " •

ح) جاءت الثورة فألغت الرقابة وكانت احد المكتسبات الاولى فى حركة التحرر المعقول
والافكار ولكن سرعان ما اعادها بونابرت ومنذ تلك الفتره وخلال طيلة القرن التاسع عشر نجد ان الرقابة
ترتبط بطبيعة النظام السياسى : فنظام حر لا يعرف الرقابة ، نظام رجعى يجعل اول منطلقاته
اقامة نظام للرقابة ، طبيعة ومدى الانفتاح من عدمه تحدد ابعاد الرقابة • خلال طيلة القرن
التاسع عشر لم نجد نظاما ثوريا لا يجعل احد منطلقاته الاساسيه الغاء نظام الرقابة كنقطة بدايه
لبرنامجه السياسى •

الفقه خلال تلك الفتره انقسم تأييدا او معارضه تحت تأثير الابعاد الايديولوجية المرتبطة
بحدود الحرية الفردية وقواعد استخدامها • لاول مرة بدأت تظهر واضحة فلسفة للرقابة اساسها
حقيقة حدود السلطة من حيث الولاية على الفرد والمواطن •

يعبر ديبونالد عن الاتجاه المحافظ بقوله : " اننى اعتقد انه لا توجد حرية حقيقية للصحافة
الا تحت ضمان الرقابة التى تسمح باستبعاد الافكار والمفاهيم الاباحية كما انه لا يمكن ان توجد
حرية مدنية الا بفضل ضمان القوانين التى تمنع اباحية الحركة • • " الرقابة بهذا المعنى هى اداة
من ادوات حماية الفرد ضد نفسه ورغبة من جانب النظام السياسى ان يتحمل مسئولياته كاملة •

يقف ضد هذا الاتجاه تصورا آخر للعلاقة بين المواطن والسلطة عبر عنها فى الفكر الانجليزى
جون ستيوارت ميل فى مؤلفه بعنوان الحرية • يقول فى مؤلفه المذكور : " اقوى الحجج ضد تدخل
الرأى العام فى السلوك الشخصى هو انه عندما يتدخل فالغالب ان يكون تدخله خطئا وفى غير

الى ... اننا لسنا فى حاجة الان الى اى حجة ضد السماح للهيئه التشريعيه او التنفيذيه
التى لمست مصلحتها ومصلحة الشعب واحدة ان ترسم للناس افكارهم او تحدد المذاهب او الحجج
التى تصح لهم بالاستماع اليهم " • على ان بنجامين كوكستينات هو الذى استطاع ان يوصل
الدلالة المعارضة تأصيلا واضحا ومحددا • اساسه التفرقة بين حرية الرأى والحرية الاعلامية :
الاولى تتعلق بحرية المواطن فى تكوين رأيه • والثانيه تتعلق بالاذاعة بجميع الوسائل بما فى ذلك
الادوات الجماعية عن الرأى الفردى او الذاتى • يقول المؤلف المذكور فى خطاب له مشهور فى
٣٠ مايو ١٩٢٨ أمام الهيئة النيابية : " ان الرقابة تكون اغتيالا خطيرا لحقوق الانسان • انها
اعتداء على اول عناصر الحق التى يجب ان يتمتع بها المواطن فى المجتمع الحر حيث يجب ان يكون
من حقه نشر افكاره • ان اى اجراء تحفظى يتجه الى تجنب مخاطر الصحافة لم يمنع ابدا من
تداول الكلمة المكتوبة السيئة ان الرقابة نظام ينتمى الى الماضى • وهو فى عالمنا المعاصر لا يمكن
ان يكون سوى اجراء من جانب الحكومة فى صراعها ضد حقوق الجماعة •

هذا المفهوم كما عبر عنه الفقيه الفرنسى ظل يسيطر على الفكر السياسى حتى نهاية الحرب
العالمية الاولى • ظلت القاعدة المطلقة هى ان النظام الديمقراطى لا يغنى سوى نظام للحرية
الاعلامية • وان الحرية الاعلامية تعنى الناء اى صورة من صور الرقابة •

د) المرحلة اللاحقه تبرز مع النظم الديكتاتوريه فى اعقاب الحرب العالمية الاولى • فتوجه
النظم الفاشستية ثم الشيوعية قادت الى مفهوم جديد لطبيعة العلاقة بين المواطن والدولة وهو
المرتبط بالوظيفة الايديولوجية للتنظيم السياسى • بدأ ذلك التطور لنين عندما اعلن فى عام ١٩١٩ :
" الحرية الحقيقية لا يمكن ان تبرز الا لخدمة النظام " وعقب ذلك بعدة اعوام • قال موسلين كلمته
الشهورة : " الصحافة الايطاليه حرة لانها لا تخدم سوى قضية واحدة ونظام واحد • وجاءة المادة
١٢٥ من الدستور السوفيتى لتعلن تأسيس الرقابة سواء بالنسبة لحرية الكلمة او الحرية الصحافية
كل هذا يرتبط بمفهوم جديد اساسه ان احدى وظائف الدولة هى الوظيفه الاعلامية • وان الوظيفة
الاتصال لا تعنى فقط الاعلام الخارجى بل تتجه ايضا الى الاهوام الداخلى • وان الاعلام الداخلى
اداة لتحويل المواطن ليصير صالحا لمجتمع الغد • وهذا يفرض تأسيس النظام الاعلامى على فكرة
الرقابة •

— ٣ —

النظم المعاصرة للرقابة

لقد انتهينا بدراستنا على النظام الوضعيه من حيث خصائص نظام الرقابة الاعلامية لاستطعنا ان نميز بين ثلاثة نماذج اربعة :

اولا : نظام الرقابة الاختيارية حيث الرقابة خاصة غير ملزمة وهو نموذج يتبع بشكل خاص في البلاد الانجلو سكسونيه .

ثانيا : ثم نظام الرقابة الالزامية الرسمية ولكن المتحررة وهو النظام الذى يتبع في اغلب دول العالم المعاصرة وصفة خاصة في اغلب دول اوربا الغربية .

ثالثا : نظام الرقابة المطلقه ولكن على درجة واحدة ، وهو الذى عرفته الديكتاتوريات الفاشستية والذى لايزال سائدا في بعض البلاد المتخلفة .

رابعا : نظام الرقابة المطلقة على درجتين والذى نجده في جميع البلاد الشيوعيه .

فلنحاول ان نحدد خصائص كل من هذه النماذج .

١ — نظام الرقابة الاختيارية يقوم على اساس ان من حق المواطن ان يزاول حقوقه الاعلامية بحرية كاملة وتحت مسئوليته ولكن ازاء تعقد المشاكل الاعلامية فقد يجد المرء نفسه امام عدم وضوح لحدود حقه وبالتالى يجد نفسه في موقف المتردد من امكانيات استخدام ذلك الحق . وازاء ذلك فان الدولة تضع نظام الرقابة اساسه حق المواطن في ان يستخدم حريته دون اى قيد ولكن يستطيع اذا اراد ان يلجأ الى هيئة معينة يسترشد بها ودون ان يترتب على ذلك اى التزام حتى لو خالف تلك النصيحة . على انه لو استخدم حقه وتضمن ذلك مخالفة للقانون فان الكلمة النهائية تصير من حق القاضى ان يوقع عقوبة على المخالف للنظام القانونى . هذا النظام هو الذى يطبق في بريطانيا العظمى واحد التقاليد الثابته في النظام الانجليزى حتى في خلال فترات القتال والصراع المسلح هو ان تظل الرقابة تحتفظ بصفتها الاختيارية .

كذلك نفس المبدأ يطبق بطريقة اقل وضوحا في الولايات المتحدة . وقد ساعد على تطبيق المبدأ في امريكا الشمالية عاملين : اولهما فقه المحكمة العليا الذى استقر منذ القضية المشهورة باسم "فيلم المعجزة" عندما اصدر القاضى دوجلاس حكمه في عام ١٩١٥ الذى يجعل من فكرة الحرية مبدأ ينطبق على جميع مظاهر الاعلام بما في ذلك الاتصال السينمائى . العامل الثانى وهو مبدأ حرية الاستثمار الخاص الذى ينطبق على جميع ادوات الاتصال الجماهيرى المسموع والاتصال التليفزيونى . على ان التطورات الاخيرة وبصفه خاصة عقب موجات الافلام الاباحية التى بدأت تبرز

فكرة الازمة الاقتصادية المصرفية، بحيث ان التقييد وحده الرقابة واستقصور عن نفسها في
نماذج مختلفة بدأت بما يسمى الرقابة المهنية التي سوف نراها فيما بعد. ذلك الى ظهور فكرة
الرقابة الادارية واحدة تابعاتها القانون المصري باسم "لجنة الاتصال المباشر والى" الصادر في
عام ١٩٣٤ والذي اقتصر على انشاء لجنة تكون وظيفتها اعداء التصريحات المتعلقة بخصوص استقلال
محطات الاذاعة بما فيه ذلك الرقابة على تنفيذ العقود المتعلقة بذلك الاستقلال. على انه طبقا
عام ١٩٤٢ فان المحكمة العليا بحكمها الصادر من فرانكفورتير سلمت بأن من حق هذه اللجنة
القيام بنوع من الرقابة الكاملة في مضمونها الفعلي على الارسال الاذاعي. ومنذ ذلك التاريخ بدأت
تتطور الى النطاق الامريكي صور مختلفة من نماذج الرقابة على بعض انواع الاعلام الجماهيري بصفة
خاصة الاعلام التليفزيوني والاعلام الاذاعي بحيث يمكن القول ان النظام الامريكي يتجه حاليا
الى اسلوب الرقابة المقيدة.

١٠ـ النموذج الثاني يأخذ بفكرة الرقابة ولكن يخفي عليها خصائص معينة. فالرقابة هنا (١١) استثنائية
يخضع لطبيعة الاتصال الاعلامي. الجمهور المستقبل او الظروف الاستثنائية المرتبطة بالتطور السياسي
العام. بعبارة اخرى المبدأ العام هو الحرية، ولكن هناك بعض استثناءات او بعض ظروف تسمح
باقامة الرقابة دون ان يعني ذلك خروجا على المبدأ العام. وهكذا تحاول هذه النظم التوفيق
بين حق الفرد في الاعلام والاتصال والتعبير عن رأيه وحق الجماعة في حماية المجتمع من القلق
والاضطراب الذي قد يولده استخدام ذلك الحق اذا ارتبط باوضاع معينة. هذا النموذج الذي
نستطيع ان نصفه بأنه يقوم على فكرة تحدد النظام هو الذي يسيطر على اغلب الدول المعاصرة.
وهو نفس النظام الذي عرفته اغلب دول اوربا قبل الحرب العالمية الثانية ولا تزال حتى اليوم تحترمه
بصورة او بأخرى.

هذا النموذج بحسب اهميته سوف نتناول احد تطبيقاته فيما بعد بالتفصيل وهو النظام الفرنسي.

١١ـ النموذج الثالث للرقابة والذي نصفه بالرقابة الكلية الشاملة على درجة واحدة. فالرقابة
مطلقة لا تعرف اي قيد او اي استثناء. المبدأ بسيط واضح في مدلوله عنيف في نتائجه لا توجد
اي صورة من صور الفكر يمكن ان تتداول دون ان تحصل من الادارة على تصريح مسبق باسم VISA
الفيزا. المرافق المتعلقة بالرقابة تتجمع تحت اشراف ادارة واحدة في اغلب الاحيان ذات طابع
عسكري تلحق بوزارة الاعلام. التنفيذ يأخذ صورة عنيفة حيث العقوبات لا تقتصر على الفرد وانما
تتعدى ذلك الى مصدر الرسالة المخالفة للقانون. نموذج واضح لهذا الاسلوب نجده في النظام
الاسباني حيث تقرر المادة ١٢ من وثيقة ١٣ يوليو ١٩٤٥ على ان كل اسباني له الحق في أن يعبر
عن ارائه بحريه ولكن تفسر المادة تضيف بأن هذا الحق لا موضع له الا حيث تلك الافكار لا تتعارض

في المادة ٥ الاساسية للدولة • المادة ٣٣ من الدستور الموقت الى اكثر صراحة واكثر عنفا •

١٢ — الرقابة الادارية على اكثر من درجة واحدة اسلوب جديد عرفته البلاد الشيوعية اساسها ان فكرة الرقابة لا تتم مرة واحدة بل عدة مرات والنموذج الواضح بهذا الخصوص هو الرقابة في التشريع السوفيتي كما نظمها القانون الصادر في ١٩٤٩ • فطبقا لذلك القانون يتعين ان يخضع الاعلام الى نوعين من الرقابة : الاولى قبل نشر المؤلف والثانية قبل تداولة • قبل نشر المؤلف فان كل ما هو مكتوب يجب ان يحصل على اجازة مسبقة من احد المكاتب المتخصصة في الحزب الشيوعي لتقدر ان ذلك الاعلام المكتوب صالح من حيث الشكل والموضوع لان يخضع لعملية النشر • هذه المرحلة الاولى والتي تتولى فيها الرقابة اجهزة الحزب الشيوعي وظيفتها تأكيد القيادة العقيدية • او بعبارة ادق منع نشر اي كتابة تخالف ما يسمى بالخط السياسي • هذه الرقابة تشتد وتضعف تبعا لمراحل تطور النظام السوفيتي : فهي عنيفة قبل خروشوف متسامحة في فترة حكم خروشوف معتدلة عقب اختفاء خروشوف •

على ان الرقابة لا تقتصر فقط على هذه المرحلة • فعقب ان يتم اعداد الاعلام المكتوب للتداول يجب ان يعرض على هيئة ادارية معينة لتحدد ابعاد التداول • هذه الهيئة السمستي تسمى اي المكتب المركزي للاعلام والدعاية تقوم بتحديد مكان التداول ، لحظة النشر ، عدد النسخ التي يسمح بطبعها • بعبارة اخرى هذا الجهاز الحكومي والذي لا ينهج الحزب وانما يتبع الاداة التنفيذية ، يتولى عملية تحقيق التنسيق بين العمل الاعلامي والسياسة العامة للدولة •

١٣ — على اننا قبل ان نختم هذه النظم المختلفة لنماذج الرقابة المعاصرة علينا ان نلاحظ كيف ان الاتجاه الذي يسيد الاعوام الاخيرة نحو تأكيد فرضيا يسمى الرقابة المهنية ، وهي صورة من صور الرقابة التي تعيد الى الذهن ما بدأنا به التحليل ونوان عملية الرقابة من حيث طبيعتها هي عملية نفسية تدور حول عملية الضبط الذاتي للسلوك • فالرقابة المهنية هي رقابة ذاتية ولكنها جماعية • والاتجاه اليها يعني تأكيد الناحية السلوكية ايضا في الرقابة الاعلامية وهذا ما سوف نعرضه له فيما بعد •

النظام الفرنسى للرقابة الاعلامية

يعد نظام الرقابة فى التقاليد الفرنسية يقدم لنا نموذجا واضحا لذلك الذى اسميناه التعدد النظامى للرقابة الاعلامية • لنستطيع بهذا الخصوص ان نجد من بين اهم النماذج التى يعرفها النظام الفرنسى اربعة تطبيقات:

ا) الرقابة على السينما • نموذج الرقابة على السينما يمثل احدث انواع الرقابة الاعلامية لتعليمات تمتاز بالتطور السريع فضلا عن حداثتها • التشريع الذى يحكم نظام السينما يعود الى ١٩ يونيو ١٩٦١ • ورغم ان هذا النظام قد خضع لتغييرات عديدة واثار مناقشات لاحصر لها آخرها بمناسبة فيلم مارلون براندو "آخر تانجو بباريس" الا انه فى مجموعه لايزال محتفظا بهيكله العام الذى يمكن ان يوصف بأنه اكثر انواع الرقابة تقدما وتطورا من حيث ابعاد التشكيل لمختلف القوى المرتبطة بعملية الضبط الاعلامى •

ب) نموذج ثان تقدمه لنا الرقابة على البريد وهى تتناول جميع الاتصالات من خلال المراسلات المكتوبة بالمعنى الدقيق وكذلك كل ما له صلة بالاتصال من خلال مرفق التلغراف • هذه الرقابة تخضع لتشريع قديم نسبيا اذ انها يحكمها القانون الصادر بتاريخ ٢٩ نوفمبر عام ١٨٥٠ •

حـ) الرقابة على الصحافة من جانب آخر يحكمها نظام ثالث ينظمه القانون الصادر بتاريخ ٢ ابريل ١٩٥٥ والذى يمنح للسلطات الادارية نوعا من الضبط بالنسبة لظروف معينة ولكنه كقاعدة عامة يمثل الاستثناء •

د) التطبيق الرابع تقدمه لنا الرقابة على المسرح • هنا نجد النظام القائم لايعرف اى صورة من صور الرقابة بمعنى انه يجعل من مبدأ الحرية القاعدة المطلقة التى لاتقبل استثناءا • التشريع الصادر بتاريخ ١٣ اكتوبر ١٩٤٥ صريح بهذا الخصوص • ورغم ذلك فمن الممكن استنادا للسلطات العامة التى يملكها مرفق الامن اقامة نوع من الرقابة فى ظروف استطلاع القضاء ان يفرضها بوضوح ودقة •

تطبيقات متعددة حيث كل منها يملك مصادره الوضعيه • ورغم ذلك ورغم هذا التعدد فى النظم نستطيع ان نصوغ جميع هذه التطبيقات فى نظامين اساسيين يحكمان العمل الاعلامى :

اولا : هناك نظام تخضع له جميع التعبيرات الفكرية فيما عدا أدوات الاعلام الجماهيرى • المبدأ هو اختفاء اى نوع من انواع الرقابة المسبقة • الرقابة تصير كقاعدة عامة ممثلة للاستثناء •

ثانيا : ثم هناك نظام آخر تخضع له ادوات الاعلام الجماهيرى حيث تصير الرقابة القاعدة وتصير عدم الرقابة ممثلة للحالة الاستثنائية •

فلنحاول ان ندرس هذين النظامين كل منهما على حدة •

١ - في التقاليد الفرنسية نستطيع ان نلمس موضوع مبدئين مطلقين يحكمان عملية التعبير عن الفكر . اولهما ان مدلول الحرية في الفكر يجب ان يفهم باوسع معانيه وانه لا يجوز ان يرد عليه استثناء الا من قبيل النص الصريح الواضح المحدد . من جانب آخر حرية الفكر تشمل لا فقط حرية الرأي وحرية التعبير عن الفكر وانما ايضا حرية نشر الفكر اى تمكين الفكر من التداول بجميع ادوات الاتصال . المادة ١١ من اعلان حقوق الانسان بتاريخ ١٧٨٩ تقرر "حرية اتصال الافكار والاراء هي من الحقوق الثمينة على الانسان . كل مواطن من ثم من حقه ان يتحدث ان يكتب وان يطبع بحرية تامة" .

المبدأ الثاني والذي يرتبط مباشرة بفكرة الرقابة يتعلق بالجزاء الذي يمكن ان يوقع على المواطن عندما يسيء استخدام حقه في الحرية الفكرية . فهذا الحق ككل حق آخر لابد وان تكون له قيود . نفس اعلان الحقوق السابق ذكره ينص في المادة العاشرة : "اى مواطن لا يجوز ان تعاديه اى مضايقات بسبب افكاره حتى الدينية" . ولكنه يضيف عقب ذلك "وذلك بشرط ان التعبير عن تلك الافكار لا يؤدي الى اضطراب النظام الذي يفرضه القانون" . من اجل حماية هذه القاعدة فان التقاليد الفرنسية تخضع لما تسميه النظام الجزائي ومعنى ذلك ان الدولة كقاعدة عامة لا تتدخل قبل المزاولة الفعلية للسلطة التي يخولها القانون للمواطن باسم الحرية الفكرية . ان التدخل القضائي والجزائي لا موضع له الا عندما يحدث من جانب المواطن اخلال لحدود استخدام ذلك الحق كما اقامه النظام القانوني وعدم دعوى امام القضاة يفصل فيها من خلال المحاكمة بقواعدها التقليدية .

النتيجة الواضحة : نظام يحكم تعريفه يجهل كل صورة من صور التدخل الاداري والتحفظي بعبارة اخرى نظام لا يقبل فكرة الرقابة الاعلامية .

هذا النظام الذي ينتمي الى القانون العام والذي يرفض الرقابة يقبل الاستثناء مع ما يفرضه من اتاحة عملية ضبط اداري وتحفظي في تطبيقات معينة : هذه التطبيقات يجب ان تعلن صراحة بنص تشريعي . كذلك يجب ان نتذكر على ان هذه الاستثناءات يلاحظ عليها انها لا تحدد وان تكتفي برخصة صح بها المشرع للسلطة التنفيذية بحيث تستطيع ان تلجأ اليها اذا ارادت في حالات معينة ودون ان يفرض عليها ذلك الاجراء . بعبارة اخرى يمكن ان توصف بأنها نوع من التصريح للسلطة التنفيذية بأنها تستطيع ان رأت مبررا لذلك ان تقيم نظاما للرقابة ظروف استثنائية حرص المشرع على ان يحددها .

هذه الحالات الاستثنائية تختلف وتتنوع من حيث الطبيعة البعض منها لا يمثل مطلقا عاما يسمح بأن يشمل اى نوع من انواع التعبير عن الفكر والبعض على العكس من ذلك يتقيد بصور معينة من صور الاعلام الجماهيري .

مطابقة هذه التطبيقات التى تمثل الاستثناء يسمح لنا بأن نلمس موضع الرقابة العامة التى تسيطر على المشرع الفرنسى من حيث محاولة اقامة توازن بين الحرية الاعلامية كحق للفرد وللمواطن والرقابة الاعلامية كاجراء تحفظى تفرضه وتبرره بعض اعتبارات المصلحة العامة .

١٦ — أول هذه التطبيقات تنص على المادة ١٦ من دستور عام ١٩٥٨ . هذه المادة فى الواقع لم تكن نموذجا من نماذج الرقابة لاحدود لها فالمادة تنص على انه من حق رئيس الجمهورية وفقا لوجهة النظر المؤيدة لذلك من المجلس الدستورى ان يتخذ اى اجراء يشعر بأنه ضرورى لمواجهة الظروف الاستثنائية التى تنص عليها تلك المادة . الواقع ان هذا النص يعطى رئيس الجمهورية الفرنسى سلطات واسعة ومطلقة حتى ان بعض الفقهاء يصفونه بأنه " ديكتاتورية المصلحة العامة " والبعض يصل الى حد القول بأنه " ديكتاتورية رومانسية " معبرا بذلك عن خروج هذا النص عن القواعد العامة والتقاليد الدستورية . ولكن الذى يهمنا ان الفكرة الاساسية التى تسيطر على الدستور الفرنسى بهذا الخصوص تدور حول اعطاء رئيس الجمهورية امتيازات مطلقة تسمح بخلق رقابة كلية وشاملة او جزئية وبحدود تضرب وتضبط وتوجه اى صورة من صور التعبيرات الفكرية .

على اننا يجب ان نضيف الى ذلك ان القضاء الفرنسى بصفة خاصة قضاء مجلس الدولة منذ حكمه المشهور فى ٢ مارس ١٩٦٢ يقيم نوعا من التوازن ازاء هذا النص بأن يجعل جميع التصرفات او القرارات التى تتخذ تنفيذا لهذه المادة خاضعة لرقابة القضاء فى حدود ما يسمى بتجاوز السلطة ، وينطوى تحت هذا المدلول ما يتصل باقامة نظام الرقابة .

يرتبط بنفس المفهوم تطبيق آخر ينص على القانون بتاريخ ٣ ابريل ١٩٥٥ الذى يبيح للسلطة التنفيذية اقامة رقابة تحفظية على الصحافة . النص التشريعى يسمح بأن يجعل هذه الرقابة متسعة بحيث تشمل لا فقط المطبوعات والوثائق بجميع انواعها ، بل وكذلك تلغرافات وكالات الانباء . هذا هذا القانون طبق فى مناسبتين : الاولا بخصوص حوادث الجزائر ثم ثانيا بخصوص الحوادث التى ادت الى انقلاب ما يو ١٩٥٨ .

كذلك يقود الى نفس المفهوم السابق ذكره وهو حالة الاضطراب او ما فى حكمه التى تبرر للسلطة الخروج على القواعد العامة ، ذلك النص الوارد فى القانون الصادر بتاريخ ٢٤ اغسطس ١٩٣٩ والذى يخول الحكومة فى حالات الاضطراب او التعبئة العامة اتخاذ الاجراءات اللازمة لتنظيم وفاعلية ضبط الصحافة والمنشورات بجميع انواعها .

جميع هذه النماذج تنبع من مفهوم واحد وتكاد تتشابك فى تطبيق واحد : حالة الضرورة حيث يصير المجتمع فى مواجهة ظروف استثنائية تبرر وضع حد لحرية الصحافة .

١٧ - على ان هناك نموذج آخر لا يرتبط بتلك الحالة العامة وانما يتعلق بالاعلام المكتوب الموجه الى الخارج . فالقانون الصادر بتاريخ ١٦ يوليو ١٩٤٩ والذى يكمله الديكريتو الصادر فى اول فبراير ١٩٥٠ تقيم لجنة للرقابة تملك سلطة الضبط بالمعنى الضيق بكل ما يتصل بالاعلام الوارد من الخارج . هذا القانون ينص على ان هذه اللجنه يجب ان تعطى موافقتها الصريحة على تحويل للمضمون بالنسبة للاعلام المكتوب المستورد من الخارج والذى يتجه الى الشباب هذه اللجنة تملك ايضا سلطة الرقابة الاختيارية بالنسبة لنفس النوع من الاعلام والذى لا يأتى من الخارج .

١٨ - الحالات السابقة تحدد نماذج واضح من تعريفها انها تمثل استثناءا على القاعدة العامة . بحالة الضرورة فى التطبيقات الاولى ، وطبيعة الجمهور المتجهة اليه الرسالة الاعلامية ومصدر الرسالة فى الحالة الثانية تمثل قيودا معينة تضفى على تلك النماذج صفتها الاستثنائيه . ولكن هناك تطبيق ثالث يأخذ طابع القاعدة العامة . وهو تطبيق استطاع ان يقيمه القضاء ابتداء من تضمير معين لسلطات مرفق الامن وتفضل الاستقرار على مفهوم معين فى حقوق سلطات البوليس . بطبيعة الحال نحن فى هذه الصورة لسنا ازاء رقابة بالمعنى الضيق كما عرفناها فى التعريف صيلفته : فلسنا ازاء دراسة مسبقة للفكر التى تعنى صياغة حكم وتقييم حول مضمون الفكر . رغم ذلك فازاء تطبيقين من تطبيقات المفهوم العام نستطيع ان نلاحظ اننا نجد انفسنا فى حالة رقابة ادارية تحولت الى اجراء تحفظى بالمعنى الضيق بحيث تملك جميع خصائص الرقابة كما سبق وحددناها .

الحالة الاولى تستمد وجودها من نص تشريعى - فالمادة الثالثه من القانون الصادر بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٨٥٠ والتى يكملها نص المادة ٧٩ من تقنين البريد تنص على ان رئيس مكتب البرق من حقه وواجبه ان يرفض اى برقية تخالف النظام العام او الاداب العامة . وفى حالة الاعتراض فيجب ان يحال الموضوع فى باريس على وزير الداخلية وفى الاقاليم على المحافظ .

الحالة الثانية استطاع القضاء ان يصوغها ابتداءا من المبادىء العامة التى استقرت عليها تقاليد مجلس الدولة الفرنسى . قضيه بنجامين معروفه فى تاريخ القضاء الادارى المفهوم العام هو ان اى تهديد باضطرابات محلية تبرر للادارة عدم احترام الحريات الفردية . واستنادا الى هذا المبدأ فى اكثر من تطبيق واحد حول العمدة لنفسه حق ايقاف عرض الافلام السينمائية او تداول بعض المؤلفات او تقديم بعض المسرحيات . بل ان بعض هؤلاء انتزع لنفسه الحق فى ان نعرض

في نطاق ادارته على كل مسرحية او تمثيل مسرحي الحصول على اذن مسبق من جانب الادارة .

وبهذا المعنى اقام هؤلاء نوع من الرقابة الادارية بمضمونها الكامل دون ان تستند على نص قانوني صريح . ثم ان قضاء مجلس الدولة درج على القضاء مثل هذه الاجراءات الا انه في الفترة الاخيرة كما سوف نرى فيما بعد استقر القضاء الفرنسي على التسليم بهذا الحق بخصوص كل ما له صلة بالاعلام السينمائي .

١١ - لو انتقلنا للنموذج الثاني وهو المتعلق بأدوات الاتصال الجماهيري لاحظنا ان الفقه الفرنسي درج على ان يجعل هذا الاصطلاح لا يشمل سوى الاذاعة والتليفزيون والسينما . ومن الجدير ان نتذكر اهمية هذه الادوات الاعلامية وطبيعتها . والواقع ان هذه الطبيعة الخاصة التي سوف نراها تحليلا في موضع آخر والتي تتلخص في قدرتها على خلق حالة من حالات الاضطراب والتوتر السريع مع التأثير الجماعي هي وحدها التي برزت قلب المبادئ العامة : فمقابل ان كان المبدأ في الاتصال الاعلامي هو الحرية كقاعدة عامة نجد هنا ان القاعدة العامة هي الرقابة والضبط وان الحرية تصير الاستثناء .

هذا النظام لا يثير الكثير من المشاكل فيما يتعلق بالراديو والتليفزيون . ذلك ان هاتين الاداتين من ادوات الاعلام الجماهيري تخضعان كلاهما لفكرة الاحتكار من جانب الدولة وبالتالي النجية المطلقة للسلطة الحكومية . والنظام الذي يحكم كلا الراديو والتليفزيون هي فكرة المرفق العام الامر الذي يسمح بفكرة اقامة رقابة وضبط ادارية تصاعدية ضيقة . ولا يرد على ذلك سوى بعض استثناءات محدودة كما هو الحال بالنسبة للحملات والانتخابية التي ينظمها التشريع بدقة على ضوء مبدأ الحرية والمساواة من الاحزاب المتنافسة .

١٢ - لو انتقلنا الى نظام السينما لوجدنا التشريع الفرنسي يقدم لنا نموذجا آخر جديرا بالتحليل . فالسينما تخضع لفكرة استثمار رأس المال الخاص كقاعدة عامة ومن ثم فهي لا تمثل مرفقا عاما يمكن ان تسري عليه الاحكام السابق ذكرها . على العكس من ذلك فان السينما يجب توصيف كونها تتبع من فئة الاعلام الجماهيري بالمعنى السابق تحديده في تقاليد الفقه الفرنسي تفرض نوع من الرقابة والضبط التشريعات القائمة وبصفة خاصة الديكريتو الصادر في ١٨ مايو ١٩٦١ تنظيم هذه الاوضاع في قواعد واضحة :

أولا : اي فيلم لا يمكن عرضه الا عقب حصوله على ما يسمى بفيزا الرقابة " .

ثانيا : هذه الفيزا لا تعطى الا عقب دراسة لمضمون الفيلم من جانب لجنة تسمى بلجنة الرقابة .

ثالثا : هذه الفيزا حتى عند التصريح بها لا تمنع من مسئولية المنتج سواء المدنية او الجنائية .

رابعا : الفيلم بغض النظر عما يسمى بفيزا الرقابة ، يمكن أن يخضع لما يسمى بالرقابة المقيدة وهى رقابة تنبع من سلطة الادارة المحلية وفى حدود اختصاصاتها .

ا) المادة ١٩ من قانون صناعة السينما ينص : " تقديم واستغلال الافلام السينمائية معلقة على الحصول على فيزا يتولى اعطائها وزير الاعلام " يكمل هذا الديكريتو الصادر بتاريخ ١٨ يناير والاخر الصادر بتاريخ ٢٣ اغسطس ١٩٦١ الذى ينص على اقامة لجنة للرقابة على الاعمال السينمائية . هذه اللجنة تتكون من رئيس وثلاثه وستون عضوا . ورغم ان اختصاصات هذه اللجنه هى فقط استشارية بمعنى ان السلطة هى من حق وزير الاعلام ودون اى قيد على سلطاته بحيث يستطيع ان يخالف الرأى الا ان تكوينها يدخل فى التشريع الفرنسى ما يمكن ان نسميه بمبدأ الرقابة المهنية . سوف نرى فيما بعد ما الذى تعنيه هذه الرقابة ولكن فلنلاحظ كيف ان تكوين هذه اللجنه يعكس هذا المفهوم تطبيقا لنص القانون هناك اثنى عشر عضوا فى اللجنه يختارون بحكم اختصاصاتهم الفنيه بحيث تضمن اللجنة ممثلين عن مختلف المهن بل وعن مختلف المصالح التى تفرضها عملية الاتصال السينمائى ابتداء من المنتج حتى جمهور المشاهدين .

ب) ما هى قيمة ودلالة الفيزا التى تصدر من اللجنة؟ هذه الفيزا ممكن ان تكون مطلقة وممكن ان تكون مقيده . فمن الممكن ان تعطى الفيزا للفيلم دون قيد ولكن من الممكن ان تتضمن هذه الفيزا نوع من التقييد . كما قد يحدث ان ينص على ان الفيلم لا يجوز عرضه الا فى الداخل او انه ممنوع على انه يعرض على منهم اقل من ١٨ عاما او ١٣ عاما . على ان الملاحظه الجديرة بالذكر والتأكيد هو ان الفيزا بذاتها ليست واقعة مبررة ومعنى ذلك كما استقرت عليه احكام مجلس الدولة فان الفيزا لا تمنع من امكانية متابعة المنتج بأنه بعمله السينمائى قد خالف النظام العام او قد راهد القيم الاخلاقيه او بأى جريمة اخرى بما ينص عليه القانون .

جـ) كذلك يجب ان نضيف ذلك التطبيق الخاص الذى تثيره السينما بخصوص الرقابة المحلية والتى استقرت احكام القضاء على اعطائها للادارة المحلية استنادا الى مبدأ المرفق العام . فالفيزا السابق ذكرها تعنى التصريح بعرض الفيلم فى جميع اجزاء الاقليم الفرنسى . وهنا ثار امام القضاة السؤال التالى : اذا فرض وصرح بهذه الفيزا لاحد الافلام فهل هذا التصريح حتى ولو صدر ايجابيا من وزير الاعلام يمنع ممثلى النظام الادارى المحلى من اى سلطة ازاء عرض الفيلم فى نطاق اختصاصهم الاقليمى ؟ قضاة مجلس الدولة الفرنسى فى هذا صح . ثار الموضوع اولا بخصوص

قيمة لوتيتسيا حيث اعلن ان العمدة مسئول عن النظام العام والاخلاقيات العامه فى ادارته ومن ان النظام العام والاخلاقيات الاجتماعية تكون احد العناصر التى تفرض عليه مسئولية معينة • من ثم فاستنادا الى مختلف الظروف المتعلقه بكل مجتمع محلى يستطيع ومن حقه ان يمنح فى اقليم اختصاصة تقديم اى فيلم سبق وان حصل على الفيزا الوزارية ولكنه يرى ان عرض مثل ذلك الفيلم يمكن ان يؤدى الى اضطرابات خطيرة سواء لاسباب اخلاقية مرتبطة بموضوع الفيلم او لظروف محلية يمكن ان تخلق نوع من التوتر فى النظام العام • هذا القضاء ورغم ما اثاره من انتقادات مختلفه من جانب الفقه والمشتغلين بالاعلام السينمائى ظل ثابتا وتأيد فى اكثر من مناسبة • نماذج ذلك كثيرة : حدث فى مرسليا بخصوص افلام بريجيت بارد وتكرر فى بعض مناطق جنوب غرب فرنسا بخصوص بعض الافلام المرتبطة بحركات الانفصال المعروفة باسم منطقه الباسك •

— ٥ —

حول نظرية عامة للرقابة

٢١ • ـ هل نستطيع من خلال العرض السابق ان نضع تأصيلا لظاهرة الرقابة يسمح بتحديد الاطار الفكرى العام للتدخل الادارى والحكومى فى العمل الاعلامى بصفه عامة وفى الاعلام الجماهيرى بصفة خاصة •

قبل ان نجيب على هذا التساؤل فلنحاول ان نستخلص الدلالة العامة التى نستطيع ان نصوغها على ضوء مختلف الخبرات السابق تحديدها • ان التطور المعاصر لظاهرة الرقابة وما يحتويه من تدخل حكومى فى عملية الاتصال الاعلامى تسمح لنا بأن نؤكد بعض الملاحظات :

أولا : اول هذه الملاحظات ترتبط بالعلاقة الوثيقه بين خصائص النظام السياسى وفلسفته ونظام الرقابة وطبيعته • ان الرقابة ليست مجرد عملية ضبط للجهاز الاعلامى انها اكثر من ذلك • ان المجتمع المعاصر يجعل منها اداة من ادوات التدخل والتوجيه بقصد تحقيق هدف مزدوج : من جانب التناسق الداخلى فى مضمون الرسالة الاعلامية ومن جانب آخر الوظيفه الايديولوجية للدولة الكفاحية • لقد اختفى العصر الذى كان يقوم على اساس النظرة الى العمل الاعلامى على انه مجرد اخبار وعلى ان الرقابة هى مجرد اداة تسمح بمنع وصول خبر معين او بمنع تداول مادة اتصالية معينه تتضمن تهجما او انتقاضا من مبادىء تقليدية او من سلطات يفترض انها تملك درجة

من الهيبة والاحترام . الدولة المعاصرة تؤمن بان لها وظيفة تدور حول خنق قنوات الاتصال بين الطبقة الحاكمة والطبقات المحكومة . ما هي طبيعة هذه الوظيفة؟ ما هي ابعادها ؟ ما هي ادواتها وما هي حدودها ؟ كل هذه عناصر مختلفه اضحت اليوم تمثل محور وجوهر العملية الاتصالية وبالتالى لابد وان تضفى دلالتها على ظاهرة الرقابة .

ثانيا : كذلك نلحظ ان المجتمع المعاصر لم يعد يقبل اطلاقية المبادئ بخصوص هذه الظاهرة . فكرة النسبية ايضا تغزو نظام الرقابة فى جميع ابعاده . النسبية اولا من حيث اداة الاتصال فاذا كانت الرقابة على الاعلام المكتوب قادرة على ان تكون ذات فعالية معينة فانها تصير عديمة الجدوى او على الاقل محدودة الفاعلية بالنسبة للاعلام المسموع . وهى ايضا ذات نسبية من حيث المستقبل . فالاعلام المتجه الى التشىء لا يمكن ان يخضع لنفس القواعد التى يخضع لها الاعلام الذى يجعل هدفه الشخص الناضج صاحب القدرة على التمييز والتقييم . على ان اخطر ابعاد هذه النسبية ترتبط بالحقيقه الحضارية التى يمثلها المجتمع موضع المناقشة فليس كل اعلام صالح لكل مجتمع . لقد سبق ان رأينا ذلك واضحا كخلفية عامة لتأصيل النظام القضائى الذى استطاع مجلس الدولة الفرنسى ان يبنيه من خلال مخرجات الادارية عندما منح السلطات المحلية اختصاصات الرقابة بخصوص الاعلام السينمائى .

ثالثا : اضف الى ذلك ان التقدم الرهيب فى وسائل الاتصال جعل الرقابة فى اغلب الاحيان بمدلولها التقليدى نظام لا فاعلية له . المفهوم التقليدى يجعل الرقابة . تأخذ الطابع النظامى بمعنى هيئة مستقلة عن الجهاز الاعلامى تتبع السلطة الحكومية وتتولى فحص موضوع الرسالة وتقييمها ابتداء من اعتبارات تستقل عن طبيعة المهنة الاعلامية .

هذا النظام اضحى غير مجدى . السبب فى ذلك يعود الى اكثر من متغير واحد : تقدم ادوات الاتصال ، ذلك التقدم الرهيب الذى عرفناه على وجه الخصوص فى الاعوام الاخيرة جعل امكانية عملية الضبط بهذا المعنى التقليدى عملية تكاد تكون مستحيلة فى بعض الاحيان وهى على كل حال دائما مرهقة وخالقه للكثير من التعقيدات . هى مستحيلة بالنسبة للاعلام المسموع وسوف يأتى اليوم الذى سوف تصبح فيه ايضا مستحيله بالنسبه للاعلام المرئى او التليفزيونى . اما بالنسبه للاعلام المكتوب فان تضخم الانتاج العالمى بطريقة مذهلة جعلت من امكانيات أمرا مرهقا ان لم يكن مستحيلا من حيث الاوضاع المادية . يقال عادة ان العالم اليوم ينتج فى عام واحد اكثر مما انتجته البشرية منذ بداية وجود الانسان حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . ورغم ان هذا الانتاج يتركز فى

دول مصونه الا ان الظاهرة عامة ولو بمستويات مختلفة . لكيف تستطيع اى دولة كائنة ما كانت ان تقوم رقابة حقيقية بمعنى متابعة وتقويم كل ما يكتب قبل نشره او تداوله؟ اضف الى ذلك ان فن الدعاية وقد تطور تطورا رهيبا اضحى يسمح بان نصل الى اهداف واضحة ومحددة دون ان يعلن عنها بكلمات صريحة ومن خلال عملية التأصيل العامة التى تستتر خلف الصياغة وخلف اجزاء الرسالة عندما تتكامل . وهكذا قد نجد ان رسالة معينة لو اخذ كل جزء منها على حدة لما وجدنا فيها اى شئ يخالف القيم موضع التظاهر ولكن لو جمعت كاملة ومن خلال تحليل رد الفعل المقصود لاكتشفنا تلك المخالفة . ومن ثم فيكفى على الكاتب ان يجزأ رسالته فى شكل عدة مقالات او عدة كتيبات فاذا به يفلت من طائلة العقاب . اضف الى ذلك ان التطور الحضارى العام قاد الى فتح ابواب مغلقة حتى وقت قريب واضحى الحديث فيها يتم بحلانية ودون خجل . من المعلوم ان الموضوعات الثلاث التى تمثل عصب نظام الرقابة هى : القيم الدينيه ، السلوك الجنسى ، النواحى السياسية .

الحضارة المعاصرة تفرض الانفتاح بخصوص هذه الابعاد الثلاث . فالدين اضحى يمثل تقليدا متخلفا ، والسلوك الجنسى موضع حديث ومناقشات على صفحات الجرائد بل واضحت المداعبة الجنسية ولغة الاثارة العاطفية هى الاساس المتداول لجميع الاعلام الاعلانى والمتعلق بعمليات التسويق . بقيت فقط النواحى السياسية التى لا تزال فى تلك الدول التى اسميناها بالمجتمعات الايديولوجية تحظى بنصيبها من السرية والتكتم ، ولكن هذه ايضا فى طريقها الى الزوال . الجميع يتحدث اليوم عن نهاية عصر الايديولوجيات وقد يتضمن هذا نوعا من المبالغة ، ولكن الامر الواضح ايضا انه يفرض المناقشه الصريحه والعلنيه المطلقه فى تناول ابعاد ايضا النواحى السياسية .

٢٢ — ازاء ذلك كان من الطبيعى ان يظهر واضحة مفاهيم جديده لظاهرة الرقابة . وهى مفاهيم تبدو وحذرة متلصصة ولكنها تثير بثبات وصلابة . محور نظرية الرقابة اليوم هو فكرة الرقابة الذاتية بمعنى الرقابة المهنية . ورغم ان الاصول الايديولوجية لهذا المفهوم لا تزال غير واضحة الا ان المبدأ العام يدور حول ترك الرقابة الى المهنه التى ينتمى اليها رجل الاتصال . بعض العلماء فى الفقه الامريكى يجعلون منطلق هذا المفهوم الجديدة فكرة المسئولية الاجتماعية ويترسون نموذج واضح لهذا الاتجاه . اتجاه اخر ينطلق من فكرة النظام المهنى التقليدى . وقد ابرزنا فى بداية هذه الدراسة كيف ان الرقابة الذاتية تنبع من الطبيعة النفسية للسلوك الاتصالى . الرقابة الاعلامية هى اداة من ادوات تحقيق عملية الربط بين الطاقة الغازية فى شكل سلوك والمجتمع المستقبل فى شكل

اطار يجمع بين مقومات المسلوك وعقوبات الحركة . نظام الرقابة المهنية هو بيد ولا ول وهلة انه يبدو واضح عن المذهب الفردى فى اقصى معاينه التقليديه ولكن هذا غير صحيح . انه قد يستطيع ان يتحول لصير سلاحا مسلطا ضد الحرية الفردية باسم القدرة الجماعية على التقييم والربط . فاعلية هذا النظام تصير فقط فى تحقيق نوع من التوازن بين مختلف الفئات التى ترتبط بعملية الاتصال وتجميع مصالحها المشتركة فى شكل اداة واحدة تستطيع ان تقوم بهذه الوظيفة حماية للمهنة ومن خلال الاسلوب الديمقراطى للتوجيه والرقابة سبق ان رأينا كيف ان النظام الفرنسى اخذ بهذه الصورة بطريقه لم يقدر لها بعد ان تتكامل نفس المفهوم تعرفه اليوم التقاليد الامريكيه بخصوص العمل السينمائى ومنذ عام ١٩٣٤ بفضل التقنين المشهور الذى قامت بوضعه الجمعية الامريكية للعمل السينمائى . هذا التقنين الذى وصل به الامر الى حد تحديد بدقه المناظر الجنسية غير المصح بها لا يستند من حيث احترامه الا الى تقاليد عرفيه لا يحميها النظام الجزائى الحكومى وانما تحميها قوة العقود الفردية . الشرط الجزائى من جانب اعضاء تلك الجمعية ثم مقاطعه اولئك الذين ينتمون الى تلك الجمعيه من جانب هالات العرض اجرائين يسمحان باحترام هذا التقنيين .

ظاهرة الاتصال وعملية التفاعل السلوكي

ا مما من العرض السابق في تحليلنا للظاهرة السلوكية ومن خلال متابعة الفكر النفسي بخصوص هذه الظاهرة استطعنا ان نلحظ وان نؤكد على بعض النواحي الجديرة بالمواجهة ونحن بصدد تحليل العلاقة بين الظاهرة السلوكية والظاهرة الاتصالية :

اولا : رأينا ان تفسير السلوك خضع لاكثر من اتجاه حتى في نطاق المدرسة السلوكية ، من صياغة واحدة . فقد رأينا ان التصور الاول هو الذي يكاد يرتبط بمدرسة بافلوف يجعل من السلوك علاقة مباشرة بين منبه ورد فعل . السلوك بهذا المعنى او بعبارة ادق العملية السلوكية تصير حركة ميكانيكية : واقعة تندفع فاذا بواقعة اخرى تنبعث لتأخذ شكل السلوك او الحركة . في مرحلة تالية الصياغة تعدلت فتحددت بأنها منبه يصطدم بجسد فتنبعث الحركة ، بعبارة اخرى ان المقومات اصبحت ثلاث : منبه يأخذ شكل واقعة خارجية او داخلية ثم جسد يتعلق مع ذلك المنبه سواء أخذت صلة المناق صورة انبعاث ذاتي كالجوع او العطش او اخذت صورة مواجهة لواقعة خارجية بحيث يترتب على هذا التفاعل الداخلي تحبير حركي يمثل رد الفعل للمناق بين المنبه والجسد .

رغم ذلك ورغم تعدد هذه النماذج الفكرية الا ان الواقع انها جميعها تنسى اولا تدخل في اطارها التحليل بالعناية الواجبة عملية التقابل بين الفرد او مصدر الحركة او الجسد وبين الوسط البيئة او بعبارة اخرى الاطار الاجتماعي للحركة وبالتالي للسلوك . هذا المفهوم قدمه لوين باسم المجال الحيوي . ولكن الواقع انه بهذا المعنى لم يفعل سوى ان يدخل هذا المفهوم اي المجال الحيوي كأحد عناصر الجسد او بعبارة اخرى كأحد المتغيرات التي تتحكم في الجسد فتشكل سلوكه بأي شعوري ام لا شعوري . بعبارة اخرى الظاهرة البشرية هي جزء من البيئة وهي في مختلف مراحلها كحقيقة سلوكية لابد وان تتجاوب مع الموقف . السلوك بهذا المعنى ليست مجرد حقيقة ميكانيكية اذ هو حقيقة ديناميكية حيث يحدث تجاوب كامل او جزئي بين البيئة من جانب ومصدر السلوك من جانب آخر . على ان مدرسة لوين بهذا المعنى ورغم انها اطلقت الصياغة الثلاثية لتجعل منها اساسا لانها لتحليل الظاهرة السلوكية جاعلة بهذا المعنى الحقيقة المعية تمثل حلقة الاتصال بين المنبه والاستجابة الا انها في الواقع لم تكن سوى خطوة اولى وكان يجب ان يعقبها خطوة اخرى اساسها فعل عامل البيئة او المجتمع او الاطار الاجتماعي عن الجسد وكذلك رد الفعل بحيث نستطيع ان نحدد العملية السلوكية بأنها تتكون من مقومات اربع او بعبارة ادق من مراحل اربع كل منها لها خصائص المستقلة : منبه ، جسد ، رد فعل ، تفاعل . هذا العنصر الرابع الذي لا يقتصر على مجرد التطور

الى البيئه على انها حقيقه هيكليه وانما يتناولها على انها بدورها حقيقه ديناميكيه تتفاعل مع
جهد الحركة لتشكل الحركة ذاتها • بعبارة اخرى التوتر الذى يخلق الطبيه والذى ليستطيع الشخص
ان يتخلص منه لابد وان يصطدم بالاطار الاجتماعى • هذا الاطار هو حقيقه كميه وكيفية وهو بدوره
لابد وان يتفاعل مع الجسد فى استعداده للحركة • هذا التفاعل هو من جانبين : جسد لنفسه
علاقته بالاطار واطار فى علاقته بالجسد • ومن ثم يتحدد السلوك وعلى وجه الدقه يتحدد حالة
الاسترخاء التى يسعى اليها الجسد من رد الفعل او بعبارة اخرى من السلوك •

ثانيا : بعبارة اخرى يجب ان ينظر الى السلوك على انه عملية مركبة • هى عملية مركبة بالكثير
من معنى واحد : من حيث العناصر والمتغيرات ومن حيث المراحل او التطورات • هذه العناصر
قد توجد فى كل مرحلة وقد توجد فى بعض المراحل ولكنها تملك تطورها الذاتى فضلا عن انهما
تتفاعل وتتفاعل بالحقيقه السلوكيه الكلية • وهنا يجب ان نتذكر ايضا ما سبق وابرزناه ان حقيقه
السلوك تفرض التنظيم التصاعدى • فالسلوك هو تعبير عن نظام عام شامل للمواجهة ومن ثم فهو
مجموعة من الوقائع كل منها ترتبط بالاخرى سواء برابطة التهمية او التناسل • ولكن فى جميع الاحيان
الظاهرة السلوكية ليست عملية ذاتية • فاذا استثنينا ما سبق ان اسميناه بالسلوك الذاتى اى سلوك
الفرد مع نفسه فان السلوك دائما حقيقه اجتماعيه او بعبارة اخرى هو علاقه بين وحدتين على الاقل
من وحدات السلوك البشرى • وهذا يعنى انه لابد من عملية اتصال ذهابا وايابا بين الوحدات
البشرية فى العملية السلوكية •

كل ذلك يقود الى فرض ظاهرة التفاعل كأحد مقومات الحقيقه السلوكية وجعلها المنطلق الاول
لفهم ديناميات السلوك كحقيقه حركية •

٢ — ما الذى يقصد بعملية التفاعل ؟ واضح مما سبق ان عملية التفاعل تشير فى الذهن اكثر من
مجرد الابعاد النفسية او النشاط السلوكى المرتبط بوحدة بشرية فردية • ان التفاعل يعنى وجود
على الاقل اثنين او اكثر يتصارعان ويتصادمان فى نفس الوقت وفى نفس اللحظة النشاط بين الاثنين
قد يكون مستقلا وقد يكون تابعا ولكن عندما يوصف بأن هناك تفاعل فان هذا يعنى ان كل من
هذين الفردين يتحكم ويضبط على الاقل جزء معين من نشاط الاخر • وهكذا التفاعل يعنى تكميل
السلوك • وهو بهذا المعنى له آثاره المزدوجة : على الفرد وعلى الجماعة فى وقت واحد •

فلنتصور على سبيل المثال شخصين كل منهما يسعى على استحواذ الاخر فى علاقه عاطفيه
من النموذج التقليدى الذى نصادفه فى كل لحظة من لحظات الحياة اليومية • ان نقطة البداية

يجب ان يتحدد بتصور كل منهما للآخر • يرتبط بهذا سعى كل منهما فى الحصول على اعلام
عنه عن الاخر هذا الاعلام قد يكون مرده التعامل اليومى او الاتصال المباشر قد يكون مصدره
طرف آخر او اتصال غير مباشر على اننا لا يكفينا فى تحليل عملية التفاعل تحديد اللحظة الاولى
او اللحظات الاولى التى تعبر عن الصدام بين الوحدتين وانما يجب ان نضيف الى ذلك المتابعة
الزمنية فى التفاعل المتتابع المراحل • وهنا لا يكفى التصور المعتاد بينما لابد وان يتم تعميق لهذا
التصور وان ندخل فى الاعتبار ما يمكن ان يحدث فى خلال تلك الفترة من تغير او تغيير فى الاتجاه
بالنسبه لكل منهما للآخر • العلاقه او العلاقات التى قد تربط بينهما لتعبر عن نفسها فى مظاهر
سلوكيه معينه ليست مجرد علاقه ادراك وتصور بين الطرفين وليست مجرد تفاعل بينهما مع اختلاف
فى مراحله ومستوياته بل انها ايضا تفاعل وادراك من كل منهما للعالم الذى ينتمى اليه الطرف الاخر

كيف تتم هذه العملية ؟

ظاهرة الاتصال هى المنطلق الاساسى التى من خلاله تتم عملية التفاعل • على اننا يجب الا
نخلط بين ظاهرة الاتصال وعملية التفاعل الاتصال اداة ولكن التفاعل هو النتيجة • الاتصال مسلك
ولكن التفاعل هو الحقيقه الديناميكية التى تستتر خلف المسلك وخلف القوى المختلفة التى توسط
بينها اداة الاتصال •

قبل ان نحلل ظاهرة الاتصال يجب رغم ذلك ان نلاحظ ملاحظتين جانبيتين :

أولا : ان الاتصال بدوره هو سلوك ومن ثم يوصف عادة بأنه سلوك اتصالى • وكما ان السلوك
قد يكون فرديا او جماعيا او جماهيريا فكذلك الاتصال كظاهرة سلوكية يخضع لنفس القواعد •

ثانيا : كذلك يجب ان نتذكر ان عملية التفاعل بصفه عامه هى نوع من نقل الاثار من حقيقه
بشرية الى اخرى : هذا النقل قد يتم من خلال تفريغ الطاقه وقد يتم من خلال توصيل المعلومات •

بقى ان نتساءل ما هى مقومات عملية التفاعل كظاهرة فردية وجماعية •

نستطيع بتفصيل مطلق ان نتصور عملية التفاعل بالنموذج التالى : هناك وحدات ثلاث كل منها
تملك استقلالها الوظيفى ولكنها فى اتجاهها وتقاطعها تؤدى الى عملية التفاعل : خصائص الفرد
ثم خصائص الجماعة ثم خصائص الموقف المباشر • وهكذا نجد عملية التفاعل تأخذ مسارات ست من كل
من هذه المقومات الثلاث فى اتجاهها فى التقاطع ذهابا وايابا •

فالخصائص الفردية تتجه لابد وان تفرض التساؤل : لماذا هناك حالات للتفاعل تأخذ صورة
التعاون واخرى تأخذ صورة الصراع والتنافس • كذلك فان الخصائص الجماعية لابد وان تحدد صورة
معينة من صور التفاعل تبعا لكم والكيف لتلك الجماعة • نفس الظاهرة تفرض وجودها بالنسبة لخصائص

بالآخر ان يتحدد بتصور كل منهما للآخر • يرتبط بهذا سعي كل منهما في الحصول على اعلام بالآخر هذا الاعلام قد يكون مرده التفاعل السابق او الاتصال المباشر قد يكون محدده بالآخر او اتصال غير مباشر على اننا لا يكفينا في تحليل عملية التفاعل تحديد اللحظة الاولى او اللحظات الاولى التي تعبر عن الصدام بين الوحدتين وانما يجب ان نضيف الى ذلك المتابعة اللاحقة في التفاعل المتتابع المراحل • وهنا لا يكفي التصور المعتاد بينما لابد وان يتم تعميق لهذا التصور وان ندخل في الاعتبار ما يمكن ان يحدث في خلال تلك الفترة من تغير او تغيير في الاتجاهات بالنسبة لكل منها للآخر • العلاقة او العلاقات التي قد تربط بينهما لتعبر عن نفسها في مظاهر سلوكية معينة ليست مجرد علاقة ادراك وتصور بين الطرفين وليست مجرد تفاعل بينهما مع اختلاف في مراحله ومستوياته بل انها ايضا تفاعل وادراك من كل منهما للعالم الذي ينتمي اليه الطرف الآخر •

كيف تتم هذه العملية ؟

ظاهرة الاتصال هي المنطلق الاساسي التي من خلاله تتم عملية التفاعل • على اننا يجب الا نخلط بين ظاهرة الاتصال وعملية التفاعل الاتصال اداة ولكن التفاعل هو النتيجة • الاتصال مسلك ولكن التفاعل هو الحقيقة الديناميكية التي تستتر خلف المسلك وخلف القوى المختلفة التي توسط بينها اداة الاتصال •

قبل ان نحلل ظاهرة الاتصال يجب ونحن ذلك ان نلاحظ ملاحظتين جانبيتين :

اولا : ان الاتصال بدوره هو سلوك ومن ثم يوصف عادة بأنه سلوك اتصالي • وكما ان السلوك قد يكون فرديا او جماعيا او جماهيريا فكذلك الاتصال كظاهرة سلوكية يخضع لنفس القواعد •

ثانيا : كذلك يجب ان نتذكر ان عملية التفاعل بصفة عامة هي نوع من نقل الاثار من حقيقة بشرية الى اخرى : هذا النقل قد يتم من خلال تفريغ الطاقة وقد يتم من خلال توصيل المعلومات •

بقي ان نتساءل ما هي مقومات عملية التفاعل كظاهرة فردية وجماعية •

نستطيع بتفصيل مطلق ان نتصور عملية التفاعل بالنموذج التالي : هناك وحدات ثلاث كل منها تملك استقلالها الوظيفي ولكنها في اتجاهها وتقاطعها تؤدي الى عملية التفاعل : خصائص الفرد ثم خصائص الجماعة ثم خصائص الموقف المباشر • وهكذا نجد عملية التفاعل تأخذ مسارات ست من كل من هذه المقومات الثلاث في اتجاهها في التقاطع ذهابا وايابا •

فالخصائص الفردية تتجه لابد وان تفرض التساؤل : لماذا هناك حالات للتفاعل تأخذ صورة التعاون واخرى تأخذ صورة الصراع والتنافس • كذلك فان الخصائص الجماعية لابد وان تحدد صورة معينة من صور التفاعل بما لكم والكيف لتلك الجماعة • نفس الظاهرة تفرض وجودها بالنسبة لخصائص

الموقف الجامد . فمبررات السلوك واتجاهات الفرد لابد وان تتأثر بالخبرة الذاتية بالمواصفة
الذاتية قبل وبالعملية الاتصالية وهكذا نلحظ ان هذه المسالك الست ذهابا وايابا تأخذ
صورة مزدوجة فهى متتابعة من جانب وهى مترابطة زمنيا من جانب آخر . كل ذلك يفرض تحليلا
لعملية التفاعل وصفه خاصة من خلال مدخلين اساسيين : عملية الاتصال من جانب وعملية التغيير
فى الموقف وابعاده من جانب آخر واذا كنا سوف نقتصر فى هذا القسم على الناحية الاولى فاننا
يجب ان نتذكر ان احد مداخل الموقف هو ظاهرة الاقناع . والاقناع بدوره ظاهرة ترتبط بعملية
الاتصال . الابحاث الميدانية الحديثة اثبتت ان تغيير الاتجاه لا يتوقف فقط على الخصائص الذاتية
للاتجاه الذى يربط الفرد بالموقف بل ايضا على الخصائص العامة المرتبطة بعملية نقل ادراك الموقف
وبالتالى فان متغيرين اساسيين لابد وان يتلاءما بعملية الاتجاه : خصائص الرسالة الاقناعية من جانب
وخصائص الشخص الذى يقوم بنقل الرسالة من جانب آخر . نموذج لهذه الملاحظة الاخيرة نسبق ان
ان رأيناها فى غير هذا الموضع تتعلق بقيادة الرأى .

٢ - ما الذى يقصد بعملية الاتصال ؟

الاتصال يعنى فى اوسع معانيه يعنى نقل الافكار او المعلومات من جهة الى اخرى . عندما
نقوم بعملية اتصال فان هذا يعنى اننا نحاول ان نخلق شيئا مشتركا بين شخصين على الاقل .
بعبارة اخرى الاتصال يفترض عناصر ثلاث : مصدر والذى قد يكون فردا او جماعة ثم رسالة وهو المفهوم
الذى ينتقل من المصدر ثم مستقبل اى فرد او جماعة تتجه اليه تلك الرسالة . الاتصال بعبارة اخرى
يعنى ان شخصا معينا يحاول ان يخلق قنطرة مع الاخرين وهو ليفعل ذلك لابد وان يقوم بعملية
تحويل صياغى لافكاره فى شكل رموز او الفاظ تصدر منه بالعبارة او الاشارة او ما فى حكم اى منهما
تتجه الى المستقبل . عقب ان تستقل عنه تلك الرسالة تنطلق فى الفراغ الاجتماعى متجهة نحو
المستقبل الذى يتولى بدوره فك رموزها ومن ثم فهم دلالتها الصريحة او الخفية . وهكذا تصل
الرسالة الى مصبها النهائى .

ما الذى تعنيه هذه العملية ؟

اولا : ان عملية الاتصال تفترض لفهمها الا نقف ازاء الظاهرة كحقيقة هيكليه انما يجب ان
نتناولها فى ابعادها الديناميكية المختلفة . بهذا المعنى يقال ان الرسالة الاتصاليه لمجرد انها
تستقل عن شخص مرسلها تملك وجودها الذاتى والهيكلى ولكنها لا تستقل عن المرسل من الناحية
الوظيفية وهذا ما سوف نراه فيما بعد تفصيلا بخصوص ظاهرة رد فعل التى تعنى ان الرسالة
اذا لم تحقق هدفها بشكل او بآخر فلابد وان يعقبها رسالة اخرى واحدة او اكثر حتى تنتهى

بتحقيق ذلك الهدف بشكل او بآخر .

ثانيا : ان عملية الاتصال تفترض ان هناك عالما مشتركا من الخاصيم والرموز بين المرسل والمستقبل بحيث ان كلاهما ينتمي ولو في قسط معين الى تقاليد وتراث تتحد فيه جميع العناصر والمفاهيم . ان لم توجد هذه الدائرة المشتركة من الخبرة فلا موضع لامكانية خلق وتحقيق عملية الاتصال .

ثالثا : ان الاتصال تتنوع اشكاله فقد يكون فرديا اوجماعيا من حيث المرسل وكذلك قد يكون فرديا او جماعيا من حيث المستقبل . بعبارة اخرى من الممكن ان نتصور له نماذج اربعة : فردي مرسل وجماعي مستقبل ، ثم جماعي مرسل وجماعي مستقبل ، ثم فردي مرسل وفردي مستقبل وآخر جماعي مرسل وفردي مستقبل .

لنستطيع ان نفهم هذه الظاهرة واثرها على عملية التفاعل السلوكي بصفة عامة العملية في مقوماتها وفي مراحلها .

٢ - من الناحية الهيكلية نستطيع ان نميز كما سبق وذكرنا بين مقومات خمس كل منها يعبر عن مرحلة مستقلة :

المرحلة الاولى : وتتركز حول مصدر الرسالة . ان صاحب الرسالة يستعد لنقل حقيقة معينة او فكرة معينة او تصور معين لفكرة معينة . هو لم يصل بعد الى اكتشاف الخير وسيلة يستطيع ان ينقل بها تلك الرسالة او ان يختار خير الوسائل التي تحقق هذه الغاية . غايته لا يمكن ان تكون سوى السهولة والفاعلية . هو يريد ان ينقل الى الاخرين رسالة ابسط مفاهيمها بحيث تفهم وبحيث تحقق الاثر المطلوب من تلك الرسالة واذ يصل الى اكتشاف خير وسيلة وخير اداة تسمح بارسال الرسالة تلك يصوغ الرسالة في لغة قد تأخذ صورة الفعل المادي وقد تأخذ صورة التعبيرات القولية . بهذا المعنى يصير الاتصال سلوك . فهناك فرد يفضل ان يلجأ الى السلوك غير المباشر وهناك آخر يستخدم الفاظ صريحة واضحة ، وقد يفضل شخص ثالث ان يلجأ الى الواقعة او الى الاشارة يعبر بها عن مفهومه واهدافه .

الاتصال في الواقع هو حقيقة اجتماعية تعبر عن نقطة التقاء بين المواطن والجماعة . وبهذا يمكن القول بأن الاتصال يؤدي ثلاث وظائف في آن واحد : هو مرتبط بالوظيفة التي يقوم بها الفرد في المجتمع حيث ان اداء الوظيفة يفترض تلقي الرسالة المتعلقة بأبعاد تلك الوظيفة ، ثم هو اداة المواطن للاشتراك في المجتمع والمشاركة في مشاكله ثم هو تعبير عن احد عيوب الانسان وهي الرغبة في اشباع الفضول .

المرحلة الثانية : تتركز في انطلاق الرسالة الاتصال ليس حقيقه من جانب واحد بل هو حقيقه من جانبين بمعنى انه لا يعبر فقد من رسالة تصدر من مرسل ليستقبلها الشخص الموجهة اليه هذه الرسالة وانما هناك رد فعل من جانب المستقبل يأخذ شكل رسالة اخرى من المستقبل تتجه الى المرسل وهذا هو الذى يسميه العلماء رد الفعل او Feed book رد الفعل هو عبارة عن الرسالة الاولى تعود لنفس المصدر بحيث تتحدد على ضوء هذه العودة سواء مدى نجاح الرسالة الاولى من حيث النتائج ، سواء طبيعتها من حيث التفاعل .

وهذا يعني نتائج معينة :

اولا : الرسالة ليست حقيقه فرديه بل هى اساسا حقيقه اجتماعيه ونجاحها يتوقف على ذلك . بمعنى ذلك ان الرسالة وهى ليست الا نقل لفكرة معينه من المنطلق الذاتى المستتر الى العالم الخارجى عند تلك الذات ، نجاحها يتوقف لا فقط على وصولها الى المستقبل ، بل وعلى فهم المستقبل لما اراده المرسل ، بعبارة اخرى رغم ان الرسالة كحقيقه باطنه تتحدد وتتبلور على اساس عوامل ذاتيه تنبع من المرسل ومن ثقافته واختياره الا انها لتنتقل وتؤدى وظيفتها لابد وان تتحكم فيها عوامل اخرى غير ذاتيه بل اجتماعية .

ثانيا : الرسالة يجب ان تقنن ولتفهم يجب ان تخضع لفك عملية رموز التقنين ، هذه العملية على وجه الخصوص تتحدد بالحقيقه الاجتماعية بمعنى ان المجتمع هو الذى يعطى لكل رمز من الرموز التى تتضمنها تلك الرسالة معنى معين او دلالة معينة الفرد العادى لا يخلق لغة التخاطب ، والفرد العادى يتلقى من تقاليده وتاريخه لغة التخاطب ويتعلمها ، وهو عندما يتعلم لغة التخاطب انما يكتسب نوعا معينا من المعرفه اساسه جعل كل رمز يحمل دلالة معينة من المفاهيم والافكار ، والرمز هنا يجب ان يفهم بأوسع المعنى : لغه ، واشارة ، بل السلوك الفعلى الذاتى يصير بهذا المعنى رمزا تحدده الجماعه وتحدده التقاليد الاجتماعيه على انه تعبير عن مفهوم معين ، فالاحترام تصير بعض المظاهر السلوكيه رمزا للتعبير عن وجوده تبعا لكل جماعه بل وتبعا لكل وسط اجتماعى على سبيل المثال .

ثالثا : الرسالة بمجرد خروجها وانفصالها عن شخص المرسل فانها تستقل هيكليا وانما لم تستقل وظيفيا ، يقصد بذلك ان الرسالة رغم تصدر من مرسل وانها تعبير عن ذاتيه فردية من حيث مضمونها الا انها تملك نوعا من الاستقلال الهيكلى بمعنى انها بمجرد انفصالها عن شخص المرسل تصير ولا وجود مستقل بحيث لا تتحدد بشخص المرسل بحيث تملك دلالتها الذاتية ، رغم ذلك فان هذا الاستقلال هو استقلال هيكلى وليس بالاستقلال الوظيفى بعبارة اخرى فان رد الفعل هو الذى

سوف يحدد ما اذا كانت الرسالة فى حاجة الى رسالة اخرى لتصحح الاولى او التعدل من معناها او لتفيد من مدلولها ام انها ليست فى حاجة الى تلك الرسالة الجديدة . وهنا يجب ان نلاحظ من قبول الاستدلال ان الاعلام الجماهيرى يختلف عن الاتصال المباشر من هذه الناحيه حيث تنفصل وتستقل الرسالة عن مرسلها هيكليا ووظيفيا . بعبارة اخرى الاعلام الجماهيرى يرفض فكرة التفاعل الجماهيرى التى تعرفها الرسالة فى الاتصال المباشر .

رابعا : أدوات الاتصال بغض النظر عن تنايمها لا تعدو ان تكون مصادر اكتساب الاحاسيس الخارجية . السمع والبصر هى الاداتين الرئيستين : السمع يسمح بالاعلام المسموع كالاذاعة والاتصال الشفوى والبصر يسمح بالاعلام المرئى كالاشارة والصورة الصوتيه بالتليفزيون والسينما . وكل منهما له مزاياه وله عيوبه . فالكلمة المسموعة اقل تأثيرا لانها اقل ارتباطا بالواقعيه على عكس الصورة المرئية التى فى حقيقتها تقدم نماذج سلوكية للمواقف ولوجود الفعل . الكلمة المكتوبة صورة من صور الاعلام المرئى ولكن من خلال رموز تسمح بتقديم مزايا اخرى اساسها امكانية الاحتفاظ بالرسالة ثم بصفه خاصة امكانية العودة اليها والتحكم فى التفاعل مع الرسالة من حيث الظروف الذاتية للمستقبل .

خامسا : كذلك يجب ان نفهم ان الاتصال فى حقيقته هو وسيلته من وسائل المعرفة . لفهم ذلك يجب ان نتذكر عملية الاتصال من حيث نتائجها . فالرسالة عندما تنتقل الى المستقبل لاتقتصر على ان تحصل على رد فعل ليؤكد فهم الرسالة بالمعنى الذى اراده المرسل وانما تنقل عناصر تلك الرسالة وبطريقه لاشعوريه الى الادراك الفردى الذاتى للمستقبل بعبارة اخرى فانها لابد وان تحدث اثرين : احدهما رد الفعل وهو الاثر الظاهرى الخارجى وثانيهما استقبال لعناصر رسالة كلها او بعض اجزائها من جانب العقل الباطن وتوغلها فى الوعاء اللاشعورى . هذه العملية تتوقف على استعداد المستقبل كما ان المستقبل لن يستقبل جميع عناصر الرسالة واستقباله له فى وعائه الباطن لايعنى التأثير المباشر فى عملية الادراك . العقل الباطن يقوم بعملية لاحقه من حيث استيعاب وتنسيق عناصر الرسائل المختلفه التى يستقبلها بحيث ينتهى الى تصور معين للعالم الخارجى التى ترتبط به تلك الرسائل .

المرحلة الثالثه وتعنى الاثر المباشر للرسالة او بعبارة اخرى تحليل عملية الاتصال من الناحية الديناميكية . فعمليه الاتصال لتحقق اهدافها بحكم كونها نوع من الاشعاع الفكرى لابد وان تخضع لمجموعه من القواعد نستطيع ان نوجزها فى التالية :

القاعدة الاولى : وصفادها ان الرسالة يجب ان تصاغ بحيث تكتسب اهتمام الشخص الموجهه
اليه . هذه القاعدة هي تطبيق طبيعي لطبيعة عملية الاتصال . فعملية الاتصال هي اساسا
عملية قصديه وهي بهذا المعنى تجعل هدفها اثارة الاهتمام الذي يسبح وحده يخلق الحالة
النفسيه من الانفعال التي تجعل المستقبل على استعداد لتلقي القذيفة الاتصاليه . من هذا
المنطلق القاعدة المشهورة بأن غير طريق الى المنطق هو ان تبدأ بالعاطفة معلى ان العاطفه
لا تكفي بل يجب ان نعمل على تركيز الانتباه حتى ولو جعلنا المنطلق هو الاستناد الى
اي عامل من عوامل الاثارة . بهذا المعنى الدعاية هي لغة تكتيل العواطف وخلق مناخ الاهتمام .

القاعدة الثانية : تدور حول ان الرسالة يجب ان تستخدم تلك الرموز المشتركة وان تصاغ
استنادا الى دلالة الخبرة التي تربط بين المرسل والمستقبل . الرسالة هي نقطه تلاقي بين المرسل
والمستقبل وحتى في الاتصال الفردي المباشر فان الرسالة السيئة ولو تم تهذيبها في مرحلة لاحقه
لاتحدث نفس الانفعال والاثر الذي تحدثه رسالة ناجحه منذ اول منطلق . على ان نقطه التلاقي
لاتعني مجرد اللغه والرموز بل كذلك المفاهيم ودلالة الخبرة .

القاعدة الثالثة : هي ان الرسالة يجب ان تتقابل مع شخصية المستقبل . فالرسالة تعبر
عن احتياجات من جانب المرسل يسعى الى الحصول عليها من جانب المستقبل . وهو ليستطيع
ان يفعل ذلك لابد ان يثير انتباهه او ان يتحدث بلغه يفهمها او ان يلجأ الى رموز يعرف
دلالتها او ان يثير شحناته الانفعالية من خلال اثارة الخبرة الماضية المشتركة ولكن عليه ايضا ان
يتحدث بلغة الحاجة التي تنبع من خصائص شخص المستقبل . الاتصال بعبارة اخرى هو عملية
مزدوجة : ادراك من جانب وتنظيم من جانب آخر وكل تنظيم يجب ان يعبر هذا التنظيم عن
خصائص المستقبل وظروفه واحتياجاته .

القاعدة الرابعة : تبرز واضحة في الاتصال الجماهيري على اننا لنفهم مدلول هذه المرحلة
علينا ان نحدد انواع الاتصال .

ه٠ث الاتصال انواعه عديدة ويمكن التمييز فيه بين نماذج وانماط لا حصر لها تبعا لاكثر من
متغير واحد .

نستطيع ان نميز اولا بين الاتصال الفردي والاتصال الجماعي : الاتصال الفردي قديم قدم
الانسان اخذ صورة نقل الرسالة من شخص الى آخر ولكن عندما يصير مصب او مرسل الرسالة جماعة
كاملة نجد انفسنا ازاء ظاهرة الاتصال الجماعي . الاتصال الجماعي صورته التقليدية الخطابه عندما
يتجه فرد معين الى مجتمع كامل دون ان يتحدد المستقبل بأنه شخص معين بهذا المعنى ايضا
نستطيع ان نتصور الاتصال من خلال المسرح .

على انه من ناحية اخرى نستطيع ان نميز بين الاتصال المباشر وغير المباشر: الاول حيث تكون العلاقة بين المرسل والمستقبل علاقة مباشرة اى وجها لوجه. وهى الصورة التقليدية للاتصال فى الحياة اليومية. ولكن عندما يوجد تدخل لعنصر آخر وسيط بين المرسل والمستقبل لا يحقق هذه العلاقة المباشرة بحيث لا يكتشف المرسل فى نفس اللحظة التى ارسل فيها الرسالة رد فعل الرسالة فان الاتصال يصير غير مباشر. ولنتصور مثلا الاتصال من خلال الرسالة البرقية او البريدية ومن الممكن ان نتصور ايضا الى حد معين الاتصال من خلال التليفون حيث يمكن ان يوصف بأنه مباشر لان العلاقة الكلامية لم تنقطع ولكنه غير مباشر حيث ان الوسيط قائم وهو يمنع من نقل العلاقات او المظاهر العضوية المميزة عن طبيعة نجاح عملية الاستقبال من عدمه.

كذلك نستطيع ان نميز الاتصال من حيث الاداة الى اتصال شخصى واتصال جماهيرى.

الاتصال الشخصى يأخذ صورة التحديد بشخص المستقبل بحيث تحقق عملية الاتصال اتحاد مطلق وكامل بين المرسل والمستقبل. الاتصال الجماهيرى لا يتجه الى شخص معين بل يتجه الى كل شخص. بعبارة اخرى لا تتنوع الرسالة او تتكيف من حيث الطبيعة والخصائص تبعا لشخص المستقبل وانما تفترض نموذجا معينا تسعى الرجل العادى وتتوجه اليه من خلال ادوات تسمح بالتوزيع والانتشار الذى لا حدود له من الرسالة الاتصالية. الاتصال الجماهيرى فى هذا المعنى يكاد يتركز حول الاتصال من خلال الاذاعة والتليفزيون والمسرح والصحافة بصفة خاصة اليومية او الدورية ذات الطابع غير المتخصص. ونستطيع ان نقرب من هذه الصورة من صور الاتصال وتبعا لكل مجتمع الاتصال من خلال الاسطوانة او كتب الجيب.

كذلك نستطيع لو حاولنا ان نخلق درجة من درجات التداخل بين هذه الصور المختلفة الاتصال او يميز بين الاتصال الذاتى حيث عملية الاتصال تتم فى الوعاء الفردى دون التعبير الخارجى عن وجودها متجهه الى شخص آخر مستقل عن المرسل ثم الاتصال الشخصى اى من فرد لفرد مباشر او غير مباشر ثم الاتصال الجماعى حيث الرسالة تتجه من فرد معين ولكن الى جماعة بأسرها كالخطابة ثم الاتصال الجماهيرى حيث يحدث من حيث الواقع اتصال بين جماعة وجماعة: اتصال بين طائفه مهنيه متخصصه والجمهور المتسع الذى يمثل الجمهور القومى او المحلى.

لو نظرنا من جانب آخر الى موضوع الاتصال لاستطعنا ان نميز بين الاتصال السياسى والاتصال الاقتصادى وغير ذلك من صور الاتصال تبعا لموضوع المادة الاتصالية.

على اننا لو تابعنا النواحى التاريخية للظاهرة الاتصاليه للاحظنا انها تطورت خلال مراحل متتابعة كل منها عكست مستوى حضارى معين: فالاتصال بدأ فرديا لصير جماعيا وذلك عندما ظهرت الخطابة ثم تأكدت فى العصور القديمة بوظيفه المسرح واستقرار التقاليد المتعلقه به. وفى

مرحلة ثانيه تطور الاتصال من مباشر الى غير المباشر وذلك بفضل اختراع الكتابة الامر الذى يسمح ان يجد الفرد وسيله لتسجيل انفعالاته من جانب والقدرة من نقلها من مكان لاخر من جانب آخر.

ثم مرحلة ثالثه تطور الاتصال من اتصال غير مباشر الى اتصال متعدد من حيث المستقبل وذلك بفضل اختراع الطباعة التى ادت الى امكانية استخراج العديد من الصور من الرسالة فى نفس الوقت. هذه المرحلة الثالثه اعدت اليوم لما نسميه بالاعلام الجماهيرى والذى تحقق خلال القرن ١٩ وعلى وجه الخصوص النصف الاول من القرن ٢٠ بفضل ثورة ثلاثية: ثقافية واجتماعية وفنيه. الثورة الثقافيه عبرت عن نفسها بديمقراطيه التعليم والزاق بحيث اضحى جميع المواطنين صالحين لتلقى وفهم الرسالة المكتوبة. جاءت الثورة الاجتماعيه لتكمل من الثورة الثقافيه عندما فتح المجتمع الديمقراطى باب التأثير فى السياسة القومية للمجتمعات السفلى، لان هذا ادى الى الاهتمام بالمعرفة وجمع المعلومات كمقدمة للحركة ولاختيار. الثورة الفنية هى وحدها التى ختمت هذا التطور الرهيب اذا امكن بفضلها لا فقط الغاء عامل المسافة من حيث الاتصال المسموع والمكتوب ولا فقط عامل المسافه من حيث الصورة المرئية فى اكثر من تطبيق واحد بل وتفسير تخزين الرسالة سواء الصوتيه او المرئية.

٢٠٦ ـ ما هى خصائص الاتصال الجماهيرى؟

الواقع ان تحليل هذه الناحية تخرج بنا عن طبيعة هذه الدراسة. فالذى يعنينا من دراسة هذه العملية الاتصالية هى اساسا اكتشاف كيف ان هذه الاداة هى محور عملية التفاعل السلوكى ولكن اهمية الاعلام الجماهيرى وسيطرته على المجتمع المعاصر تفرض علينا ان نحدد خصائصه لنستطيع على ضوء ذلك ان نجيب على علاقة الاستفهام وهى موضع الاتصال الجماهيرى من عملية التفاعل السلوكى. الاتصال الجماهيرى بغض النظر عن نماذجه: صحافه، اذاعه، تليفزيون، بينما تتميز اساسا بخصائص ثلاث:

اولا : عامل التنظيم

ثانيا : اختلال التوازن بين المدخلات والمخرجات الاتصاليه بمعنى زيادة كمية المستقبل من الاتصال ازاء كمية المرسل.

ثالثا : اختفاء رد الفعل.

فالاعلام الجماهيرى اعلام منظم بمعنى انه يفترض هيكلا او مؤسسة تضم مجموعه من المتخصصون تقوم بعمليه تنظيم واعداد العملية الاتصاليه. عنصر التنظيم هو المتغير الاساسى الذى يميز الاعلام الجماهيرى وهو لا يقتصر على مجرد تجمع عدد ضخم من المتخصصين فى العملية الاعلامية فى مكان معين بل يرتفع الى حد التنظيم العلمى لنفس الرسالة من حيث صياغتها واعدادها

وتحليلها ولحظة ارسالها وكيفية تحليل ذلك الاتصال .

يرتبط بهذه الناحية ويتفرع عنها ان الجهاز الذى يقوم بعملية الاتصال الجماهيرى وهو متخصص فى عملية الاستقبال فان ما يستقبله من حيث الكم لا يقارن بما يرسله . هو يفيد بالمكان والزمان ومن ثم يقوم بعمليه اختيار وتفضيل بحيث يقلل المستقبل جزءا معينا مما يستقبله تبعا لمتغيرات عديدة . طبيعة الاعلام الجماهيرى تكره على اجراء نوع معين من الاختيار .

على ان الناحية الواضحة من نواحى التمييز بين الاعلام الجماهيرى وبين الاعلام فى الصور الاخرى للاتصال هو اختفاء رد الفعل المباشر . فالمرسل يقتصر على بعث الرسالة ولا يسعى ولا يستطيع ان يسعى الى المستقبل كل على حده . الاعلام الجماهيرى بهذا المعنى اعلام جماعى سواء من حيث اعداد الرسالة سواء من حيث مبلغتها سواء من حيث نقلها . ولكن لتستطيع الرسالة الاتصالية ان تؤدى وظيفتها هى فى حاجة لان يعقبها رد فعل يعبر عن نجاح الرسالة فى ان تحقق وظيفتها . هذه الناحية تختفى كلية فى الاعلام الجماهيرى لان العلاقة بحكم تنظيم ذلك الاتصال تنفصم ولا وجود لها بين المرسل والمستقبل . لا يخفف من هذه الناحية وجود ادوات مكملة تسمح باجراء متابعة جزئية لعملية الاتصال من نجاح الرسالة فى اداء وظيفتها : رسائل القراء او المستمعين او المشاهدين من جانب ثم من جانب آخر الابحاث الميدانية للتعرف على رغبات هؤلاء الاخرين قد تسمح بتخفيف حدة هذه النتائج ولكنها لا تغير من طبيعة العملية الاتصالية .

على ان الاعلام الجماهيرى فرض من جانب آخر تطورا ضخما فى الظاهرة الاتصالية ظهر بشكل واضح فى الناحية المهنية . فالاعلام الجماهيرى اتجه لان يصير مصيرا من فهنه محكمة طغت بدورها على النظام الاعلامى :

أولا : الاتجاه من جانب الى التخصص المهنى الاعلامى . فرجل الاعلام يسعى للتخصص سواء من حيث اداة الاتصال ، راديو او تليفزيون او صحافة او سينما او من حيث المرحلة التى ينتمى اليها نشاطه فى ديناميات عمليات الاتصال : اعداد الرسالة ، صياغة الرسالة ، او نشر الرسالة .

ثانيا : كذلك سبق ان رأينا الاتجاه المعاصر من جعل الرقابة او الضبط على العملية الاتصالية فى الاعلام الجماهيرى تباشر اساسا بواسطة ممثلى المهنة باسم الرقابة الذاتية . الرقابة الذاتيه تعنى ان من ينتمى الى العملية الاتصالية هو وحده الذى يستطيع ان يزاول عملية الضبط على العمل الاتصالى :

لا نستطيع ان نستكمل هذا الاطار العام لادوات الاتصال وانواعه ونستطيع ان نحدد بشكل واضح اثر الاتصال على عملية التفاعل السلوكى يتحتم علينا ان نميز بين انواع الاتصال الجماهيرى .

لقد سبق ان ذكرنا ان اهم انواع الاتصال الجماهيرى هى الاذاعه والصحافه والتليفزيون والسينما .

١) الصحافة ونقصد بها ذلك الاعلام اليومى او الدورى غير المتخصص. الصحافة بهذا المعنى تتصف بخصائص معينه : هى اعلام غير مباشر فضلا عن ان رسالتها متعدده من حيث الاثر بمعنى انها تنتشر بطريقه فرديه دون تحديد زمنى لاثر الرسالة . والواقع ان هذه الصفه الاخيره هى التى تميز الاعلام المكتوب عن طريق الصحافه عن غيرها من صور الاعلام الجماهيرى الاخرى :

أولا : فهى تسمح بتثبيت الرسالة . مرد ذلك انها كأعلام مكتوب ثابته ومستقره بحيث ان الشخص الذى تصله الرسالة يستطيع ان يحتفظ بالمصدر الاعلامى وان يعود اليه فى اى وقت آخر .

ثانيا : على انها من جهة اخرى ورغم طبيعتها الجماهيريه الا انها من حيث اثارها تظل يغلب عليها الطابع الفردى ومعنى ذلك ان المواطن الذى يقرأ الجريده او يطلع عليها لايخضع لفهم الرسالة او فى تقبله لها او فى عدم تقبله لها الا الى آثار تلك الرسالة من حيث علاقتها بظروفه الشخصية .

على ان الصحافة بدورها تمثل مرحلة حاسمة فى تطور الاعلام المعاصر: فهى التى فصلت لاول مرة فى تاريخ الحضارة بين المرسل والمستقبل وهى ترتبط بالظاهرة الديمقراطية وصفه خاصة ترتبط بفكرة الاقتراع العام .

الصحافة بهذا المعنى يجب ان نميز فى داخلها بين انواع ثلاث: صحافه يوميه وهى تأخذ شكل الجريدة غير المتخصصه حيث يغلب عليها الطابع الاخبارى وتطغى عليها مع درجات متفاوته الناحية الاعلانية ثم الصحافة الدوريه وهى تأخذ صورة الجريدة او المجلة الاسبوعية او نصف الشهرية او الشهرية حيث قد تعبر عن درجة معينه من درجات التخصص الاعلامى ولكنها تظل دائما تتجه الى جمهور عام متسع . الصحافه الدوريه يختفى فيها الاعلام بمعناه الحقيقى اى الخبر اوعلى الاقل ينزل الى المرتبة الثانيه لتفسح مجالا للتعليق والتحليل وبصفه عامة للتثقيف والتسليه ثم تكمل ذلك الصحافه المحلية وهى تلك الصورة من صور الاعلام المكتوب الذى لايهتم الا بجمهور اقليمى محدد وبعبارة اخرى تسيطر عليه من حيث المادة التعبيرات المحلية فضلا عن انه لايتجه الا الى جمهور محدد فى داخل المجتمع القومى .

الراديو والتليفزيون والسينما توصف بأنها وسائل الاعلام غير المكتوبة . ويقصد بذلك ان هذه الوسائل تعتمد اساسا على الكتابه . واذا كانت الصحافه تمثل الثورة العقيقه من الوجهة

[illegible] الاعلام المعاصر فان الراديو والسينما يمثلان الثورة الاجتماعية . التليفزيون [illegible] يجمع بين الثورتين السياسية والاجتماعية فى آن واحد . فالراديو والسينما قادا الى [illegible] الوظيفة الاعلامية فى معناها الحقيقى اى الوظيفة الاخبارية بالوظيفة الثقافية والترفيهية [illegible] الاعلام عن طريق الصحافة هو اساسا اعلام اخبارى . الاعلام عن طريق الراديو والسينما يصبح [illegible] جمهورين جديدين : اداة ثقافية لاولئك الذين لا يعرفون القراءة والكتابة . ثم وسيلة [illegible] اوقات الفراغ حيث نستطيع عن طريق الراديو والسينما ان نحصل على نوع من انواع الترفيه [illegible] الاعلام . وهكذا نجد الاعلام لاول مرة يستطيع ان يصل الى جميع الطبقات وجميع المواطنين [illegible] فى اى مكان وفى زمان ودون اى مجهود فردى يبذل للوصول الى الرسالة يحير مطلقا من خلال [illegible] ظاهرة تحلل اوقات الفراغ الى خلق نوع جديد من انواع الترابط الاجتماعى والتغيير فى [illegible] الانماط السلوكيه .

وهذا يقودنا الى التليفزيون الذى استطاع على وجه الخصوص من خلال التأثير الذاتى عن طريق الناحية السلوكيه وذلك بالتقديم المستمر المتتالى لانماط جديدة من انماط السلوك ان يؤثر بطريق مباشر من خلال ما يقدمه من صور حيه للسلوك فى تعديل وتغيير النماذج السلوكيه المتداولة . التليفزيون يسمح بتقديم الانماط بحيث يصير اكثر تأثيرا فى السلوك الفردى عن طريق الاستيعاب والتمثيل بفضل امكانيه انتقال الرسالة المرئية الى كل مواطن فى منزله او مقر قضاء اوقات فراغه المعتاد دون اى مجهود ايجابى يتعلق بانتقال المواطن الى موضع تقديم الرسالة كما هو الحال بالنسبه للسينما . التليفزيون ايضا قام بثورة سياسية لانه من خلاله تمت عملية الاتصال المباشرة او بما فى حكم المباشرة بين الحاكم والمحكوم بحيث اعاد الى المجتمع المعاصر صورة من صور الخطابة التقليدى كما عرفته الجماعات القديمة .

بقى السؤال : اين الظاهرة الاتصالية من عملية التفاعل السلوكى ؟

٨ـ فهم طبيعة العلاقه بين الظاهرة الاتصالية والحقيقه السلوكيه يفرض علينا ان نقود التحليل فى ابعاد ثلاثه : الاول يتضمن تحليل مستويات التفاعل وخصائص كل منها . والثانى يتناول المتغيرات الاساسية التى تتحكم فى تشكيل سلوك الفرد فى داخل المجتمع . والثالث يتعلق فى ربط كلا البعدين الاول والثانى بظاهرة التغير السلوكى .

كل هذا مقدمة لمناقشة العلاقة بين الاعلام الجماهيرى وعملية التفاعل السلوكى .

١) التفاعل بمعنى التأثير المتبادل الذى يؤدى الى حقيقه جديدة او الى وضع جديد هو استمرار للعناصر السابقه ولكنه يضيف حقيقه كيفية تختلف عن مجرد تحقيق الحقائق الكمية لسه مستوياته . اول هذه المستويات هو التفاعل بين الفرد ونفسه : فكل منا عند يصطدم بجنبه محيين

الاخر وان يحدث هذا نوع من الاتصال الداخلى بين الجسد والمنبه المنطلق فى اوسع معانيه
اى سواء كحقيقه محسوسه او كحقيقه لامحسوسه . هذا التفاعل ليس مجرد نوع من انواع الاتصال
المخصوصة بالموقف وانما هو نوع من انواع التقابل بين المنبه بابعاده والفرد بتصوره لذلك المنبه
بصدد الانطلاق الى الحالة المحركة . فالابعاد العقيدية والقيم الفردية لابد وان تواجه المنبه
بالتشكيل والاقلمه المتبادلة : فى تتصور المنبه بشكل معين اى ترسم له تلك الصورة التى تريدها
ايها تصور المنبه على ضوء مجموعه المقومات العقيدية او الوعاء الفكرى والاعلامى الذى يكون
عليها المحسوبة او اللامحسوبة . وهكذا الاعتداء بالضرب على فتاة قد يوصف او قد يفهم بانه
علامة من علامات الحب والغيرة وقد يوصف بانه نتيجة لعدم الاحترام والشعور بالتخلى . كذلك فان
التفاعل قد يكون مصدر الطاقة وسبب تلك الطاقة او بعبارة اخرى بين الفرد الذى يخضع للمنبه
والطرف الاخر الذى تتجه اليه الحركة نتيجة لاصطدام الجسد بذلك المنبه . ذلك ان السلوك فى
حقيقته هو علاقه اجتماعية اى علاقه بين فردين على الاقل ومن ثم فهذه العلاقة المتعددة الدرجات
المتعددة المظاهر لابد وان تشكل حقيقه الاطار الذى يربط بمصدر السلوك بمن يتجه نحوه
ذلك السلوك . ففى علاقة زوجيه لابد وان يحدث تفاعل بين الزوج وزوجته فى سلوك كل منهما
نحو الآخر . هو تفاعل مستمر فى شكل تأثير وتأثر متتالى بحيث يمكن القول ان كل منهما لابد وان
يتأثر ولو فى بعض خصائص سلوكه نتيجة لارتطام بالطرف الاخر فى كل لحظه من لحظات حياتهما
الزوجيه . كذلك المستوى الثانى يصير التفاعل بين الفرد والموقف : لقد رأينا ان الموقف يكون احد
العناصر التى تشكل السلوك ولكن الواقع ان العلاقة بين السلوك والموقف اكثر بعدا من ذلك .
الموقف يمثل احد مدخلات السلوك ولكنه بدوره يصير احد مخرجات السلوك . الموقف يتدخل فى
تكوين السلوك ولكنه ايضا يحدد كيفية التعبير عن السلوك وابعاد المسار التى يتطور من خلالها
السلوك فى مختلف مراحله ومختلف مظاهره ودرجاته . ولنقدم لذلك نموذجا : شخص تعود ان يكون
استفزازيا لا يقبل الاعتداء ولا يتفاهم مع اى فرد آخر يشكك فى هيبته واحترامه . ولنتصور هذا الشخص
وقد حكم عليه بعقوبة ذات خطورة معينه كالسجن مثلا لمدة عام . فحدث الاعتداء عليه من جانب
زميل له او حارس له فى داخل السجن عقب دخوله السجن بعدة ايام ثم نتصور نفس الشخص وقد
حدث عليه نفس الاعتداء قبل انتهاء المدة المحددة لسجنه بيومين او ثلاثه . فى النموذج الاول
فان رد فعل لابد وان يكون عنيفا فهذه طبيعته وهذه خصائصه ولكنه فى النماذج الثانى ورغم
ان طبيعته وخصائصه لم تتغير الا ان هناك عنصر جديد ينتمى الى الموقف وهو ان هذا الشخص
لم يعد بينه وبين الحرية انطلاق سوى يومين او ثلاثه . فى هذا النموذج سوف نجد هذا الشخص

قد يحكم فى نفسه فرض ان يخضع لهذا المنهه او على الاقل قرر ان يؤجل رد فعله للمنهه الى
لحظة لاحقة • الموقف هنا تفاعل مع الفرد او مصدر الحركة • على ان التفاعل قد يحدث بين
مصدر السلوك او مصدر الطاقه وبين قوى المجتمع • هذه الصورة من صور التفاعل يدخلها النموذجين •
ذلك ان قوى المجتمع تتقسم مع شىء من التبسيط فى التحليل الى مجموعتين : احدهما تقف من
السلوك المعتاد او من النموذج المتداول من السلول موقف التأييد والمناهضه لاى تغيير فى مثل
ذلك النموذج • تقابل ذلك قوى اخرى تؤيد التغيير فى النموذج السلوكى • وهكذا على الفرد
ان يتفاعل اولا مع الاولى ثم ثانيا مع الاخرى سواء ايجابا او رفضا فى كل منهما •

مستويات خمس للتفاعل ، وكل منها تمثل مرحلة معينه من مراحل التطور الذاتى للسلوك
فى تشكيله وفى خصائصه :

١) التفاعل بين الفرد ونفسه •

٢) التفاعل بين عناصر العلاقة الاجتماعيه •

٣) التفاعل بين الفرد والموقف

٤) التفاعل بين الفرد وقوى المجتمع المناهضه للتغير فى النموذج السلوكى المتداول •

٥) التفاعل فى العلاقه بين الفرد والقوى المؤيدة للتغير •

ب) البعد الثانى لفهم عملية التفاعل كاحد مقومات الظاهرة السلوكية يدور حول تحديد
تلك المتغيرات الاساسية التى تتحكم فى فهم السلوك فى داخل الجماعة • والواقع ان هناك متغيرات
ثلاث تستطيع ان تشكل العلاقه بين الفرد والجماعه فى حركته السلوكية : اولا ، طبيعة المهنة
او الوظيفة التى يتقمصها الفرد فى داخل الجماعه • فالقائد تختلف وظيفته عن التابع والانصار
تختلف مهمتهم فى داخل المجتمع السياسى على سبيل المثال على الصفاقة وهكذا • بعبارة اخرى
كل سلوك فى داخل الجماعة يرتبط بخصائص الفرد كعنصر من عناصر العملية الانتاجيه لوظيفه
معينه ولدور معين فى ذلك المجتمع • ان رد فعل شخص انتقل من موقف المواطن العادى الى
موقف القيادة او السلطة لابد وان يختلف عقب هذه الوظيفه الجديدة عنه قبلها حتى عندما تتحد
جميع عناصر الاطار والهيكل للحركة • ثانيا ، خصائص هيكل الجماعة ؟ فالجماعة الصغيرة التى يعرف
جميع اعضائها كل منهم الاخر لابد وان تؤثر تأثيرا مختلفا فى سلوك احد اعضائها بحيث تجعل
سلوك هذا العضو يتميزعما لو حدث فى جماعة اخرى مجهلة من حيث العلاقة بين الواحد منهم
والاخر •

فلنتصور شخصا مصاب بمرض حب السرقة تعود ان لا يقاوم اغراء اشياء معينه والرغبة فى
امتلاكها ولنتصور هذا الشخص دعى لدى احد اصدقائه حيث يتقابل مع بعض معارفه فى سهرة

عامة فهل يسلك نفس السلوك الذى يصبر من نفس المنبه لو وجد هذا الشخص فى احد المحلات العامة يحاول مصادقة وشاهد نفس التحفة او المادة الشيقة التى تعود الا يستطيع الشخص اقتراحها • لابد فى اغلب الاحيان ان يختلف التصبير من هذا المنبه تبعا لاختلاف الموقفين •

ثالثا : خصائص الافراد الذين يكونون تلك الجماعة • بعبارة اخرى الخصائص العامة المشتركة التى تغلب على افراد الجماعة السابقة لابد من دورها ان تحدد سلوك الفرد فى داخل الجماعة النموذج التقليدى هو الشاب الذى يوجد بين مجموعة من الفتيات او الفتاة التى توجد بين مجموعة من الشباب • الاول لابد وان يختلف سلوكه عن ذلك الوضع الذى قد يجد فيه نفسه مع مجموعة من الجنسين متساوية او متقاربة من حيث العدد • ان المنبه قد يتحد بالشخصية تمثل واحدة بجميع عناصرها وخصائصها ولكن هذه الخصائص المختلفة للافراد الذى تتكون منهم هذه الجماعة والذين يمثلون الطرف الاخر فى العلاقة الاجتماعية لابد وان تشكل بدورها خصائص رد الفعل للمنبه اى خصائص السلوك •

حـ) الناحية الثالثة وهى ظاهرة التغير السلوكى •

يمكن القول بصفة عامة ان الوسط يتدخل فى تشكيل السلوك بواحد من نماذج ثلاث: الا بأن يمنع الحركة من ان تنبعث فى شكل رد فعل او بعبارة اخرى ان يفقد المنبه فاعليته بالتالى ان يخلق نوعا من الشلل للجسد ازاء المنبه فاذا به فى حالة سلبية مطلقة • ثانيا وقد يمنح الوسط بأن تندفع الطاقة فى شكل حركة ولكنه لا يحدد على وجه الاطلاق خصائص تلك الحركة • ثالثا وقد يفرض على الجسد ان يتحرك بشكل معين بحيث يصير السلوك وقد اضحى يكاد يكون حقيقة ميكانيكية لا دخل فيها لحرية المبادرة او التجاوب بين الجسد والمنبه • انه يصير اسيرا لذلك الوسط الاجتماعى يكاد يذكرنا بنموذج بافلوف فى تحليل العلاقة بين المنبه ورد الفعل •

وهذا يقودنا الى التساؤل عن حقيقة عملية التغير السلوكى : فالتغير السلوكى يفترض التفاعل بين التطور النفسى الذاتى من جانب وتطور خصائص الاطار الاجتماعى من جانب آخر بحيث يمكن القول ان التغير السلوكى هو تطور وتفاعل بين هذين العنصرين • لا يعنينا بهذا الخصوص ان نحلل ظاهرة التغير السلوكى وابعادها • ولكن الذى نريد ان نؤكد عليه هو التساؤل التالى : كيف تحدد عملية التفاعل من حيث العلاقة بين سلوك وآخر من خلال اطار ظاهرة التغير السلوكى ؟

هناك مدخلين اساسيين : التغير هو ظاهرة مستمرة ويجب ان نفترض ان التغير فى خصائص الوسط كما ان التغير فى خصائص السلوك يكون كلاهما طرفين لحقيقة واحدة وهى الحركة الاجتماعية • الناحية الثانية ان التغير هو ظاهرة طبيعية ومعتادة فى كل حركة وفى كل حقيقة بشرية • انه جزء

من الحياة . ومن ثم من المنطلق ان نتوقع التغير ومن المنطلق ان نفترض ان التغير لابد وان يتفاعل مع الخبرة والادراك والعالم .

ولكن اين الاطار الاجتماعي في ذلك ؟

الاطار الاجتماعي يتدخل في عملية التفاعل المعدة للتغير من خلال بعدين : احدهما تغيير الاتجاه اي الاستعداد لتقبل سلوك آخر والآخر تقوية السلوك وتدعيمه . بالمعنى الاول للاطار الذي لاشك فيه كما اثبتته الابحاث الميدانية ان الاقناع الذي هو نتيجة للاتصال والعلم احدى ادوات تغيير الاتجاه . كذلك فان الاطار الاجتماعي يتقدم به نماذج سلوكية معينه ولو من قبيل الصورة النمطية او التكرار المتداول الذي يحصل على تلك النماذج طبيعة مجردة لابد وان يسعى الى تقوية الحركة في الاتجاه نحو نموذج معين من نماذج رد الفعل وبالتالي فهو تقوية للسلوك

وهكذا عملية التفاعل تصور تعبير عن احدى مراحل العلاقة بين المنبه والاستجابة حيث تتدخل كأحد المتغيرات من خلال انتقال الحركة من الذات الداخلية الى البلورة الخارجية .

٩ - العلاقة بين الاعلام الجماهيري والتفاعل السلوكي تفرض علينا دراسة ابعاد التطور المعاصر لظاهرة الاتصال مما لاشك فيه ان تأثير عملية الاتصال في التفاعل السلوكي ابرزناها في اكثر من موضع واحد ورأيناها كيف تمثل المنطلق الاساسي في فهم ظاهرة التفاعل . ورغم ان تبويب الاتجاهات الفردية يخضع لاكثر من تصور واحد الا ان الامر الذي لم يحد موضع نقاش هو ان ظاهرة الاتصال تتحكم في عملية التفاعل . على اننا هنا يجب ان نلاحظ ان الاتصال يجب ان يفهم بأوسع معانيه بحيث يفهم كمراد في كلمة الاعلام . بمعنى آخر الاعلام الذي يقصد به نقل المعلومات والحصول على عناصر المعرفة التي تخلق التصور والادراك قد يوجد دون اتصال فالتوحد على سبيل المثال ان شخص جالس في مقهى ورأى الى جواره فتاة تتميز بخصائص معينه . فان هذا يعني انه خضع من خلال البصر لعملية ادراك لم ترتبط بها عملية ارسال لرسالة او اتصال بالمعنى التقليدي .

وهكذا من الممكن الحصول على المعلومات بطريق الادراك ، كما انه من الممكن الحصول عليها بطريق الاتصال من خلال الرسالة المستقلة . وهكذا نستطيع ان نحدد مسالك عملية التفاعل في ثلاث : نقل الطاقة كما سبق ، ورأينا ثم نقل المعلومات من خلال الادراك ثم اخيرا نقل المعلومات من خلال الاتصال .

الاعلام الجماهيري يؤدي وظيفه خطيره بخصوص هذه العمليات الثلاث وعلى وجه التحديد الاخيره مع اختلاف في طبيعة الجهاز الاعلامي من جانب وخصائص النظام العام للفلسفة الاعلامية السائدة في المجتمع من جانب آخر .

١) لفهم هذه الحقيقه يتعين علينا ان نبدأ بتحديد ابعاد التطور المعاصر للاعلام الجماهيرى . فالاعلام الجماهيرى يتجه اليوم لان يتحول الى مؤسسات صناعية وتجارية اى ان يصبح بالصيغه التجارية . ونتيجة لذلك يسعى اساسا لتحقيق توازن معين فى الدخل او بعبارة ادق يسعى لان يتجنب الخسارة ان لم يكن يسعى للحصول على ربح . وهو لذلك يتجه من جانب آخر لتأكيد ظاهرة التركز فى الاجهزة الاعلامية تستوى فى ذلك النظم الديكتاتوريه والشمولية حيث تسهل ظاهرة الرقابة ، سواء فى الدول والنظم القائمة على مبدأ الاستغلال الفردى حيث هذا التركيز يسمح بتحقيق قسط اكبر من الربح وتجنب الخسارة .

الصيغة التجارية للاعلام اضحت واضحة فى جميع المجتمعات بلا استثناء . ورغم ان هذه الصيغه قد تختلف وتتنوع تبعا لطبيعة النظام السياسى الا ان ازدياد النفقات وتضخمها فى جميع المجتمعات المعاصرة ادى الى الاهتمام بنواحى الربح والخسارة ولو بدرجات متفاوته . وترتبت على ذلك عدة نتائج : ثمن الحصول على الخدمة الاعلاميـة .

أولا : السعى نحو تخفيض ثمن الحصول على الخدمة الاعلامية سواء كان مكتوبا او مسموعا او مرئيا على قدر الامكان . فان ذلك يحقق غايتين : من جانب تأكيد الصيغة الديمقراطيه مـع ما تعنيه من الانتشار والاخبارى ومن جانب آخر الحصول على اكبر عدد ممكن من المستهلكيـن للرسالة الاعلاميه .

ثانيا : الاهتمام بالاعلان حيث اضحى يمثل المصدر الرئيسى ان لم يكن فى بعض الاحيان لتحقيق التوازن فى مواجهة النفقات .

ما الذى ترتب على ذلك ؟

نتائج خطيرة تبدو واضحة بشكل خاص كلما ارتفعت وسيادت ابعاد التوازن بين الربح والخسارة .

أولا : الخلط بين الاعلام والاعلان . لقد اضحى فى بعض الاحيان يكاد يستحيل على القارىء العادى فى صحف معينه ما اذا كان ورد فى تلك الجريده هو من قبيل الاخبار المجردة او من قبيل الاعلان اى الاخبار الذى لم يتحكم فى التعبير عنه كرسالة الا نقطة الرغبة فى الحصول على الكسب المادى والمباشر . بعبارة اخرى الاعلان يدفع له ثمن دون اى اعتبار آخر فى حقيقـه ومضمون الرسالة موضع الاتصال . فى مواجهة هذا الخطر لجأ القانون الفرنسى الى التحريم بالنسبه الى كل اعلان ان لم يقدم بطريقه تيبوجرافيه معينه تسمح للقارىء بأن يتنبه انه ازاء اعلان وليـس اعلام . على أن تقدم من العلاقات العامة ادى بدوره الى خلق مناقد يستطيع من خلالها ان يلتف حول هذه القاعدة من خلال ذلك الذى نسميه خلق الواقعه بحيث يقدم الاعلام فى شكل اعمـال كافتتاح فرع جديد او عمل حفله معينه او تسلم كأس مهداه من شركة معينه على سبيل المثال .

ثانيا : كذلك هذا الطابع التجارى ادى الى اتجاه الاعلام لان يجذب اكبر عدد ممكن من المستقبل • وهو لذلك يسعى لاثارة الفضول وجذب الانتباه وتقديم العناصر التى تشبع الخبرات النفسيه اكثر من ان تشبع النقص الثقافى او الاعلامى الاخبارى • تبرز هذه الناحية واضحه فى البلاد الرأسماليه وبصفه عامة فى التدابير التى تجعل الاعلام تسيطر عليه نخبة الايحاد التجارية • اضحت الصحف فى تلك البلاد تمتلئ بأخبار النساء اللاتى تخون ازواجهن • والرجال الذين يزاولون الشذوذ الجنسى • والقصص الاجرامية بجميع تفاصيلها والفضائح السياسية او ما فى حكمها وقد اضحت الوسيلة الاعلامية نتيجة ايضا لذلك تكون بمثابة متجر ضخم حيث به جميع انواع السلع على ان التاجر ليدعوك الى دخول متجره بدءاً بتلك البضاعة التى تثير اكبر قسط من الانتباه •

ثالثا : ويرتبط بذلك ويتفرع نه ما يسميه المتخصصين بالصبغة الجنسية للاعلام المعاصر • اضحت فكرة الاستحواذ الجنسى والاغراء تسيطر على جميع صور الاعلام بما فى ذلك التليفزيون والاذاعة • حتى بالنسبة للاعلام المسموع فلم يعد من المتصور على سبيل المثال ان يقدم نشرة اخبارية لاتقدم صوتا لرجل وصوتا لامرأة يتبادلان الخطاب • مرد ذلك كله الرغبة فى خلق حالة اندفاع • جنسى لاشعوريه تقود الى الاهتمام ولو على حساب الوظيفه الاعلامية • ان الاعلام الجماهيرى يجب ان تكون وظيفته ان يخبر ويثقف وليس ان يثير او يغرى او على الاقل يجب ان يكون هناك توازن بين الناحيتين •

ب) الناحية الثانية التى يتعين علينا ان ندخلها فى الاعتبار ونحن بصدد التساؤل عن اهمية الاعلام الجماهيرى فى عملية التفاعل السلوكى هى ان نتذكر طبيعة الفارق بين اسلوب الاتصال • بالاتصال من خلال الاعلام المسموع يختلف اختلافا كليا من حيث آثاره عن الاتصال خلال الاعلام المكتوب او الاعلام المرئى • سبق ان ابرزنا هذه النواحى بايجاز • يحسننا ان نؤكد بهذا الخصوص على بعض ابعاد علاقة التأثير والتأثر التى تتحدد بطبيعة كل اتصال اعلامى : يجب ان نتذكر ان جمهور الصحافة وبالتالى اثر الاتصال من خلال الاعلام المكتوب الدورى يتوقف على عوامل متعددة • طبيعة المجتمع • اى هل هو مجتمع متخلف ام متقدم • الامر الذى يحدد امكانية القراءة والكتابة فضلا عن سهولة المواصلات ثم درجة اهتمام الفرد بالصحافة اذ نجد على سبيل المثال الفرنسى والالمانى اقل من الامريكى فى الاهتمام بمتابعة الاعلام المكتوب واخيرا درجة تقبل الوسيلة الاعلامية من المجتمع • لاتكفى المعرفة بالقراءة وانما يجب ان تكون هناك عادة القراءة • ولا يكفى ان يوجد الاعلام المكتوب بل يجب ان يشعر الجمهور باهمية الصحافة كأداة من ادوات التعبير عن الرأى العام •

ثانيا : ... يمكننا ان نتذكر ان المحتوى يأتي الاعلام ... التأثير على السلوك ... والاتجاه ... يرى ... ان ذلك يعزى الى اكثر من عنصر واحد : فالتلفزيون يصبح بمقدوره ... ان من خلال اداة واحدة ، ثم ... وينتقل الى كل منا في منزله واثر من ذلك انه يقدم لنا ... النموذجية المرئية النماذج السلوكية بصورة اكثر الاعلام التلفزيوني يعتمد على الصوت ... آن واحد ثم نرى من خلال فكرة التمثيل وشكل ادوات الكلام يستطيع ان يثير الصوت ... الانفعالي مخاطبا قوة ايجابية في تقوية الدفع نحو عملية التأثير السلوكي ... من متابعة آثار التلفزيون في المجتمعات النامية ، وقد يرجع من امكانيات التلفزيون ... التفاعل السلوكي في المجتمعات المتخلفة عاملين : من جانب عدم انتشار التلفزيون ... الاداة على الوصول الى كل منزل وفي كل مستوى اقتصادي ومن جانب آخر ما يسمى ... الاجتماعي في عملية الاخراج التلفزيوني يقصد بذلك ان النماذج السلوكية التي ... الاخراج التلفزيوني في البلاد المتخلفة هي منقولة من البلاد المتقدمة او تعكس ... بعيد عن الاوضاع الاجتماعية المتداولة بحيث تفقد عملية الارسال التلفزيوني من آثار التأثير ... التأثير والتالي من نتائج الاتصال المرئي على تشكيل السلوك او تغيير الاتجاه .